نيتروجلسرين

رواية

نيتروجلسرين

رواية

تأليف :

مصطفي عبيد

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2018/10019

الترقيم الدولي: 978-977-820-050-8

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

نيتروجلسرين

أن تقتل لتقتل

مصطفي عبيد

رواية

«لا أحلم بأن يشرب الذئب مع الخروف من وعاء واحد. هذا حلم كبير. لا أحلم بأن يتوقف الناس عن متعة القتل. إن هذا مستحيل. كُل حلمي أن يظل القاتل قاتلًا والقتيل قتيلًا، دون أن تختلط عليّ اليد التي غرست السكين والقلب الذي تلقى الطعنات.

هابيل حبيبي، أفرح به حين يرفض مد يده ليبادل ابن أمه طعنة بطعنة. قابيل حبيبي. أفرح به وهو يبكي من الألم حين رأى جثة أخيه عارية، محرومة الروح في العراء.

أحلم بالحياة، حلبة مصارعة، بالعدل، بين الخطأ والندم، لا منتصر فيها ولا مهزوم».

الشاعر عماد أبو صالح

خطاب من قارئ

عزيزي الأستاذ......

تحية عطرة وسلامًا ومحبة.

أما بعد.

أتابـع باهتمـام مـا تنـشره مـن حكايـات غريبـة عـن القتلـة السريـين في تاريخنـا الحديـث، وأتعجـب مثلمـا تعجبـت أنـت كيـف أخرجـت هـذه الأرض تلـك النمـاذج، وكيـف خطـا عـلى ترابهـا هـؤلاء البـشر! إنـك بمـا كتبـت تضبـط جينـات التطـرف والإرهـاب المتوارثـة عـبر أجيـال مـن المصريـين جيـلًا بعـد آخـر. وأتصـور أنـك مُحـق في تصديـرك المقـالات الـتي نشرتهـا بُحكـم ثابـت يؤكـد أننـا شـعب يُخلّـد المُجرمـين ويُقـدّس القتلـة، وربمـا كان ذلـك سـببًا في اتسـاع دوائر العُنـف في السـنوات الأخيرة.

لـن أطيـل عليـك سـيدي، فالحكايـة أنـني وجـدت كـنزًا وثائقيًـا أعتقـد أنـه يهمـك ويهـم النـاس عندمـا اشـتريتُ شـقة قديمة في شـارع الإسـكندر الأكـبر بمـصر الجديـدة لأخصصهـا عيـادة لي. في إحـدى الغُـرف تـرك المالـك أجولـة مملـوءة بالكُتـب والمجـلات والأوراق القديمـة، وبينهـا هالـني أن أجـد دفـترًا مُجلـدًا ومُعنونًـا بكلمـة «حيـاتي»، وهـو مـا جـذب انتباهـي لكونهـا مذكـرات لشـخصية قـد تكـون مُهمـة. قلبـت وريقـات المُجلـد لأجـد حكايـات عـن عمليـات اغتيـال وقتـل ومُتفجـرات ومُحاكمات فلسـفية لبعـض المشـاهير وتوصيـف لـكُل مُسـتهدف بكلمـة «خائـن»، وهـو مـا جعلـني عـلى يقـين أنَّهـا تخُـص قاتـلًا سريًـا مُحترفًـا. ويبـدو أنَّ هـذا الرجـل هـو الـذي أوحـى للكاتـب الراحـل إحسـان عبدالقـدوس بكتابـة روايتـه الشـهيرة «في بيتنـا رجـل»، خاصـة أنـني وجـدت طبعـات مُتعـددة مـن الروايـة وصـورًا مقصوصـة مـن مجـلات لعُمـر الشريـف، وهـو يـؤدي دور بطـل الفيلـم الـذي حمـل نفـس اسـم الروايـة.

وبعـد... فـإنَّ ضيـق وقـتي وضعـف معرفـتي بالتاريـخ دفعـاني أن أبعـث لـك بحزمـة الأوراق كاملـة، لعلـك تُحصّـل منهـا معلومـة غائبـة أو تُحقـق حكايـة غامضـة تُسـاهم بهـا في تنويـر النـاس.

ولك مني خالص الود وعظيم التقدير..

الدكتور حاتم مُصطفى الطوخي

استشاري العظام بمستشفى عين شمس التخصصي

كلمة إلى الكاتب

تموت في هدوء، تُغادر في صمت، تخفُت رويدًا بعد أن فتلوا لك المشانق. تنسحب بعيدًا لترفرف في اتجاه آخر. تكشف حيلهم، وتنجو من فخاخهم وتؤثر لك الحياة بقدر حرصك على الموت. سنوات وراء سنوات، وأنت تطير كفراشة حول نيرانهم، تقفز كأرنب بري فوق حواجزهم، وتفلت كثعبان من ضربات بطشهم. تُقاوم كرصاص وتصبر كصحراء وتُخطط كثعلب مُغامر.

كُنت دائمًا تعلوهم بوطنيتك وتسبقهم بوله الشباب وتتفوق عليهم بإعجاب الرائين والسامعين، لكنك الآن تمضي وحيدًا مُنعزلًا، لا يعرفك الناس، ولا يستوقفك المارة ليسألوك إن كُنت فلانًا. انقلب الزمن وتبدلت الأقنعة وارتدى الخونة أردية البطولة وربح الانتهازيون والجُبناء، فصرت نسيًا منسيًا. لا أهل ولا تلاميذ ولا أنصار ولا حبيبات تنفطر قلوبهن خوفًا عليك.

حلَّ زمن الخيانات. الأبطال صاروا إرهابيين، والمُحرضون على العُنف أصبحوا أنبياء رحمة، وزعيم القتلة سموه رئيسًا مؤمنًا. أما الفدائيون، والمُضحون، والعائشون مع الأخطار فطاردتهم أوصاف دنيئة من عينة «مُتطرف»، «إرهابي»، «مهووس بالدم».

هكذا الموت أولى، وأفضل، وأشرف، فأقفز إلى الضفة الأخرى. يكفيك أنك لن تموت تحت أقدامهم، ولن يفترسوا جُثتك. يُرضيك أنك لن تمنحهم نظرات الشماتة، ولن تهدِهم طمأنينة التشفي وأنت تبدأ رحلتك الأبدية نحو المجهول.

أيها الساكن بلا حراك، مُنتظرًا موعدًا ضربه لك ملاك الهيبة الذي زارك قبل أيام: يمم فؤادك أو تريث، لا يهم، فالموعد لا يقبل التأجيل، وقُل ما تريد واكتب ما تشاء وأوصى بما تتمنى فليس

هُنـاك ماكينـة لإعـادة الزمـن وإيقـاف الفعـل.

الـكلام لا يُغـير أمـرًا والكتابـة لا تُصحـح مـا كان، والدمـوع لا تُعيـد مـا فـات، ومـا جـرى جـرى وأنـت راضٍ وحُـر، فاستسـلم للحظتـك الأبديـة واتـرك شـهادتك لعلَّهـا تكـون أجمـل مـا فعلـت في عُمـر تقبحـت فيـه أفعـال وتجملـت أفعـال واختلـط الحـق بالباطـل، وصرت نفسـك لا تـدري أأحسـنت أم أسـأت.

المـوتُ نهايـة البـشر، يولـدون صاخبـين وبكاؤهـم يبعـث الفرحـة في الآذان، ويعيشـون مُذبذبـين بـين الرضـا والسـخط، ويرحلـون مُتذكريـن مـا تركـوا مـن خـير، نادمـين عـلى أفعـال شر، ويخلفهـم غيرهـم ليكـرروا ذكرياتهـم الحسـنة وندمهـم المُتأخـر، لا شيء تغـير مُـذ خطـا آدم أولى خطواتـه عـلى الأرض.

تذكـر أنَّ بينـك وبـين الغيـاب سـاعات قـد تطـول وقـد تقـصر، وأنّ عليـك أن تُصفّـي ذهنـك وتُنقـي بالـك لتسـتنطق لحظاتـك لحظـة لحظة، تكُـر فيهـا مـا كان دون دفـاع أو تبريـر، وتسـتعرض خلالهـا مـا فعلـت دون حجـب أو توريـة. لا تنتظـر إنصافًـا ولا تُقـدم ندمًـا وإنمـا تـترك مـا تعرفـه لكاتـب الصُدفـة ليصيـغ مـا يـراه جديـرًا بالحـكي لأجيـال قادمـة تتخبـط وتتشـابك أمامهـا الـرؤى والـدروب. سـتترك حكايتـك أمانـة لكاتـب لا يحبـك ولا يكرهـك، يدونهـا كعظـات لتائهـين يؤمنـون أنَّ الخـلاص في القتـل، أو دروس لشـباب عُميـت أبصارهـم وانخدعـوا بأقـوال كاذبـة وصدقـوا شـعارات رنانـة. رُبمـا صاغهـا أديـب بشـكل قصـصي جـذّاب ليؤثـر في نفـوس نقيـة تُجرجـر رويـدًا نحـو فخـاخ إبليـس فتكـون لهـم دليـل نجـاة.

سـتترك أوراقـك لمَـن؟ لا تعـرف. سـتتركها نابضـة صاحيـة ناقلـة لحيـوات تابعتهـا، ورجـال عايشـتهم، وكلمـات آمنـت بهـا، وأيـام عصيبـة تغـذت عـلى روحـك، دمـك، وذرات الإنسـانية داخلـك. هـذه الحقيقـة الـتي عشـت سـاترًا لهـا، وتلـك النهايـة الـتي لـم تتوقعهـا. مـا أبشـعها مـن

نهايـة: أن ترحـل في صمـت، في وحـدة، وبـدون مراسـم احتفـال، كمـشردي الشــوارع، وســكان الرصيــف، والعائشــين عــلى الهامــش. لــولا بطاقتــك مـا عرفـوا مَـن أنـت وأيـن تُدفـن. لـولا مـرآة بسـيطة مازلـت قـادرًا عـلى قـراءة ملامحـك فيهـا لتصـورت أنـك لسـت أنـت. غابـت عينـاك في ظـلام الأسى وحفـر الزمـن أخاديـد عجـز وفشـل في وجهـك. زنـت كلاب الشـوارع وسـفلة النـاس بصورتـك فـصرت بقايـا مسـخ يحتقـره البـشر. لـم يعـد أمامـك سـوى المـوت حـلا، القفـز إلى هُنـاك اضطـرارا، الدخـول إلى كهـف النسـيان، والتـواري عـن الجميـع، واعـتزال الحيـاة، شـطب النفـس مـن الوجـود، محوهـا محـوًا، ووأد الأنفـاس المتبقيـة الـتي لا تمـر دون أوجـاع في الرئتـين والبنكريـاس والضلـوع، وخلـع جلبـاب الدنيـا تمامـا.

ينتظـرك المـوت كصديـق قديـم يتبعـك مُنـذ مولـدك، يُتابعـك أينمـا ذهبـت. فيمـا مـضى كان يجـري خلفـك فتُـسرع الخُطـى وتبتسـم كُلمـا ابتعــدت لكنــه لا يكــف عــن المطــاردة. يــرد الابتســامة لــك في ثقــة، وكأنَّـه عـلى يقـين بأنـه سـيلحقك يومًـا مـا. الآن لا سـبيل للفـرار، سـتقف مُستسـلمًا وسـتصافحه كمـا يليـق بمبعـوث الـرب، ثُـم ستسـير إلى جـواره في طاعـة نحـو عالـم آخـر وأنـاس آخريـن.

الــدار الآخـرة هــي الحيــوان، موضــع الخلــود والديمومــة، عالــم اللانهايــة، لا شرور ولا آثــام، لا مظالــم ولا اعتــداءات، لا اســتغلال ولا توحـش ولا جنـون، لا حـروب ولا غـارات ولا اغتيـالات، لا زعامـة ولا اسـتبداد، لا نفـاق ولا مواءمـات، لا رؤسـاء دول ولا جيـوش ولا برلمانـات، لا أحــزاب ولا ساســة، لا مؤامــرات ولا دســائس، لا صحافــة ولا إعــلام، ولا شيء البتـة. هُنـاك حاكـم واحـد وحَكـم أحـد وملـك وحيـد ومتـصرف مُنفــرد. الــكُل خاضــع وصامــت لا يمتلــك النُطــق أمــام رب الأكــوان.

مــا كان رؤى يتحــول إلى حقيقــة، ومــا كان ظنًــا ينقلــب يقينًــا. في دار البقـاء لا احتمـالات ولا خيـالات، لا أمـور نسـبية، ولا افتراضـات. النظـام صـارم، والعدالـة سـائدة، والـكل يمـضي نحـو عملـه دون مُناقشـة. لـذا

فاصدق بشدة وبحرص كمحتضر باحث عن فعل خير وحيد في عمر من الشك والقسوة والغدر. واكتب كشاهد وبُح كمعترف وقُل ما يجب قوله.

حسين توفيق

نوفمبر 1978

الفصل الأول
القاهرة

لم يشهد ما جرى لكنه وعاه وعاشه تخيلًا كأنَّه يجري أمامه. حكايات والده، ومحاورات الكبار وقصاصات الصُحف تركت في دماغ الطفل البريء ذي العينين الزائغتين والسمت الانطوائي شعورًا عجيبًا اختلط فيه الإعجاب بالغيرة. زعيق يتردد صداه في أذنيه لشخص يصرخ «أمسكوا المجرم. أمسكوا القاتل» بعد دويّ ست رصاصات شقت طريقها نحو لحم مسئول كبير خرج للتو من مبنى نظارة الحقانية. الخائن نال ما يستحق بعد أن ترأس محكمة ظالمة اقتطفت أرواح بني وطنه لإرضاء جيش الاحتلال البريطاني. كان الطفل الصغير يتخيل مشهد ذلك الشاب النحيل إبراهيم الورداني، وهو يقترب من بطرس باشا ليُنفّذ فيه حُكم الشعب بالإعدام نظير سلسلة من الخيانات غير عابئ بضياع مُستقبل أو بطش سُلطة. سقط الرجل وسط حُراسه ومساعديه مُضرجًا في دمائه، وهو لا يكاد يُصدق أن تثقُب صدره وأمعاءه رصاصات الثأر بتلك الطريقة السهلة. نُقلت الضحية إلى مُستشفى ملتون بباب اللوق وزاره الجناب العالي، وبذل الأطباء الأجانب جهودًا مُضنية لاستخراج الرصاص، لكن قدر الله غلبهم، وانفلتت الروح إلى بارئها لتقف أمام محكمة أبدية مُطلقة العدل. فرح الناس كما لم يفرحوا مُنذ سنوات وهنأوا القاتل على صنيعه، وتبادل كثير من الشباب صورة الصيدلاني المقبوض عليه فيما بينهم حتى أن السُلطات أصدرت قرارًا بالقبض على كُل حائز لصور الجاني. ورغم مُعاقبة الشاب ذي الأربعة وعشرين عامًا بالموت، فإنَّه كتب شهادة خلوده حتى بعد تنفيذ الحُكم الذي تم لأول مرة ضد إرادة مُفتي الديار المصرية الشيخ بكري الصدفي، الذي أبدى تشككه في قوى القاتل العقلية.

فيما بعد عرف الطفل الصغير قبل أن يخطو نحو عامه السابع أنَّ والده توفيق بك أحمد كان من بين أصدقاء الورداني المقربين،

وأنَّـه شـاركه أفـكاره وخططـه مـن خـلال خليـة وطنيـة باسـم «التضامـن الأخـوي» لكنّـه حصـل عـلى الـبراءة، لتجرفـه الحيـاة بعـد ذلـك بعيـدًا عـن السياسـة والعمـل الفـدائي وانخـرط في السـلك الوظيفـي صاعـدًا نحـو حيـاة هانئـة رغـدة لا يُعكرهـا خطـر، ولا يُربكهـا قلـق.

في بيـت يليـق بـأسرة ثريـة أبـصر «حسـين» حولـه وجوهًـا بـاردة انفصلت رويـدًا عـن وجـع النـاس بتحكُـم الأعـداء والخونـة في مصائـر العبـاد، وتأقلمهـم مـع الاحتـلال البريطـاني وتسـليمهم للغربـاء في قيادتهـم واسـتعبادهم. كان يشـعر أن أبـاه، ذلـك الرجـل القـوى المُهيـب ذا الشـارب المفتـول والنظـرات القاسـية، صـار متورطًـا في الطاعـة بعـد أن نـسى صديقـه «الـورداني» حـتى أنَّـه كـوّن رأيًـا رافضًـا لعمليـات الفـداء الـتي جـرت في أعقـاب ثـورة المصريـين سـنة 1919، ووصـم بعـض أبطالها مثـل المحامـي شـفيق منصـور بالهـوس والتطـرف. لـم يعُـد حسـين خائفًـا مـن نظـرات والـده الـتي كانـت تُخيفـه في المـاضى، نظـرًا لمعاملتـه الصارمـة مـع الخـدم والمسـتخدمين، واقتنـع أنَّـه في الحقيقـة شـخص مسـالم وخاضـع يحسـب ألـف حسـاب لأي موظـف أجنـبي يعمـل إلى جـواره في وزارة المواصـلات. ورويـدًا تبدلـت صورتـه في عقلـه الباطـن مـن فـدائي جـريء تدفعـه الوطنيـة إلى أن يُخطـط ويقتـل الخونـة في العقـد الأول مـن القـرن العشريـن إلى موظـف مُنتفـع يجلـس عـلى مقعـد وكيـل الـوزارة في العقـد الرابـع مـن نفـس القـرن.

وحـتى أُمـه الحنـون، صاحبـة الوجـه الحليـبي المُسـتدير، والشـعر المُظلـم السـاحر صدتـه عنهـا بنظراتهـا المتعاليـة للخـدم والنـاس مـن حولهـا نظـرًا لانحدارهـا مـن أسرة تُركيـة كانـت مُقربـة يومًـا مـن البـاب العـالي. ورغـم إغداقهـا عليـه بالشـيكولاته والملبـس، ورغـم اهتمامهـا الجـمّ بتعليمـه الحـرص عـلى ارتـداء الملابـس النظيفـة، والظهـور بمظهر جميـل فإنَّـه كان يشـعر دائمًـا أنهـا مـن طـين آخـر غـير ذلـك الـذي أنبـت الوجـوه الكالحـة الموجوعـة بالفقـر والاسـتعباد حولـه. لقـد تألـم كثـيرًا

عندما عرف أنَّها أسمته «حُسين» تيمُنا بأسماء باشاوات وبكوات من أصول تُركية حملوا الاسم وحازوا مناصب رفيعة ونجاحات عظيمة، وهو ما دفعه بعد ذلك إلى ابتكار قصة مُلفقة مفادها تسميته باسم الثائر العظيم الحُسين صاحب المقام المشهور بوسط القاهرة، الذي يلتف حوله أصحاب الحاجات كل يوم.

في المعادي، ذلك الحي الجديد المُحتشد بفيلات وقصور الأثرياء والباشاوات كان يوقن أن هناك خارج حدود الرؤية المعتادة عوالم أخرى وأناسًا مُختلفين وأوجاعًا متنوعة، وكانت أذناه تلتقط بين الحين والحين فواصل من أحاديث أُم علي الخادمة مع عم صالح السُفرجي أو عُثمان الجنايني عن أحياء تغوص في الفقر وشوارع تفيض بالحُزن وقُرى يسكنها فلاحون حفاة لا يجدون طعام يوم. وحول بيته كان يسير عساكر إنجليز بسيقان عارية ووجوه حمراء، يضعون مسدساتهم في أحزمة تلتف حول خصورهم، ويمشون في خيلاء كأنَّهم ملكوا الكون وما حوله.

في المدرسة، تضاعف شعوره بالغُربة بدءًا من اسم المدرسة وألسنة مُدرسيه وزملائه، وحتى أفكارهم وتوجهاتهم وأحاديثهم الخاصة. كانت المدرسة تحمل اسم «الفرير» بمعنى الإخوة، وقد أسسها شقيقان فرنسيان قدما إلى مصر منتصف القرن السابق لتعليم الطبقة المُترفة وأبناء الحاشية. كان مُعظم التلاميذ من أبناء الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية والأرمينية، فضلا عن أثرياء اليهود من المصريين يبدون مُنفصلين عن قضايا البلد، ولا يهمهم كثيرًا جلاء الإنجليز عن مصر أو بقاؤهم، وتتركز اهتماماتهم في التعرّف على العلوم الحديثة، وتعلم اللغات والموسيقى، بينما يتفقون جميعًا حول حلم واحد هو العيش في أوروبا، حيث المدنية والرُقي والتقدم.

في كل صباح، كان عم عُثمان الجنايني يصطحب الطفل الصغير حتى

محطة القطار ليركب من المعادي حتى الظاهر حيث تقع مدرسته العتيقة، وكان الولد ضعيف الجسم يشعر أنَّ عالمًا غريبًا مفروضًا عليه، وهو ما دفعه للانطواء وتجنب مُصادقة أولاد الأجانب، وكان يستمع في القطار لذلك الصخب الدائر بين الأفندية والموظفين حول توقيع اتفاق الصداقة المصرية البريطانية الذي كان يراه البعض بداية طريق الاستقلال، بينما اعتبره آخرون تمييعًا للقضية الوطنية.

في تلك السنوات كان كثير من المصريين الثائرين قد خفتت عزائمهم ووهنت قواهم، وأيقنوا أنَّه لا بديل عن الحوار والتفاوض مع المُحتل مُقدمين مبدأ الاستقلال المُتدرج بديلًا للكفاح المُسلح، خاصة بعد أن أدان حزب الأغلبية فكرة الاغتيالات عقب مقتل السردار البريطاني السير لي ستاك واعتبرها أعمالًا صبيانية، بل إنَّه قبل المشاركة في حكومات ائتلافية تحكم فيها القصر وانتهت إلى لا شيء.

لم يكُن «حسين» مُختلطًا بأحد سوى الطفل نجيب، ابن خالته ذي العينين الزرقاوين والشعر الأشقر الذي كان يبدو حزينًا أغلب الوقت نتيجة انفصال والديه. وكانا يُمثلان معًا مشهدًا خياليًا لصراع الثري التركي المُتجبر والفلاح المصري ابن البلد، وكان «حسين» يُصر كل مرة على القيام بدور الفلاح، وكانت شرايين ذراعيه تتصلب وعضلاته تتمدد وهو يضغط على رقبة خصمه وابن خالته الذي يلعب دور التُركي المُتجبر. في تلك الأثناء أحس حُسين ببوادر شعبيته عندما كان سعيد شقيقه الذي يصغره بخمس سنوات يُشجعه بحرارة، في الوقت الذي كان فيه «مدحت» شقيق «نجيب» يشجعه أيضا. وقتها انتابه الشعور بأنَّه المُقاتل المحبوب الذي يُمكن أن يُعبّر عن مصر وقضايا المُضطهدين فيها.

***

في النـادي مثـل المدرسـة لا أصدقـاء أو أحبـاء. عـبر الصـبي «حسـين» عامـه الثـاني عـشر لينمـو جسـده فجـأة وينقلـب انطـواؤه إلى شـعور بالتفـرُّد والقـدرة. انتفخـت عضـلات سـاعديه واشـتدت صلابتـه بفضـل الركـض كُل يـوم دون توقـف مُراقبًـا وقـت الغـروب. في نـادي المعـادي الـذي فاجأهـم رب الأسرة بالاشـتراك فيـه كان يجـري دون هـدف رافعًـا شـعار «لا ألـم. لا كلـل» مُطلقًـا طاقـات كُبتـت سـنوات عـدة مُـذ عـرف حكايـة إبراهيـم الـورداني وبطـرس باشـا. كان «حسـين» كلمـا دخـل النـادي مـع والديـه وشـقيقه الأصغـر رأى أناسًـا مُختلفـين عـن سـواهم مـن البـشر. نـاس غـير السـائرين في الشـوارع المؤديـة إلى مدرسـة الفريـر بالظاهـر، أو الجالسـين في القطـار الـذي يسـتقله كل يـوم إليهـا. نـاس بوجـوه بـاردة، هادئـة، ترنـو عيونهـم دائمًـا لأعـلى ويتحدثـون بصلـف وغـرور أحاديـث سـطحية غالبًـا مـا تكـون باللغـة الفرنسـية أو الإنجليزيـة. سـترات فاخـرة، وفسـاتين ضيّقـة وفاتنـة، وعالـم مُبهـر يمـوج بالضجيـج وحكايـات المُترفـين. الـكلام عـن مولانـا الشـاب المتديـن وانتظـاره وليًـا للعهـد يـدور بـين المُجتمعـين كمسـألة مصريـة للبـلاد. والـكلام عـن التوتـر المُخيـم عـلى أوروبـا بسـبب الخطـر المُتزايـد مـن توحـش الألمـان وخرقهـم لمُعاهـدة فرسـاي وتوسـيع الجيـش قبـل التحالـف مـع بينيتـو موسـوليني للتوحـد تحـت اسـم دول المحـور يـدور دون فهـم لطبيعـة الأمـور وخصائـص الأمـم. والـكلام عـن القُطـن المـصري وهبوط أسـعاره يتكـرر، وكأنَّ جميـع سـكان مـصر يُتاجـرون فيـه. وبعـض الأحاديـث تعـرُج عـلى الوضـع السـياسي المُتيبـس بعـد إقالـة الملـك للنحـاس باشـا، تلـك الإقالـة الـتي بـدا فيهـا الملـك الشـاب فـاروق مُتعجرفًـا، وهـو يثـأر مـن محـاولات الباشـا السـيطرة عليـه بعـد تتويجـه ملـكًا عـلى مصر والسـودان.

سـار «حسـين» وحيـدًا بـين أشـجار الـسرو المغروسـة عـلى الجانبـين غـير مُلتفـتٍ لضحـكات فتيـات هُنـا وهُنـاك حـول أمـور ظـنَّ دائمًـا أنَّهـا لا تعنيـه. كان يُفكـر صامتًـا كيـف فـرَّ والـده مـن مُجتمعـه المـصري وأصولـه المتوسـطة لينخـرط وسـط هـؤلاء الكُـبراء المُتحذلقـين، الذيـن يعيشـون

كسادة وكل مَن سواهم عبيد! كيف طاوعه قلبه أن يهجُر العمل السياسي ويخلد للدِعة ويُسلِم تسليمًا؟

لاحظ «حسين» أنَّ «سعيد» شقيقه الأصغر يسير خلفه ببطء، فالتفت إليه ليجده مادًا يمناه الرقيقة ليمسك يده. سأله في جفاء عما يُريد، فأخبره أنَّه لا يجد أحدًا يلعب معه. ابتسم الصبي الأكبر وقال له:

ـ لا تغضب. لا تلعب مع هؤلاء. ليسوا منا.

هزَّ شقيقه رأسه مُجيبًا، ومُسلمًا كفه لتحتضن الكف الكبرى في محبة، وقال كمن يشكو:

ـ لا أجد مَن يلعب معي، حتى في البيت.

انزلقت فتاة عابرة كانت تركض وراء أختها فندت من «حسين» التفاتة سريعة نحو وركيها العاريتين اللتين أطلتا من جونلة قصيرة، لكنَّه واصل السير مُطمئنًا شقيقه بأنَّه سيلعب معه. شعر بنشوة الرضا، وهو ينظر إلى شقيقه كتلميذ صغير يخضع لما تنبس به شفتاه بيسر. عبرا إلى جوار حمام السباحة المُكتظ بفتيات وشباب صاخبين يلهون في مرح، ورماهم «حسين» بنظرات سخط قبل أن يقول لشقيقه:

ـ هؤلاء ليسوا مصريين. ليسوا منا ولسنا منهم. نصفهم خواجات ويهود وخونة، والنصف الآخر أبناء كُبراء ينتفعون بالاحتلال. هؤلاء يأكلون من خير مصر دون حق وينهبونها كُل يوم. أما أولاد البلد فمطحونون وراء ما يُلقيه إليهم هؤلاء.

مصمص الصغير شفتيه مُبديًا عدم الفهم، لكن «حسين» واصل تمثيل دور الأستاذ قائلًا:

ـ هُم أشرار يا «سعيد».

ثُم أضاف:

ـ وخونة.

بـدا الخـوف عـلى وجـه الصغـير كلافتـات المظاهـرات، فاسـتطرد «حسـين» قائـلًا:

ـ لا تخف يا «سعيد». أنا معك.

رمـت عينـا الصغـير نظـرات حُـب وافتتـان نحـو شـقيقه الكبـير، ثُـم همـس:

ـ أخاف عليك يا «حسين ». هُم كبار.

جاءه الرد ممتزجًا بنبرة ثقة:

ـــ قُلـت لـك. لا تخـف. سـنكون أقـوى وأكـبر. أهـم شيء هـو الإخـلاص، وألا تُخـبر أحـدًا.

هـزَّ الصغـير رأسـه، وسـار مـسرورًا راضيًـا إلى جـوار شـقيقه، كان يشـعر أن شـقيقه الأكـبر هـو راعيـه الأول، وقائـده نحـو مـا لا يعلـم. كان يظُـنّ أنَّـه ليـس مُجـرد أخ، وإنمـا هـو والـد جديـد، وقـدوة ومُعلـم، وفـوق كُل ذلـك صاحـب وأنيـس. صـار مُغتبطًـا أن وجـد أخـيرًا صديقًـا بعـد أن يئـس مـن دفـع «مدحـت» ابـن خالتـه للعـب معـه. كانـت عينـاه تبثـان طاعـة وخضوعًـا، وكان وجهـه ينضـح بالرغبـة في التعلـم والاسـتعداد التـام لتلقـي أي شيء مـن «حسـين»، لـذا فقـد تلقـى «سـعيد» الـدرس الأول فـور عودتهمـا إلى البيـت. وكان ذلـك الـدرس هـو: كيـف تقتـل الخـوف داخلـك؟

كان لـدى «سـعيد» قطـة صغـيرة ثلجيـة اللـون، كثيفـة الفـرو، زرقـاء العينـين، أحضرتهـا والدتـه لـه في عيـد ميـلاده السـابع. جثـا «حسـين» عـلى ركبتيـه وأخرجهـا مـن عُلبـة خشـبية كانـت تنـام فيهـا، ومسـح بأناملـه الرقيقـة عـلى رأسـها مانحًـا إياهـا طمأنينـة السـلام، ثُـم قـام وهـو يحتضنهـا بيـسراه، وفتـح بـاب الشُرفـة في هـدوء قارئًـا في وجـه شـقيقه نظـرة اندهـاش وخـوف. ابتسـم في بـرود وصـاح في «سـعيد»: ألقهـا مـن

هُنـا. ألقهـا يـا «سـعيد». هيـا لا تخـف.

تجمَّد «سعيد «مصدومًا ليُكرر شقيقه:

ــ هيا يا «سعيد». اقذف بها إلى هذا السور.

هزَّ «سعيد» رأسه رافضًا، وقال مُستجديًا:

ــ حرام.

برقت عينا «حسين»، وانتفخ وجهه بُحمرة الغضب وهو يُكرر:

ــ ليس حرامًا. اقتل خوفك.

ــ ستموت.

ــ لا يهـم. ليـس لهـا فائـدة. لـو قتلتهـا سـيكون لهـا فائـدة لأنهـا سـتُعلمك ألا تخـاف.

ــ لكن أنا خائف.

ــ أول مـرة سـتكون خائفًـا، في الثانيـة سـتخاف أقـل، وبعـد ذلـك لـن تخـاف أبـدا، صدقـني سـتُصبح الأمـور عاديـة.

فهـم الطفـل الصغـير أنَّ شـقيقه هـو مَـن قتـل عصفـور أُمـه الملـون الـذي وجدتـه قبـل أيـام مكومًـا داخـل القفـص الكبـير. لقـد اسـتغربت أُمـه أن وجـدت رأس العصفـور يميـل إلى الزرقـة، لكـنَّ أحـدًا لـم يلتفـت لاحتمـال أن تكـون هُنـاك يـدٌ امتـدت إلى عُنـق العصفـور لتعتـصره في هـدوء وجـرأة، جـرأة تليـق بقاتـلٍ عظيـمٍ ينتظـره مُسـتقبل دمـوي.

تدحرجـت دمعـة سـاخنة مـن عيـني الصغـير، وقـال لشـقيقه إنَّـه لا يسـتطيع. القطـة بريئـة، طيبـة، رقيقـة، توقظـه كل يـوم، وتلعـب معـه، ويُطعمهـا بيديـه. قطـب «حسـين» حاجبيـه، وأطلـق تنهيـدة ملـل، ثُـم عـاد إلى داخـل الغرفـة ووضـع القطـة مـرة أخـرى في صندوقهـا، وأخـبر شـقيقه ألا يطلـب منـه أن يلعـب معـه بعـد ذلـك لأنَّـه لا يلعـب مـع الجبنـاء، ولـم تكـد قدمـه اليمـنى تخطـو خـارج الغرفـة حـتى نـاداه «سـعيد» باكيًـا وقـال لـه:

ـ حسين. حسين. تعال. ارمها أنت.

ابتسم «حسين» ابتسامة المنتصر، وعاد سريعًا ليُخرج القطة من صندوقها ثُم رجع إلى الخلف، وبكل ما أوتى من قوة قذف بها لتسقط فوق سور الحديقة مُصدرة صوت مواء مكتوم، قبل أن يتمدد جسمها فوق السور مُتلويًا يمينًا ويسارًا، وبدا واضحًا أنَّها تتألم بشدة جعلت «سعيد» يُغمض عينيه، لكن «حسين» نظر إليها مُستمتعًا وهو يقول:

ـ هكذا تخرُج الروح.

وشعر بنشوةٍ غريبةٍ وفخرٍ شديدٍ لأنَّه نجح في قتل الخوف والرحمة في فؤاد أخيه مثلما قتلهما في فؤاده من قبل. وقال في حنو مُصطنع:

ـ لا تُخبر أحدًا يا سعيد.

وأخرج من جيبه شيكولاتة كادبوري من تلك التي يعشقها «سعيد»، وقال فرحًا:

ـ ستكون معي دائمًا.

***

برقت العيون، وساد الصمت، وخربشت فئران الإثارة بأدمغة الصبية عندما قال لهم «نجيب»:

ـ «لاشين» أسطورة. مُتعة جميلة. حدوتة البطولة. قصة الموسم.

كان «نجيب» مُنتفخًا وهو يحكي عن ذلك الفيلم الذي شاهده للتو بالسينما. سرد «نجيب» أمام «حسين» و«سعيد» و«مدحت» وهُم سائرون أمام نادي المعادي أحداث الفيلم الذي سمحت له أمه بدخوله مع زملاء مدرسته. واستطرد وقد لاحظ اهتمام المُستمعين:

ـ لاشين قائد شُجاع، طويل، وممشوق القوام، عيناه تشعَّان ذكاءً ودهاءً، ويتمتع بُحب الناس لشهامته ونُبله، يكتشف أنَّ الوزير

فاسد ويُتاجر بأقوات الناس وينهب خيرات البلاد، ويحاول أن يشكي للسلطان لكنَّه يجده واثقًا في وزيره، وغير مُهتم بالشعب، بل إنَّ النساء هُنَّ شُغله الشاغل. يمل من واحدة فيهجرها إلى أخرى. ويحارب «لاشين» الأعداء وينتصر عليهم ويحضر للسلطان جارية اسمها كليمة لتدخل ضمن حريمه، لكنها تنفر منه فيقوم بسجنها، ويطلب البعض من السلطان معاقبتها بإهدائها إلى «لاشين» ولا تلبث أن تحبه بشدة، ويحبها هو الآخر، وتشتعل ثورة الجوعى في البلاد، ويأمر السلطان بتوزيع الطعام على الناس لكنَّ الوزير الفاسد يسرق الطعام هو ورجاله.

وتوقف «نجيب» هُنيهة مُستطلعًا قدرته على التشويق، فلكزه «حسين» طالبًا منه أن يُكمل، فواصل قائلًا:

ـ يُلاحظ الوزير ورجاله مقاومة «لاشين» لأفعالهم فيقررون التخلص منه، ويخبرون السلطان بحب كليمة له، ويسعى السلطان إلى اختباره فيلعب معه الشطرنج على أن يحصل الفائز على كليمة، ويفوز «لاشين»، فيغضب السلطان ويعتبر قائده خائنًا لأنَّه فاز لحبه للجارية ويأمر بحبسه، ثُم يأمر بإعدامه إلا أن الناس تضج بالفساد والفقر، وتقرر الثورة وتقتحم السجن وتنقذ «لاشين». ثُم يقوم الثوار بعد ذلك بقتل الوزير الفاسد وسجن رجاله، وتعيين «لاشين» مكانه ليحقق العدل بين الناس.

ـ والسُلطان؟

سأل «حسين» في حدة ظاهرة، فأجابه نجيب:

ـ ينصلح حاله ويحكم بعد ذلك بالعدل.

ضحك «حسين» قبل أن يقول ساخرًا:

ـ عدل؟ كيف يكون ذلك؟ هل ينقلب فرعون إلى موسى؟ هذا ضحك على الذقون.

ثُم سأل مُجددًا:

ــ مَن هو مُخرج هذا الفيلم الأسطورة؟

ــ توجو مزراحي.

هـز «حسـين» رأسـه باسـمًا بطريقـة لا تُناسـب صبيًـا في الرابعـة عـشرة مـن عُمـره وقـال بحكمـة شـيخ:

ــ أكيـد. توقعـت ذلـك. توجـو مزراحـي. المُخـرج اليهـودي. لابـد أنَّـه يقصـد ذلـك ليقـول لنـا إنَّ المشـكلة ليسـت في الملـك وإنمـا في رئيـس الـوزراء، وإننـا لـو اكتفينـا بتغيـيره سـتنصلح الأحـوال.

بـدا «سـعيد» و«مدحـت» لا يعيـان كثـيرا ممـا يقـال، لكنهمـا كان يشـعران أنَّ «حسـين» يفهـم أكـثر رغـم أنَّـه لا يقـرأ الصحـف ولا يشـاهد الأفـلام مثـل «نجيـب».

رد «نجيب» قائلًا:

ــ انتظـر. نسـيت أن أخـبرك أنـني قـرأت في الجورنـال أنَّ نهايـة الفيلـم كانـت مُختلفـة وأنَّ الرقابـة اعترضـت عليهـا فتـم تغييرهـا. ذكـر البعـض أنَّ النهايـة في القصـة الأولى تضمنـت قتـل الملـك وتـولي «لاشـين» الحكـم.

ــ لا تنبهر بقصة خيالية صنعها يهودي.

وضـع «نجيـب» كفيـه بجيـبي بنطالـه وهُـم سـائرون، وبـدا غـير مقتنـع بـكلام «حسـين»، وقـال بعـد فـترة صمـت طويلـة:

ــ اسـمع يـا حسـين. أنـت مُتعصـب ضـد الفيلـم لأنَّ مخرجـه مزراحـي اليهـودي، بينمـا نسـيت أنَّ كاتبـه هـو أحمـد رامـي وبطلـه حسـن عـزت، وبطلتـه ناديـة ناجـي، ومنتجـه هـو أحمـد سـالم.

لـم يُجبـه حسـين وإنمـا أخـذ يُصفـر هـازًا رأسـه يمينًـا ويسـارًا كأنَّـه عـازف كمـان، مبُديًـا عـدم إعجابـه بـرأي ابـن خالتـه، وفي المقابـل رأوا جمعًـا مـن الفتيـات يسـير نحـو بوابـة النـادي، كانـت تتوسـطهم فتـاة طويلـة ترتـدي تنـورة زرقـاء فـوق قميـص فاتـح، وتحمـل فـوق شـفتيها

ضحكة مُثيرة وحولها صديقاتها يتحدثن ويضحكن ضحكات مكتومة. رمقهن «نجيب» مُبتسمًا، وقال لابن خالته:

ـ إحسان هلّت.

ثُم نظر إلى شقيقه مدحت وقال له:

ـ تعال معي.

لكن «مدحت» أبى وقال بعصبية:

ـ لا. سأبقى مع حسين وسعيد.

فأشاح برأسه، وتركهم واقترب من الفتاة ذات الضفيرتين وقال بفرنسية:

ـ «بون سوار».

ابتسمت ومدَّت يدها الرقيقة البيضاء مُصافحة وقالت له:

ـ «بون سوار».. أهلًا يا نجيب.

اهتزت أرنبة أنفها ليرقص قلب «نجيب» فخرًا أنها اشتمت رائحة كولونيا «اتكنسن»، التي يحرص على رشها كل صباح. عرفته بصديقاتها الثلاث سريعًا قبل أن تسأله عن أخبار المدرسة والنادي والقراءة والسينما ودروس الموسيقى، ورنت بعينين ماكرتين إلى صحبته، ثُم سألت بصوت أقرب للهمس:

ـ أما زال ابن خالتك لا يكلم البنات.

هز نجيب رأسه آسفًا وقال:

ـ لا عليكِ. دعكِ منه.

يُعجبها طوله، ونظرات عينيه المُقتحمتين، ويثيرها تعاليه. قربت وجهها من أذن نجيب، وهمست:

ـ قُل له إنَّ صديقتي ميمي مُعجبة به. ستحضر معي حفل النادي يوم الخميس. أحضره لأعرفه عليها.

مصمص شفتيه في تعجب وقال:

ــ سأفعل.

ثُـم اقـترب منهـا أكـثر، وهمـس في أذنهـا كلامًـا، تـوردت لـه وجنتاهـا، واتسـعت ابتسـامتها، وردت:

ــ بعد الحفل. يوم الخميس.

راقـب «حسـين» المشـهد بعينـين نهمتـين، ورأى نفسـه واقفًـا فـوق خشـبة مـسرح كبـير وأمامـه هـؤلاء الفتيـات وغيرهُـن كثـيرات يُصفقـن لـه في إعجـاب شـديد ويهتفـن باسـمه. كانـت هامتـه مرفوعـة نحـو السـماء رانيًـا إلى النجـوم كبطـل مـن أبطـال الرومـان.

لحظـات لـم تطـل كثـيرًا، واسـتأذن نجيـب عائـدًا لرفقتـه. كان الصبيـة الثلاثـة يمشـون في سـكون مُتأملـين الأشـجار الباسـقة، مُستنشـقين الهـواء النقـي قبـل أن يعـود إليهـم سـائرًا وعـلى شـفتيه الصغيرتـين ابتسـامة ماكـرة. في طريقهـم، دنـا «نجيـب» مـن «حسـين» مُقاربًـا لـه طـولا، ومتفوقًـا عليـه عرضًـا، وهمـس في أُذنـه بـكلام لـم يسـمعه «سـعيد» و«مدحـت»، اللـذان كانـا دائمًـا يشـعران بقربهمـا أكـثر مـن «حسـين». كرر «نجيـب» صـب كلامـه في أُذن «حسـين»، الـذي لمعـت عينـاه اهتمامًـا، لكنهمـا لـم تلبثـا أن انطفأتـا بعـد قليـل. كان همـس «نجيـب» يقـول:

ــ واضـح أنَّ خالـتي كثـيرة الدعـاء لـك. أنـت محظـوظ جـدًا. «ميمـي» اختارتـك. أجمـل شـفتين في النـادي. حديـث الشـباب كُلـه. تُريـد التعـرف بـك يـوم الخميـس. سـأقول لـك شـيئا جرَّبتـه وعرفتـه. قُبلـة الشـفتين لهيـب مُمتـع. سـحر لذيـذ يـا حسـين، تطـير فيـه روحـك، وتُحلِّـق في سـماء لا حـدود لهـا، تمتـص عسـلًا جميـلًا وتغيـب عـن الكـون رغـم يقظتـك، و...

ولـم يُكمـل «نجيـب» حديثـه حيـث اسـتوقفته كـف حسـين المُمتـدة أمـام وجهـه، ورمـاه بكلمتـين فقـط. عـلا بهمـا صوتـه ليسـمعه «سـعيد» و«مدحـت»:

ـ أنتم تافهون.

***

بـدا القلـق عـلى وجـه «توفيـق بـك» عندمـا أخـبره الطبيـب أن ابنـه الأكـبر يُعـاني مـن انفصـال في الشـبكية. كان المُهنـدس الكُفء ذو الوجـه الصـارم يُلاحـظ كثـيرًا شرود ابنـه وانطـواءه وتعاملـه مـع مَـن حولـه بمزيج مـن العصبيـة والـبرود، وكان يشـعر باختـلاف الولـد عـن أبنـاء أصدقائـه المقاربـين لسـنه في تجاهلـه الاهتمـام بالفتيـات، وعـدم التشـبث بارتـداء الملابـس الفاخـرة، وقلـة الاختـلاط بالنـاس، وآلمـه كثـيرًا أنَّ الولـد يمنحـه نظـرات اتهـام دائمـة لا يعـرف مكنونهـا. ظـنَّ الموظـف الكبـير بـوزارة المواصـلات أنَّ فـترة المُراهقـة تفـرض عـلى ابنـه بعـض خصائصهـا، لكنـه لاحـظ عليـه بعـض التصرفـات الغريبـة كان مـن بينهـا نزولـه إلى حديقـة المـنزل في بعـض الليـالي للنـوم تحـت أشـجارها، وضبطـه أكـثر مـن مـرة يتنصـت عـلى جلسـاته مـع أمـه بغرفـة نومهمـا، وإمسـاكه صـواني الطعـام الخارجـة مـن الفـرن سـاخنة دون منشـفة. فضـلًا عـن ذلـك، فقـد لاحـظ الرجـل أنَّ ابنـه لا يخـاف مُطلقًـا، ولا يبـكي أبـدًا، حـتى عندمـا رسـب في مـادة الرياضيـات بالمدرسـة وتـم حرمانـه مـن المـصروف لأسـبوع كامـل فإنَّـه لـم يبـك أو يتأثـر.

ويومًـا سـأل الأب زوجتـه إن كانـت تُلاحـظ عـلى ابنهـا سـمات الحـدة أو العنـف، فقالـت إنَّ ابنهـا أكـثر وداعـة مـن ابـنيْ شـقيقتها لكنهـا رأت أنَّ مشـكلته الوحيـدة هـي كونـه خجـولًا جـدا. وحكـت الأم لزوجهـا أنَّ إحـدى صديقاتهـا كانـت تزورهـا قبـل أيـام، ورأت «حسـين» فاحتضنتـه وقبّلتـه، لكنـه غضـب بشـدة وجـرى مُسرعًـا وهـو يمسـح خديـه أمـام السـيدة وكأنَّهـا تحرّشـت بـه.

بعـد احمـرار دائـم لاحظتـه الأسرة في عيـنى «حسـين» كان لابـد مـن

عرضه على طبيب مُتخصص، لذا فقد رافقه أبوه إلى مُستشفى العيون، حيث تم فحص عينيه فحصًا دقيقًا انتهى إلى ضرورة إجراء عملية جراحية له مع توقعات بتأثيرها على نظره فيما بعد، وهو ما ساهم في اتساع انطوائه، وسأل الوالد إن كان يُمكن تأجيل العملية إلى فصل الشتاء فوافق الطبيب مُقدرًا أنَّ ذلك أفضل.

كان شعور طاغٍ بالتقصير ينتاب الأب تجاه ابنه وهو ما دفعه يومًا لدعوته والحديث معه بصراحة، طالبًا منه أن يفتح له قلبه ويُخبره بأي شيء يُضايقه، لكنّه كالعادة لم يتلق سوى نفس النظرات المُريبة الحادة، وعاد إلى أمه مُبديًا قلقه وطلب منها ضرورة توسيع مُحيط الولد الاجتماعي خاصة ممن هُم في سنه، وهو ما جعلها تستضيف مع بدء الإجازة الصيفية بعض الأولاد من العائلة ليلعبوا مع «حسين» و«سعيد»، فضلًا عن ابنيْ شقيقتها نجيب ومدحت.

في ذلك الوقت وجد «حسين» في ابن خالته الآخر «محمد إبراهيم» ولدًا ذكيًا طموحًا، يحمل ذات الكراهية والنفور من لهو الصبية وسطحيتهم، ورغم أنَّ والده «أحمد بك كامل» كان قاضيًا بمحكمة الاستئناف، فإنَّه كان يرى أنَّ العدل لا يُمكن أن يتحقق بدون دماء، وأنَّ الحق لا يسود إلا بقوة دافعة. انبهر «حسين» بابن خالته وهو يسخر من «نجيب» الذي يقرأ القصص ويُشاهد الأفلام ويشغل وقت فراغه بمُصاحبة الفتيات والعبث بأجسادهن مُعتبرًا ذلك من دلائل الرجولة. حدثه «محمد» كيف دفع حماس الشباب ألمانيا إلى أن تُعيد إنشاء جيشها بعد أن كانت ممنوعة من ذلك عقب الحرب العالمية الأولى، ووصلت الإرادة بالألمان أنهم اجتاحوا بجيوشهم أراضي النمسا ثُم التشيك ليعلنوا التحدي المباشر مع الدولة التي تتجبر على المصريين وتستغلهم وتستنزف خيراتهم. وقال له «محمد» يومًا إنَّه قرأ كتابًا عن الزعيم أدولف هتلر الذي أعاد مجد الألمان وأثار حماسهم لتكوين امبراطورية عُظمى.

شعر الفتى الحزين بوجود غايات لحياته، وآمن أنَّه يُمكنه أن يلعب دورًا حيويًا في طرد الاحتلال من مصر. تذكر الولد مُظاهرات رآها وتابعها هُنا وهُناك تؤيد هتلر والمحور وتمنى الموت للإنجليز بعد أن أصبح الصراع بين القوتين مُعلنًا، ودار في رأسه هُتاف أطفال المدرسة وبعض المدارس المجاورة «يا عزيز يا عزيز. كُبة تاخد الإنجليز»، وعرِف أنَّ «عزيز» هذا ضابط مصري يتعاون مع الألمان ويدعوهم لغزو مصر. وقرر «حسين» إغاظة العساكر ذوي السيقان العارية الذين يتجولون كُل يوم في شوارع المعادي كأنَّهم آلهة إغريقية، وقال لصحبته يومًا:

ـ سأبدأ المعركة ضد الإنجليز.

كان مع أبناء خالته يتحدث بنبرة رجولية تمكنت من صوته وتزامنت مع نبت صغير لشنب أخضر رسم حدوده فوق شفتيه، لكنَّه تلقى ردًا ساخرًا من «نجيب» وهو يقول له:

ـ هل ستحارب الإنجليز بدبابتك المُخبأة بحجرة عم عُثمان الجنايني؟

وجاء رد «حسين»:

ـ لا يا نجيب. بعم عُثمان نفسه.

وخرج ووراءه «نجيب» و«سعيد» و«مدحت» و«محمد» ليروه يأمر عم عثمان بإحضار دلو القار الذي كان يدهن به سور الحديقة، ثُم مشى ووراءه الرجل الخمسيني الذي شعر بالسرور لإرضاء الصبي دائم العُزلة وكثير الحُزن، ومضيا في الشارع حتى وصلا أمام بيت مهجور، ووقف «حسين» يغمس الفرشاة في القار ليرسم بها على الرصيف صلبانًا معقوفة. ومن شارع لآخر تحركا ليُكرر الولد رسمه في نشوة، بينما كانت عيون رفاقه تُلاحقه بانبهار. مشى بفخر عائدًا إلى البيت بعد فراغ دلو «عم عثمان» والتف حوله أقرانه، وهنأه «محمد»، بينما سأله «سعيد» عن معنى رسمه فأخبره بأنَّ الصلبان المعقوفة

هـي شـعار الحـزب النـازي، وهـو مـا يغيـظ الإنجلـيز ويفزعهـم، لكـن «نجيـب» الـذي احتفـظ بابتسـامة باهتـة مصمـص شـفتيه، وقـال لـه:

ــ ومـاذا يعـني ذلـك؟ هـل سـيخرج الإنجلـيز مـن مـصر لأنَّـك رسـمت لهـم شـعار النـازي؟

وقبـل أن يـرُد تلقـى «نجيـب» لكمـة قاسـية مـن «محمـد» الـذي صرخ فيـه:

ــ لا تكُن مُثبطًا.

وأمسـك «نجيـب» برقبـة ضاربـه الـذي بـدا ضئيـلًا إلى جـواره، لكنَّـه تراجـع فجـأة عندمـا وجـد عـم «عثمـان الجنايـني» يهـرع إلى «حسـين» ليخـبره أن هُنـاك عسـكريًا بالبـاب يُريـده. ران الصمـت عـلى الجميـع، وتـسرب الخـوف إلى قلوبهـم عـدا واحـد فقـط هـو حسـين نفسـه الـذي ذهـب في هـدوء وبـرود، وسـأل العسـكري عمـا يريـد، فأخـبره أنَّ مفتـش الأمـن بالمنطقـة يطلبـه. ابتلـع «حسـين» ريقـه وخـرج مـن بـاب المـنزل ليجـد سـيارة جيـب بـدون سـقف يجلـس فيهـا ضابـط وعسـكري مصريان، مـا إن اقـترب منهمـا حـتى صـاح بـه الضابـط:

ــ يا ولد. أين دلو القار؟ أحضره، ستمسح ما رسمته بيديك.

ــ انتظر والدي.

قال «حسين»، لكن الضابط كان صارمًا:

ـــ لـن أفعـل. سـتأتي معـي وستمسـح مـا رسـمته. ليـس لي علاقـة بوالـدك ولا يهمـني مَـن يكـون. ولـو تكـررت فعلتـك سـأقبض عليـك.

وكانـت تلـك الواقعـة قاسـية للولـد الـذي عـرف أنَّ لـكل فعـل رد فعـل، وأنَّ طريـق التمـرُد مفـروش بالأخطـار، وأنَّ هُنـاك دائمًـا عقابًـا. وسـاءه أن يتضاعـف العقـاب بعـد علـم والـده، حيـث تـم إرسـاله بالقطـار إلى عمتـه بالإسـكندرية ليقـضي الإجـازة في عزبتهـا ويُحـرم قليـلًا مـن أبنـاء خالتيـه وشـقيقه، لكـن ذلـك كان فرصـة لـه للتفكـير والتأمـل وترتيـب

الذهـن، ورسـم الطريـق لعمـل أكـبر وأكـثر خطـورة.

بينـه وبـين نفسـه كـرر «حسـين» سـؤال ابـن خالتـه «نجيب»عـن فائـدة رسـم الصليـب المعقـوف عـلى الأرصفـة، وأجـاب: لا شيء. وقـرر بحسـم أن يتحـول للعمـل الواقعـي، وأعلـن لنفسـه أنَّ الضربـات القادمـة يجـب أن تكـون موجعـة، ومؤثـرة.

***

نظـر إلى صدرهـا غـير مُصـدِّق، كيـف تحـررَ مـن كُل مـا عليـه بتلـك البسـاطة والسرعـة وبـدا فاتنًـا مُبهجًـا ككـرتي مُشـمش! لاحظـت عينـاه انتصـاب جيدهـا الرُخامـي الناعـم، وذلـك الوجـه المرسـوم بعنايـة فنـان مـن عـصر النهضـة، دقيـق الأنـف، صغـير الفـم، مُبهـر القسـمات. دقـق النظـر مُسـتمتعًا بضفيرتـين رفيعتـين اعتـادت أن تُدليهمـا عـلى الجانبـين لتبـدو كفتـاة بريئـة مازالـت تخطـر في سـنوات الطفولـة. اقـترب مـن جسـدها اللامـع متصـورًا أنَّـه كُتلـة مـن اللهيـب قبـل أن تُمسـك أصابعهـا الرقيقـة يـده اليُمـنى في دلالٍ وتضعهـا بـين نهديهـا. شـعر «حسـين» بخـدر غريـب يـسري في شراييـنه عندمـا لامسـت بشـفتين رقيقتـين خـدَّه الأيمـن، ثُـم زحفـت رويـدًا نحـو شـفتيه لتمتصهمـا في جنـون. تراجـع قليـلًا للخلـف، وأفلـت شـفتيه مـن قُبلتهـا المحمومـة وقـال لهـا مُتهتهًـا:

ـ إحسان. حسبت أنك تحبين نجيـ..

ولـم يُكمـل حديثـه حيـث أطبقـت شـفتاها مـرة أخـرى فـوق شـفتيه وهـي تتـأوه بشـبقٍ وتـرُد:

ـ لم أحب غيرك. حسين.

والتفـت يداهـا حـول رقبتـه في اللحظـة ذاتهـا الـتي احتـك فيهـا لحـم صدرهـا الطـري بجسـده العـاري، مُكتشـفًا لأول وهلـة أنَّـه مـنزوع

الملابـس تمامًـا. قشـعريرة سـاحرة تسرَّبـت عـبر شرايينـه ونـار لاهبـة أمسـكت بخلايـاه النشـطة. عـار؟ سـأل نفسـه كيـف؟ ومـتى؟ حـاول «حسـين» أن يتذكـر، لكنـه لـم يتمكـن، أمـا أُنثـاه فقـد امتـدت يداهـا مُتحسسـة ظهـره الناعـم، وجذبتـه بُعنـف نحوهـا، وهـي تفـح كثُعبـان غاضـب. شـعر «حسـين» بالعـرق يتصبـب فـوق جبينـه، وأحـسَّ لسـانها يلعـق عرقـه بتلـذذ فاضـح. تسـارعت دقـات قلبـه عـلى وقـع خُطـوات تعلـو رويـدًا، ثُـم انفتـح بـاب الحُجـرة فجـأة ليطـل أبـوه بوجـهٍ غاضـبٍ وعينـين حمراويـن. لـم ينطـق الأب بكلمـة، وإنمـا سـدَّد نظـرة احتقـار نحـو ابنـه، وهـزَّ رأسـه أسـفًا، ثُـم قـال كلمـة واحـدة:

ـ اخص.

وكررها بصوتٍ أعلى:

ـ اخص. اخص. اخص.

رصاصـة قاسـية ثقبـت قلبـه وامتـدت. مثلـك مثلهـم أيهـا المُراهـق. بِـع نفسـك إلى الشـيطان، ولا تُفكـر في البطولـة. أنـت تابـع. خاضـع. مُقلـد. سيشـترونك بالقليـل، وسيُخضعونك لإرادتهـم. لـو طلبـوا منـك الخيانـة سـتفعل طلبًـا لشـهوة تسـتعر دون مُطفـئ.

سمع صوتًا مكتومًا يُناديه:

ـ اقتل جوعك إن كُنت تريد مجدًا.

امتـدت يـد إليـه هزَّتـه يمينًـا ويسـارًا، يـد رقيقـة، يعـرف ملمسـها. فتـح عينيـه ليُبـصر شـقيقه الأصغـر جاثمًـا فـوق سريـره ومناديًـا:

ـ حسين. قُم.

رمـق ضـوء الشـمس ناثـرًا نهـارًا جديـدًا في فضـاء الغرفـة، وفاجـأه شـقيقه قائـلًا:

ـــ ولـدان غريبـان بالباب يسـألان عنـك. يقولان إنَّهمـا زميلاك بالمدرسـة، ويريـدان أن تشـارك معهمـا في سـباق الدراجات.

ـ دراجات؟

قـام نافضًـا كسـله، وشـعر ببلـل خفيـف، وتذكـر أنَّ الولديـن سـبق أن أخـبراه في المدرسـة أنَّهمـا يقطنـان إلى جـواره في المعـادي، لكنّـه ابتعـد عنهمـا لأنَّ أصولهمـا أجنبيـة. غسـل وجهـه، وسرّح شـعره كمـا علمتـه أمـه أن يفعـل كل يـوم فـور اسـتيقاظه، وخـرج إليهمـا.

«جـول أسـود» شـاب غريـب الأطـوار، حـاد الطبـاع مولـود مـن أم ألمانيـة وأب سـوداني، يمتـاز بضخامـة الجسـم وقـوة العضلات، ورغـم ذلـك فهـو أقـرب للسـذاجة والسـطحية. أمـا «أنـور فائـق جرجـس» فـكان ولـدًا نحيـلًا مُنفلتًـا إلى أبعـد مـدى، ولـه عينـان زرقـاوان، أحاطتهمـا ظـلال سـوداء نتيجـة التدخـين بشراهـة لا تتناسـب مـع خمـس عشرة سـنة قضاهـا في الكـون. دارت بـرأس «حسـين» فكـرة اسـتغلالهما، خاصـة أنهمـا مفتونـان بالخـروج عـن المألـوف وإتيـان الغرائـب والمغامـرة. تناقـش معهمـا، وأفهمهـا أنَّ سـباق الدراجـات لعبـة جيـدة لكنهـا لا تُناسـبهما، وأنَّ عليهمـا اسـتغلال قدراتهمـا وطاقاتهمـا في أعمـال مفيـدة مثـل إرهـاب الإنجلـيز وإلحـاق الأذى بهـم. فوجـئ «حسـين» بجيشـان الحمـاس في وجهيهمـا وحـتى بعـد انضمـام «سـعيد» إليهـم زاد حماسـهما، وهـو مـا دفعـه للحديـث عـن خططـه لإحـراق السـيارات العسـكرية التابعـة للإنجلـيز. لقـد أعجبـه فيلـم سـينمائي شـاهده ابـن خالتـه «نجيـب» وحـكاه لـه لأنَّـه عـرض فكـرة إحـراق السـيارات باسـتخدام الكيروسـين.

فى صبـاح تـالٍ انطلـق الصبيـة المغامـرون «حسـين» و«جـول» و«أنـور» ومعهـم «سـعيد» بدراجاتهـم يطوفـون شـوارع الحـي الهـادئ باحثـين عـن صيـد ثمـين، مُعلنـين بدايـة تجربـة جديـدة لإحـراق سـيارات الإنجلـيز العسـكرية. سـاروا مُتحمسـين يُصفـرون في تبـادل كفريـق مُتجانـس مُنـذ سـنوات. في بدايـة المغامـرة قابلـوا سـيارات مُسـكونة بعسـاكر وسـائقين اسـتبعدوها تجنبًـا للصـدام، ورأوا بعـد ذلـك سـيارات أخـرى في شـوارع صاخبـة بالحركـة، فتركوهـا خوفًـا مـن القبـض عليهـم، حـتى وصلـوا بعـد

طـواف ثـلاث سـاعات إلى شـارع مسـدود، لا يسـكنه إنسـان وشـاهدوا سـيارة كبـيرة بثمـاني عجـلات تقـف دون بـشر، فاقـترب «حسـين» مـن بابهـا الأيـسر فاحصًـا، ثُـم صعـد إليـه، وكـسر زجـاج النافـذة بضربـة عصـا سريعــة، وتنـاول مـن «جـول» زجاجـة الكيروسـين ليصبهـا فـوق مقعـد السـائق، ورمـى إليـه «أنـور» علبـة الثقـاب ليُشـعل واحـدًا ويلقيـه داخـل السـيارة، لكنّـه انطفـأ سريعًـا، ليصـاب حسـين بخيبـة الأمـل. لحظـات وقـرر مواصلـة تحديـه فأشـعل عـود الثقـاب الثـاني، ومُـني بـذات الخيبـة عندمـا خبتـت نـاره فـور إلقائـه داخـل السـيارة ثُـم أشـعل الثالـث، والرابـع دون جـدوى. وأخـبره أنـور أنَّ عليـه إشـعال شـعلة كبـيرة وإلقاءهـا بـدلًا مـن أعـواد الثقـاب، وعـلى الفـور مـزق فانلتـه الداخليـة ليحصـل عـلى خِرقـة طويلـة مـا لبـث أن أشـعل فيهـا النـار وألقاهـا داخـل السـيارة لتـأكل نيرانهـا مقعـد القيـادة بنجـاح. امتقـع وجـه «حسـين» بلـون السـعادة ثُـم قفـز فـوق دراجتـه وانطلـق وإلى جـواره زُمـلاؤه مُغتبطًـا بانتصـاره وعائـدًا إلى أبنـاء خالتـه بجبهـة مرفوعـة وشـعور طـاغٍ بالبطولـة.

بعـد يومـين كـرر الصـبي الخجـول فعلتـه مـرة ومـرات في شـوارع عِـدة، ثُـم غـيّر توقيتـات عملياتـه بفطنـة عاليـة، كمـا غـيّر مُسـاعديه مـن عمليـة لأخـرى مُسـتعينًا بابـنيْ خالتيـه «محمـد» و«مدحـت»، وبقـي «نجيـب» رافضًـا المُشـاركة، مُعلنًـا التضامـن السـلبي وحفـظ الـسر لهـم.

اتسـعت حالـة الفـزع بـين عسـاكر الإنجلـيز في تكنـات المعـادي، وحقـق البوليـس في حـوادث إحـراق السـيارات والـتي بلغـت خـلال أقـل مـن شـهر ثمانيـة عـشر حادثًـا، واسـتدعى مُفتـش الأمـن توفيـق بـك وأكـد لـه أنَّ هنـاك شـكوكًا عديـدة تحـوم حـول تـورط ابنـه في الحـوادث، لكـنَّ الرجـل ذا المكانـة المرموقـة رفـض أي اتهـام، مؤكـدا أنَّ ابنـه لديـه مشـكلة في شـبكية العـين ويعـاني مـن ضعـف شـديد في بـصره، وهـو مـا يسـتحيل معـه قيامـه بـأي فعـل يحمـل سـمة عُنـف. ووصـل الغضـب بالرجـل أن هـدد بتصعيـد الأمـر إلى رئيـس الحكومـة باعتبـار أنَّ التحقيـق مـع ابنـه

يستهدف النيل من أحد رجال الحكومة، فضلا عن تأثيره شديد السلبية على حالته النفسية.

وعلى مدى شهرين تاليين تابع الصبية المُغامرون الصُحف الصادرة باحثين عن أي إشارة لعملياتهم الفدائية دون أن يجدوا سطرًا واحدًا. كان لديهم شعور طاغٍ بضرورة أن يعرف الناس ما يفعلون، ووَدَّ «حسين» لو يجلس إلى والده يُحدثه بجرأة وشجاعة عن نضاله وحروبه السرية ضد المُحتلين.

لست ولدا تافهًا يا حضرة الفدائي القديم. لا سينما ولا فتيات. لا لهو ولا سهر. لا رقص ولا حفلات. لا ترف ولا استعلاء. كُلنا مصريون. أعرف أصولنا جيدًا وأعلم أننا لسنا أتراكًا ولسنا أعيانًا ولن يُشرفنا أن نكون كذلك. أسير على خُطاك أيها الوالد الصامت مُتتبعًا أقدام الخونة لأرسم لهم دروبًا إلى الجحيم. هكذا قال «حسين» لنفسه عندما تأمل صورته في المرآة يومًا بعد أن قفز طوله فجأة بأكثر من عشرة سنتيمترات ليبدو كنخلة باسقة ترُش ظلالها يمينًا ويسارًا. فكَّر وقتها أن عليه تحويل نشاطه وصحبه من مغامرات صبيانية إلى عمليات فدائية مُنظمة، وبدأ ذهنه موجهًا نحو ضم عناصر جديدة وتوسيع نطاق أهدافه ووضع أفكار وحيل جديدة وتعريف الجماهير بنضالهم حتى يتحول إلى موجة عارمة لا تُبقي ولا تذر.

كانت حكومة علي ماهر باشا قد أعلنت فور قيام الحرب العالمية الأحكام العرفية ووضعت الرقابة على الصحف والمكاتبات والرسائل ودور السينما وما تعرضه من أفلام، كما شملت الرقابة ما تبثه الإذاعة من أخبار وبرامج، ولكنَّ «حسين» ورفاقه كان لهم رأيٌ آخر، إذ اعتبروا الفرصة سانحة لبدء الحرب السرية ضد الإنجليز والخونة.

***

كان السيجار الغليظ الذي لفته أيادٍ ناعمة في الضفة الأخرى من العالم مُختنقًا بين أصابع «توفيق بك» وهو يجلس أمام مكتبه الخشبي الضخم مُتحدثًا بصوت خافت إلى «سميرة» زوجته وأم ابنيه «حسين» و«سعيد»، بينما كانت السيدة البيضاء ذات النظرات اللامعة تُدخن سجائر رقيقة في عصبية ظاهرة. لم يكُن الزوجان الصارمان يعرفان أنَّ ابنهما الأكبر والذي كان محور كثير من أحاديثهما الهامسة يتنصت عليهما في هدوء اعتاده.

كان الأب ذو الوجه المُستدير والصلعة الواضحة يحاول كتمان ملامح حُزن زارت روحه وانعكست على وجهه. قال توفيق بك لزوجته إن «حسين» دائم النظر إليه بعتاب، وأنَّه يلمح في وجهه زيغ دائم، ويخشى أن تكون للولد رغبات شاذة خاصة أنَّه لا يشعر باهتمامه بتاتًا بالتعرف على فتيات أو التحدث مع بنات أصدقائه في حفلاتهم ولقاءاتهم في النادي.

وقالت السيدة «سميرة» لزوجها إنَّها لا تشعر بصحة هواجسه تجاه «حسين» فيما يخص عدم سلامة سلوكه أو وجود توجهات شاذة له. إنَّها لا تأبه كثيرًا بعدم اهتمامه بمُصاحبة الفتيات مثل ابن خالته «نجيب»، لأنَّها تتصور أنَّه خجول بعض الشيء، لكنها لا تتصور أبدًا أن يكون بلا رغبات تجاه الفتيات، ودللت على ذلك بأنه يضع في حُجرته كثيرًا من التصاوير الخاصة بفنانات شهيرات مثل «جريتا جاربو»، و«كاثرين هيبورن»، و«بيتي ديفيز». وكان من رأيها أنَّ المرض الذي يُهدد عين «حسين» هو السبب في عصبيته البادية وعدم اختلاطه بالأسرة وجنوحه إلى قضاء ساعات طويلة في حديقة المنزل مع شقيقه وأبناء خالته. وقالت إنَّ أكثر ما يضايقها في سلوكه هو اختلاطه ببعض المستويات الدُنيا من الناس مثل «عثمان الجنايني» وأبنائه وقريبه الولد الشقي «سيد». وشكا رب الأسرة من امتعاضه من ضعف مستوى ابنه الدراسي واضطراره لنقله من

مدرسة إلى أخرى، مُعترفًا أنَّه يشعر بغربة شديدة كلما نظر في عينيه، وشاركها تخوفه من تقليد شقيقه الأصغر له.

نجحت خططك يا ثعلب المدينة. قالها «حسين» لنفسه وهو يُتابع حديث والديه من خلف خزانة الكُتب الكبيرة التي تستند إلى الجدار بجوار المكتب. لقد سمع حديثًا مُشابهًا قبل أيام وهو ما دفعه أن يضع صور الفنانات الشقراوات بين دفاتر كُتبه ليمحو القلق من نفس أمه، مؤكدًا لها أنَّه مثل مَن هُم في عمره يُحب النساء ويعشق أجسادهن. فكر أنَّ أمامه رحلة كفاح طويل تحتاج رضا الأهل وسكوتهم وهو ما يستلزم إقناعهم بأنه شخص طبيعي، بل وطبيعي جدًا. وتذكر اتفاقه مع ابنيْ خالتيه «محمد إبراهيم» و«مدحت»، وقريب الجنايني المُسمى «سيد» على بدء خطة تسليح عن طريق شقيق عم «عثمان الجنايني» الذي يسرق الأسلحة من معسكرات الإنجليز ويبيعها، وخطرت في رأسه فكرة استغلال مخاوف والديه من تجنبه للفتيات في الحصول على أموال كافية لشراء السلاح من السارق.

في الصباح اتصل بـ«نجيب» سائلًا إن كان سيخرج في المساء، فأجابه بأنَّه سيذهب إلى نادي الطيران الملكي لمشاهدة فيلم فرنسي عن الطيران، ثُم سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها قبل أيام في آلامريكين بوسط المدينة. سأله إن كان يُمكن أن تُعرفه صديقته على إحدى صديقاتها فقال إنَّه سيحاول، مُستغربًا سلوك ابن خالته غير المعتاد. دعاه أن يمُر عليه لاصطحابه معه، ثُم ارتدى بذلته الأنيقة وذهب إلى أُمه سائلًا إياها إن كان مظهره مُناسبًا، فهزت رأسها ثُم سألته إلى أين يذهب، ففاجأها معترفًا ببعض الخجل بأنَّه سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها مؤخرا مع «نجيب»، وأنَّه مُتردد في الذهاب لأنَّه يعلم أنَّ اللياقة تُحتم عليه دعوتها للعشاء، وأن مصروفه انتهى ولا يستطيع أن يفاتح والده في ذلك. بدت «سميرة» سعيدة باعتراف

ابنهـا، وقامـت مُسرعـة لتـدُس في يـده بضعـة جنيهـات ناصحـة إيـاه أن يبـدو كريمًـا ولطيفًـا مـع صديقتـه. وتأكـد فرحهـا ورقـص قلبهـا مـن السعادة وهـي تستقبل ابـن شـقيقتها «نجيـب» مُتأنقًـا ومُتعطـرًا بعطـر جـذاب يخلُـب الألبـاب. قبلتـه عـلى خـده في حنـو خالـة كبـيرة، وسـألته عـن وجهتيهمـا، فقـال:

ــ سنُشاهد فيلمًا في نادي الطيران.

ابتسمت، وهزَّت رأسها المُستدير وواصلت مُبدية تفهمًا:

ــ ثُم إلى أين يا نجيب؟

ــ سنلتقي أصدقاء آخرين لنا.

اتسعت شـفتاها مُعلنـة أنَّ هواجـس زوجهـا بشـأن شـذوذ ابنـه في غـير محلهـا، ثُـم سـألت:

ــ أي أصدقاء بهذه الأناقة؟

ثُم هزَّت أرنبة أنفها مُتشممة وأضافت:

ــ وهذا العطر الجميل؟

ــ تنسكين.

ــ مَن ستقابلان؟

سـألت السـيدة النابهـة. فابتسـم «نجيـب» بمكـر دون أن ينطـق، فكـررت:

ــ فتيات؟ أليس كذلك؟!

هـزَّ رأسـه موافقًـا، بينمـا كانـت عينـا حسـين تتابعـان المشـهد برضـا وسرور ليسـمع أمـه تقـول بابتسـامة واسـعة:

ــ عظيم. لا تخجلا. لقد كبرتما وأصبحتما رجلين. كونا لطيفين.

ثُم غمزت بنصف عين لابنها قائلة:

ــ حبيـبي لا تخـش شيئًا. لـن أخبر والـدك. لكـن عـدني أن تُذاكـر وتجتهد

وتُحقـق أمـل والـدك في أن تُكمـل تعليمـك بأوروبا.

هـزَّ «حسـين» رأسـه دون أن ينبـس، وشـعر أنـه قـادر عـلى وضـع خطط خِـداع وتضليـل، وأنَّـه شـخص ذكي عـلى خـلاف مـا يعتقـد والـده، ورمـى ابـن خالتـه بنظـرة ريبـة لكنّـه عـاد مؤكـدًا أنَّـه لا يُمكنـه إفشـاء سر رغـم خلافاتـه المتكـررة معـه وبـاقي أفـراد العائلـة.

خرجـا معًـا سـعيدين والشـغف ثالثهمـا، بحثـا عـن سـعادة مُرتقبـة. كان «حسـين» قـد قـرر جمـع المـال بـأي طريـق وأي أسـلوب لـشراء مُسـدس مـن حنفـي شـقيق «عثمـان الجنايـني»، بينمـا كان «نجيـب» يشـتاق للمسـة يـد ناعمـة لفتـاة أوروبيـة. في الطريـق سـأل «نجيـب» ابـن خالتـه: كـم معـه، فأجابـه: ثلاثـة جنيهـات، فابتسـم وقـال:

ــ عظيم.

وأضاف:

ــ وأنـا معـي جنيـه وسـيكون بإمكاننـا العشـاء وشراء سـجائر اكسـترافين والسـهر في أي كازينـو صاخـب ومعنـا اليونانيـات الجميـلات. سـتُسر جـدا يـا «حسـين». قالـت لي «كاليـوبي» أنَّهـا سـتُحضر صديقتهـا «تينـا» وهـي فتـاة سـاحرة، سـتعرف معهـا كـم كُنـت مُخطئًـا برفضـك مُصاحبـة البنـات. سـحر جميـل يـا «حسـين».

تحسسـت أصابـع «حسـين» شـعره المُسترسـل المُلمّـع بفازلـين مُتميـز، ثُـم أخـرج مـن جيبـه المـال الـذي منحتـه لـه أُمـه، ثُـم سـأل رفيقـه أن يُعطيـه مـا لديـه، استجاب لـه «نجيـب» فرحًـا، فتناولهـا «حسـين» جميعًـا ودسَّـها في جيبـه، ثُـم سـحب نفسًـا عميقًـا، وقـال:

ــ اسمع يا نجيب. سنشتري بما معنا مُسدسًا لنبدأ الحرب الحقيقية.

امتعض نجيب وضاقت عيناه قبل أن يقول:

ــ مُسدس؟

ــ نعم.

ـ كيف؟ والفتيات؟ وأمك؟ وجنيهي؟

ربت «حسين «على كتفه وقال:

ــ سـنأكل آيـس كريـم وسـنجلس مـع فتياتـك لكننـا لـن ندعوهمـا للعشـاء ولـن نسـهر. الوطـن أولى يـا صاحـبي.

ـ لكن...

ـ انتهت المناقشة يا نجيب. هيا بنا.

وسـارا معًـا طويلـين كمئذنتـين، وشـعر «نجيـب» أنَّـه خُـدع، لكنـه تحـلَّى بالصمـت، وخيبـة الأمـل، وتوقـع أن يكـون القـادم مُخيفـا، لـذا لـم يشـعر في ذلـك اليـوم بلمسـات حانيـة منحتهـا إيـاه فتاتـه «كاليـوبي» ولـم تُـثره رُكبتاهـا الخارجتـان مـن تنـورة قصـيرة، وبـدا مُسـتغربًا بشـدة ضحـك «حسـين» وانخراطـه في محـاورات مثـيرة مـع الفتاتـين وكأنَّـه خبـير نسـاء ممـن يُشـاهدهنَّ في أفـلام السـينما.

***

تحلقـوا حولـه ينظـرون بولـهٍ وامتنـان. ماسـورة مـن الصُلـب الأسـود الثقيـل، متعامـدة عـلى مقبـض خشـبي بُـني اللـون تُمـيزه مسـامير كبـيرة بـارزة.

ـ سميث آند ويسون.

نطـق «حسـين» الجالـس واضعًـا سـاقًا فـوق أخـرى في صبـاح خريفـي رائـق، وإلى جـواره جلسـوا جميعًـا، ابنـا خالتيـه محمـد ومدحـت، وشـقيقه سـعيد، وصديقـه الجديـد سـيد. كان «نجيـب» سادسـهم الـذي غادرهـم مُعـتزلًا بعـد أن أخبرهـم أنَّ الشركـة الـتي صنعـت المسـدس هـي شركـة أمريكيـة أسسـها شـخصان همـا «هـوراس سـميث» و«دانيـال ويسـون» قبـل نحـو مائـة عـام وأنَّهـا أكـبر منتـج للأسـلحة في العالـم.

بـدا «سـيد» ذو الملابـس الرثـة والوجـه الأسـمر الشـاحب والعينـين الزائغتـين سـعيدًا بصداقـة أبنـاء الـذوات الذيـن يرطنـون بالإنجليزيـة والفرنسـية، ولا يحملـون هـم طعـامٍ أو ثيـاب، وينفجـرون غِـلًا وحقـدا لا حـدود لهمـا تجـاه المسـتعمر الإنجلـيزي وكُل مَـن يتعـاون معـه. كان «سـيد» الـذي تكلـم التحـق بالمدرسـة بالـكاد، قبـل أن يأمـره والـده أن يلـزم «عثمـان الجنايـني» نهـارًا لعلـه يُصيـب خـيرًا أو عمـلًا قـد وجـد في «حسـين أفنـدي» سـيدًا ودودًا وصديقًـا وفيًـا، خاصـة عندمـا منحـه حـذاءً مـن الجلـد الأسـود بـدون أي ثقـوب، ثُـم ضمـه بعـد ذلـك إلى شـلة الأصدقـاء المؤتمنـين وكأنَّـه قريـب لـه. وجـد «سـيد» في شـلة الأولاد وفـاء، ودعمًـا لمُجتمـع مريـض لـم يكـن يمنـح أبنـاء الفقـراء أي نظـرة احـترام. لـذا، فقـد كان مُسـتعدًا دائمًـا أن يتلقـى دروس «حسـين» والاسـتماع لأفـكاره وخططـه بمحبـة طاغيـة وقناعـة تامـة بصـدق وطنيتـه ووطنيـة صُحبتـه.

ابتسـم «حسـين» وهـو يتأمـل جسـد الـ«سـميث آنـد ويسـون» بإعجـاب مَـن يشـاهد فاتنـة عاريـة. كـم أنـت مُبهـر ورائـع! كـم أنـت صديـق للأبطـال والشـجعان؟ حدَّثـه «حسـين» كصاحـب، كفـرد مـن أفـراد شـلته، كمـصري غيـور يغـلي الـدم في عروقـه كُلمـا شـاهد صلـف الإنجليـز أو تابـع خنـوع المصريـين وسـكونهم. كان يتخيـل نفسـه مُمتشـقًا حزامًـا جلديًـا حـول خـصره ومُعلقًـا ذلـك المسـدس فيـه، ليُخرجـه بـين الحـين والحـين ويطلـق النـار عـلى عسـاكر الإنجليـز السـائرين بغـرور عـلى كورنيـش النيـل، فيسـقطهم واحـدًا تلـو الآخـر.

كان «محمـد إبراهيـم كامـل» عـلى قناعـة تامـة أنَّ أي مقاومـة أو مُشـاغبة للإنجليـز دون وجـود سـلاح هـي ضرب مـن السـذاجة، وأنَّ أي عمليـة بـلا آلـة قتـل مُجـرد لعـب أطفـال. إنَّـه يكـره لعـب الأطفـال ويعتـبر أنَّ المـوت في نظـره ضرورة لازمـة لاسـتمرار الحيـاة، ولا يُمكـن تحقيـق أي نـصر بـدون دمـاء.

قال «محمد» وقد أبصر ذلك المُسدس ينتقل من كف لأخرى:

ـ يجب أن نتدرب جميعًا على إطلاق النار.

ـ طبعًا وبسرعة.

صاح به «حسين».

أما «سعيد» و«مدحت» فكانا خائفين، لكنهما كتما رائحة الخوف في قلبيهما مثلما اعتادا قبل أن يستمعا لـ«حسين» مُعلنا ميلاد الجمعية الوطنية لطرد الاحتلال.

بحسم وصرامة قال لهم «حسين»:

ـ إننا سنتعاهد على الكتمان والتضحية من أجل الوطن وسنبدأ خلال أيام بقتل الإنجليز. سنُقسم جميعًا على الإخلاص والتفاني وتسخير كُل جُهد ومال وقدرات ومعارف لتحقيق هدف الجمعية الأسمى وهو طرد الإنجليز بالقوة.

ـ ونجيب؟

سأل «مدحت «، فأجابه «حسين»:

ـ لن يقبل بالانضمام إلينا. لكنَّه سيساعدنا رغمًا عنه.

في صحراء المُقطم وقفوا يضعون زجاجات النبيذ الفارغة التي جمعوها ليصوبوا المسدس تجاهها، بعد أن انضم لهم جول أسود. في البدء كان الرصاص يصفّر مُدويًا دون أن ينجح أحدهم في إصابة زجاجته لعدة مرات، وساعة بعد أخرى بدأت الأصابع اعتياد ملمس المُسدس. كان «حُسين» هو الأكثر تماسكًا، غير أنَّ ضعف بصره أشعره بالحُزن لعدم إتقانه إصابة أهدافه. قال لنفسه إنَّه سيئ الحظ لأنَّه صاحب فكرة الجمعية والعقل المدبر لها، لكن مرض الشبكية لديه يجعله أقل حظًا في الرماية. فكر وقرر سريعًا أنَّ عليه أن يُخاطر ويخوض تجربة إجراء الجراحة بشكل عاجل غير عابئ باحتمال فقدانه للبصر حال الفشل.

في اليـوم ذاتـه أسرَّ إلى والدتـه بضيقـه الشـديد لاسـتمرار آلام عينيـه راجيًـا إيَّاهـا ضرورة الإسراع بإجـراء الجراحـة مُسـتعينًا ــ كعادتـه ــ بحكايـات مُلفقـة حـول اشـمئزاز إحـدى الفتيـات مـن مشـهد عينيـه واعتقادهـا أنَّـه مُصـاب بالحـول. وكمـا توقـع فقـد تنصـت عليهـا بعـد ساعات قليلـة تُناشـد والـده سرعـة إجـراء الجراحـة لـه، وهـو مـا أسعده، عـلى الرغـم مـن معرفتـه بالاضطـرار للخضـوع لطبيـب إنجلـيزي كان يكـن لـه كُل الكراهيـة وعظيـم الاحتقـار.

في اليـوم المُحـدد وبمستشـفى بـاب اللـوق تمـدد عـلى الفـراش وحولـه وقـف أفـراد الجمعيـة يمنحونـه الثقـة والتشـجيع اللازمـين، بينمـا كان والـداه يدعـوان اللـه أن يمنحـه شـفاءً، وسـلامة، إذ كانـا مُقتنعـين أنَّ عصبيتـه ومشـاغباته الجمـة نتـاج طبيعـي لمـرض بـصره.

بـدا «حسـين» باسـمًا بثقـة وهـو يـودع وجـوه مُحبيـه قبـل أن يـسرح الخـدر بأوصالـه كجيـوش مـن النمـل النشـط الـذي انتـشر سريعًـا وبـلا مقاومـة في شرايينـه وعروقـه. أبـصر وجـه الطبيـب الإنجلـيزي مذعـورًا وهـو يركُـض بينمـا كان يسـير هـو بثبـات وثقـة وفي يمينـه السـميث آنـد ويسـون، وأمامـه عسـكري نحيـل تـنزف سـاقاه دمًـا أسـود. وعـلى جانـبي الطريـق رأى حشـدًا مـن الوجـوه، أفنديـة، فلاحـين، طلبـة، سـيدات بمـلاءات سـوداء، وفتيـات بريئـات يُشـجعونه بحمـاس ليُكمـل تصفيـة دمـاء فريسـته، بينمـا كان «سـعيد» و«مدحـت» عـلى يمينـه و«محمـد» و«سـيد» عـلى يسـاره يتابعـون بشـغف. كان «نجيـب» يُتابـع مـن بعيـد في انبهـار. سرح ببـصره إلى بعيـد فشـاهد طرابيـش وطنيـة تعتـلي رؤوسًـا عديـدة متباينـة الطـول والقـصر تركـض أمـام العسـكري الإنجلـيزي في فـزع مماثـل، بينمـا كانـت الشـمس تتوهـج نـاشرة نهارهـا ودفئهـا عـلى الجمـوع الحـاضرة. في طريقـه أبـصر صورتـه عـلى صفحـات الصحـف المرصوصـة عـلى الأرصفـة وتحتهـا بالبنـط الأحمـر كلمـة «بطـل مـصر». ومـن إحـدى الشُرفـات أطلـت «إحسـان» ــ فاتنـة المعـادي ــ بوجههـا

الجميل وجيدها الرخامي لتُبصر مروره، بينما كانت أصابعها تتماوج يمينًا ويسارًا تحية له، لكنه لم يلتفت وواصل إطلاق رصاصه ليتدفق خيط الدماء سريعا على الطريق ممتدًا من ساقيْ طريده. سمع صوت والدته تهتف به «حبيبي»، بينما كان كف والده الغليظة الدافئة تحتضن رأسه في حُنوٍ بالغٍ. كان يشتم رائحة تبغ والده عندما سمع صوتًا باردًا يُكرر:

ـ مبروك يا بك. العملية نجحت. النتائج أفضل مما توقعنا كثيرًا.

وغاب مرة أخرى عن الوعي لعلَّه يُدرك فريسته.

***

أبريل شهر التقلبات.عواصف تُرابية تصفع أوراق الشجر الخضراء فتُحيلها صفراء، سماء مُلبدة بغيوم صامتة دون مطر، وحرارة الطقس تزحف ببطء نحو سكان القاهرة، تلك الحرارة التي يكرهها «آدمز» مذ أهلَّ على مصر مُجندًا لتأدية واجبه الوطني نحو بلاده. في معسكر بعيد عن زحام الأفندية وأصحاب الطرابيش وضجيجهم يقضي نهاره مُلتزمًا بنوبة حراسة لمساكن إيواء حامية إنجليزية جديدة عسكرت في حي المعادي بعد اشتعال الحرب العالمية، بينما ينتظر بشوق وتعجل حلول المساء، ليُسلم مُهمته لزميل آخر ويزور عوامة «كاليوبي» الشهيرة على النيل راشفًا النبيذ الفرنسي المُعتق، ومُستمتعًا بوصلات رقص شرقي لمصريات وشاميات ملفوفات الأجساد. كان «آدمز» ذو الثلاثة والعشرين عامًا يسير كعادته وحيدًا غير مُلتفتٍ لتعليمات وتوجيهات مُتكررة للجنود الجدد بعدم زيارة البارات البعيدة فُرادى مُشعلًا سيجارة ماركة كريازي، ومُرددًا في شجن أغنية I,ll never smile again لفرانك سيناترا،عندما لاح أمامه مجموعة صبية قادمين بُخطى مُنتظمة، ووجوه عابسة يبدوعليها الاضطراب.

كانـوا خمسـة مصريـين يتوسـطهم جسـد فـارع ذو شـعر داكـن وتلتمـع عينـاه بـشرر غاضـب، بينمـا بـدا زُمـلاؤه كُحـراس تابعـين. تحسـس بكفـه مُسدسًـا ماركـة «كولـت» يرقـد في جـراب جلـدي مُعلّـق بحـزام حـول خـصره، وشـعر باطمئنـان مُسـتبعدًا نـزوع الصبيـة السـائرين لأي شر. قـال لنفسـه لـو كانـت لديـه الشـيكولاتة باللـبن الـتي تـوزع عليهـم لتقديمهـا للأطفـال في شـوارع الأحيـاء الفقـيرة لمنحهـم بعضهـا، مُتمتمـا بـأنَّ هـؤلاء المصريـين طيبـون رغـم كُل شيء ويُقـدّرون مَـن يمنحهـم السـكر والحلـوى.

ليسـوا شرًا يـا «آدمـز». قالهـا لنفسـه وهـو يقـترب مـن عصابـة الصبيـة ذوي النظـرات المُريبـة. توقَّـع أن يُحيـوه كغيرهـم بالعبـارة الشـهيرة «هاى جـوني» لكنهـم واصلـوا رميـه بنظـرات لاهبـة. لاحـظ أنَّ كبيرهـم يُدقـق النظـر إليـه مُتفرسًـا وشـعر لأول وهلـة بقسـوة مُرعبـة تطُـل مـن عينيـه. تذكـر أن موعـد الوصلـة الأولى لراقصـات كاليـوبي اقـترب وأنَّ عليـه مـد الخطـى ليلحـق الحفـل الليـلي مـن بداياتـه، خاصـة في ظـل تلـك الأجـواء المُزعجـة بعـد احتـلال ألمانيـا للدنمـارك ثُـم هولنـدا والنرويـج في الشـهر ذاتـه. اسـتعرت أنفـاس الكراهيـة واشـتم رائحـة الغـدر قبـل خطـوات قليلـة مـن محـاذاة الصبيـة الخمسـة لـه، وشـعر أنَّ عليـه اتخـاذ إجـراءات الحـذر المفترضـة، فأبطـأ الخطـو قليـلًا قبـل أن يقبـض بيمينـه عـلى مُسدسـه ليُخرجـه مـن جرابـه، ووقـف مُتجمـدًا في مكانـه عندمـا شـاهد هُـراوة غليظـة تطيـش برأسـه في حركـة مفاجئـة أعقبهـا صـوت صفـير مُتكـرر. آه. زفـرة ألـم فـرَّت مقهـورة مـن بـين ضلوعـه. سـارع الصبيـة الخمسـة بالركـض نحـوه مُمطرينـه بضربـات غاضبـة مـن أحزمـة وهـراوات وقبضـات عـلى رقبتـه ورأسـه وظهـره، وفقـد اتزانـه، وسـقط عـلى الأرض طلبًـا للراحـة، علَّ هـؤلاء المجانـين يتوقفـون عـن ضربـه ويجـرون بعيدًا، لكنهـم واصلـوا ركلاتهـم في بطنـه وصـدره بقسـوة وغـلّ. سـمع صـوت أطولهـم يقـول «لـم يمُـت بعـد» ثُـم لاحـظ سـائلًا سـاخنًا يتدفـق مـن بطنـه قبـل أن يسـتيقن أن رصاصـة قاتلـة عرفـت طريقهـا إلى أحشـائه.

ما تفعلون؟ سأل «آدمز» دون أن يسمع ردًا، لكنَّه شاهد ابتسامة نصر تتراقص فوق وجه الشاب الطويل ذي النظرات اللاهبة، وشعر بيدين غليظتين تعبثان في ملابسه، ورأى مُسدسه يتقلَّب بين أكف المهاجمين، ثُم صفارته، وحقيبته الصغيرة، وزجاجة نبيذه، ومحفظته، وقبعته، وحزامه، ثُم صورة فتاته في لندن والتي ودعته قبل تسعة أشهر مُسافرًا لأداء الخدمة الوطنية في إحدى مستعمرات بلاده. ابتسم مُتألمًا ليشهد نظرة الثأر تطلُّ من عيني سالبه. ما اسمك أيها الفتى الجريء؟ سأله دون صوت، فسمع الكلمات باردة، تتمايل كأغنيته التي كان يشدو بها.

ــ حسين.

ثُم اقتربت أنفاس لاهبة من وجهه لتضيف:

ــ وهؤلاء أصدقائي محمد، وسيد، وجول، ومدحت. وداعًا جوني.

لست «جوني». أنا «آدمز». ودّ الجندي المحتضر أن يقولها لكن صوته لم يُغادر شفتيه، وغاب دون أن يُبصر الفتية يغادرون في خفة، مُحتفلين بنصر شعب مُضطهد، ومحُتل على أكبر قوة عسكرية في أوروبا، تلك التي زعموا أنَّ الشمس لا تغرب عنها أبدًا.

ساروا معًا فرحين بالمسدس، والمحفظة بما فيها من نقود، وبنجاح أول عملية قتل لمحتل كريه. في وكرهم بحديقة المنزل اجتمعوا فخورين بما أنجزوا، قبل أن يقصوا على «نجيب» و«سعيد» ما فعلوه. وزَّع محمد سجائر جاناكليس عليهم احتفالًا بنجاح المُهمة، بينما أقسم «سعيد» على شقيقه أن يصحبه في العملية القادمة ليتعلم أصول العمل الفدائي.

رشف «حسين» لأول مرة رشفة من زجاجة نبيذ القتيل مُستغربًا لسعة المشروب في الفم قبل أن يقول لصحبته:

ــ أرأيتم وجه الخنزير وهو يترجرج بالخوف راجيًا الرحمة؟ أرأيتم فزعه؟ ليسوا أشداء كما يظن الناس، هُم أجبن وأضعف مما حسبت.

ـ من قتله؟

سأل «نجيب» فابتسم «حسين» مُشيرًا بأصابعه نحو «سيد» قائلًا:

ـ البطل. البطل هو مَن أطلق الرصاص.

زارت الغبطة وجه «سيد» الذي تمتم:

ـ لولا ضرباتك ما سقط. رصاصة واحدة أصابته ورصاصتان طاشتا.

رفع «محمد» رأسه مُفتخرًا وردد في رضا:

ـ الاتحاد قوة. كُلنا أبلينا حسنًا في العملية. وهانحن ربحنا مسدسًا ثانيًا.

ـ سنحتفل.

قالها «جول»، وكرر الجميع خلفه:

ـ نعم سنحتفل.

وقف «حسين» وهزَّ رأسه طربًا وهو يقول:

ـ كم هو مُمتع مشهد خروج الروح قهرًا من أناس ظنوا أنَّهم سادة وغيرهم عبيد!

ونظر إلى «نجيب» وقال:

ـ قُلت لي مرارًا أنَّ طعم القُبلات ألذ ما في الدنيا. كذبت. لقد ذقتها من قبل، وما جرى اليوم أعذب وأجمل من قبلات من شفتي كاثرين هيبورن أو حتى ليلى فوزي التي تقول إنَّها أجمل امرأة في مصر.

سكت «نجيب» عندما شاهد تأمينًا واستعذابًا من الحضور الذين بدوا كأنَّهم في جلسة ذكر صوفي، ومدّ يده إلى زجاجة النبيذ ليرشف منها طعمًا لم يعرفه من قبل.

***

شـعر بالثقـة البالغـة وهـي تلتقـط أصابعـه بـين أصابعهـا الرقيقـة، وهُمـا يسـيران إلى جـوار النهـر الخالـد. قـرون مـن الزمـان مـرَّت عـلى المـاء المتدفـق مـن الجنـوب الإفريقـى دون توقـف، صاحيًـا ومتمـردًا وعابـرًا لإحباطـات الخـوف والسـلبية والسـكون. قـال لنفسـه إنَّ هـؤلاء النـاس ليسـوا خاضعـين خانعـين كمـا يحلـو لكتبـة السُـلطة أن يصوروهـم، فكـم ينتفضـون ويرفضـون الواقـع كُلمـا سـنحت لهـم الفرصـة. كانـت كفـه لا تشـعر بـدفء اليـد الناعمـة البيضـاء الملتصقـة بـه لأنَّ عقلـه مُنشـغل بتصـورات واسـتعدادات للعمـل الفـدائي المُقبـل الـذي صـار يحلُـم بـه كل ليلـة.

وافـق «حسـين» عـلى إلحـاح ابـن خالتـه «نجيـب» للاسـتجابة لدعـوات «إحسـان» بلقـاء صديقتهـا «ميمـي» الـتي طالمـا أبـدت إعجابًـا بحسـين ذي الطـول الفـارع والعينـين الحادتـين. قالـت «إحسـان» لـ«نجيـب» إنهـا تسـتغرب كيـف تُقبـل «ميمـي» مُدللـة المعـادي عـلى مُصاحبـة هـذا الشـاب الخشـن ذي النظـرات المُريبـة. لـو كان عليهـا مـا منحتـه نظـرة رضـا واحـدة، لكـن تبـدو أذواق النسـاء متباينـة حـتى في فرسـان أحلامهـن.

اقتربـت بجسـدها النحيـل مـن «حسـين» المُرتبـك قليـلًا وهـي تخطـو ببـطء وصعوبـة خوفًـا مـن التعـثر بسـبب طـول كعـب حذائهـا. كانـت ترتـدي جونلـة خـضراء ومعطفًـا بنفـس اللـون لـه أربعـة جيـوب مسـتطيلة، وعـلى ظهرهـا انسـاب شـعر بُـني طويـل، بينمـا كان «حسـين» يرتـدي بذلتـه الكُحليـة الناعمـة بعـد أن خلـع عـن رأسـه ملـل الطربـوش مُفضـلًا تلميـع شـعره الناعـم بالفازلـين. سـألته في تدلـل عمـا يشـغل بالـه، فقـال بهـدوء كهـل في الأربعـين:

ــ حال البلد.

ــ أوه. لا يعجبك؟

أجاب سائلًا:

ــ هـل تعرفـين أنَّ خـيرات مـصر تُنهـب كل يـوم مـن قبـل هـؤلاء

الخنازيـر؟

وأشـار بإصبعـه ناحيـة ثلاثـة عسـاكر أجانـب يسـيرون عـلى الرصيـف المقابـل.

قالت «ميمي»:

ــ ومـا هـو الجديـد؟ لقـد ولدنـا ووجدنـا هـؤلاء العسـاكر يسـيرون في شـوارعنا ويعملـون إلى جـوار آبائنـا، ويقدِّمـون لنـا الشـيكولاتة. ألا تذكـر؟

غلى الدم في وجه حسين وانتفخت عروقه وقال غاضبًا:

ــ شـيكولاتة. لا. أتذكـر مَـن قتلـوا ومَـن جلـدوا. أعـرف أنَّهـم ينهبوننـا ويحتلـون بلادنـا ويسـتغلوننا عقـودًا بفضـل الخونـة والـكلاب.

ــ حبيبي.

نطقت «ميمي» مُهوّنة، فهدأ قليلًا وقال لها:

ــ هـل تتصوريـن أنَّـه مـن الكرامـة والرجولـة أن نـترك هـؤلاء يسـتكملون مـا فعلـوه بأجدادنـا وآبائنـا؟

نظرت إليه بعينين فاض منهما التيه وقالت:

ــ بالطبع لا. لكن ماذا نفعل؟

بـرق السـؤال في دماغـه وشـعر بثقـة المُخلّـص وهـي تلتصـق أكـثر بجسـده، وقـال لهـا:

ــ نُقاتلهم.

ــ قتل؟

نطقت الحروف في خوف، فواصل في برود:

ــ نعـم.. قتـل. لقـد فعلتهـا يـا ميمـي. وسـأقاتلهم حـتى يتمنـوا الهـرب مـن بلادنـا.

حـكى لهـا في عُجالـة مـا فعلـه وأصحابـه بسـيارات المعسـكر الإنجلـيزي، ثُـم كيـف قادهـم لقتـل العسـكري الإنجلـيزي قبـل أيـام. شـعرت أنَّهـا

أمـام فـتى مختلـف، وقفـت قلقـة، وحدقـت فيـه مُنبهـرة ورمـت بعينيهـا لفتـة خاطفـة نحـو الطريـق الخـالي مـن المـارة، ثُـم اقتربـت بشـفتيها الدافئـة منـه لتطبـع قبلـة ساخنة عـلى شـفتيه. ارتعـدت فرائصـه وشـعر بتدفـق الـدم في عروقـه ورقـص قلبـه فرحًـا عندمـا قالـت في حنـوٍ:

ــ أنا معك. اقبلني خادمة للوطن.

سـارا معًـا، مُحتفلـين بانضمـام عضـو جديـد لجماعـة المقاومـة الوطنيـة، قبـل أن تقـوده في شـبقٍ ظاهـرٍ نحـو بيـت جدتهـا الخـالي مـن السُـكان في حـي المنيـل لينهـل للمـرة الأولى مـن خمـر الأنُوثـة. عناقهـا دليـل عـلى خـبرة فتـاة مُجرّبـة وعابثـة وقـادرة رغـم ذلـك عـلى الحفـاظ عـلى بكارتهـا. أذابتـه في خلاياهـا، وعلّمتـه قضـم التفاحـة، ونـسى زمـلاءً ينتظرونـه فنـام حـتى العشـاء.

عندمـا عـاد قـرأ الضجـر عـلى أفـراد الشـلّة المجتمعـين بغرفـة عـم «عثمـان الجنايـني»، والذيـن تلقـوا نبـأ خـروج «حسـين» و«ميمـي» معًـا مـن «نجيـب» بتشـكك ودهشـة. وجـد أفـراد المجموعـة يتحلقـون حـول «محمـد إبراهيـم كامـل» الـذي أحـضر خريطـة لحـي المعـادي ليـشرح عليهـا خطـة العمليـة القادمـة.

كيف تخطاني؟ سأل نفسه، قبل أن يجيبه «محمد» بنبرة لوم:

ــ لـن أعيـد الخطـة مـن البدايـة. مَـن لا يلـتزم بالمواعيـد الـتي نتفـق عليهـا لا يسـتحق نيـل شرف العمـل الفـدائي. اسـمع يـا حسـين سـتكون خـارج العمليـة.

انتفض وغضب وزعق:

ــ أنا. كيف تجرؤ؟ ماذا جرى؟ هل تنقلب عليَّ؟

ثُم نظر إلى باقي الحضور وكرر:

ــ هـل تقبلـون ذلـك؟ لقـد كنـت في مهمـة مـن أجـل التنظيـم، ونجحـت في ضـم عنـصر جديـد لجماعتنـا.

استغربوا، فواصل:

ــ لأول مـرة سـيكون معنـا عنـصر نسـائي. ميمـي انضمـت إلينـا. فاتنـة المعـادي يـا شـباب سـتعمل معنـا في الخفـاء. سنسـتغلها في خطـط الخـداع، لـن تشـارك في مناقشـاتنا، لكنهـا سـتلتزم بمـا يُعهـد إليهـا مـن مهـام.

بُهـت الحـاضرون، بينمـا رسـمت الدهشـة تعرجاتهـا عـلى وجـه «نجيـب» الـذي بـدا غـير مُصـدق.

سأل «نجيب»:

ــ هل وافقت على المر...؟

ولم يُكمل فقد أجاب «حسين» بصرامة:

ــ نعم.

وتذكـر ثديـين رائعـين تقلبـت شـفتاه بينهمـا، ودار بخلـده ذلـك الشـعور الطاغـي بالانتصـار وهـو يقتحمهـا اقتحامًـا، وأخـرج عُلبـة سـجائره ليناول «محمـد» واحـدة قائـلا:

ــ أكمل خطتك.

تردد «محمد» قبل أن يقول:

ــ آسف يا «حسين» ظننت أنَّك نسيتنا فكان لابد أن أذكرك.

ثم بنبرة حماسيةٍ:

ــ نحـن في مهمـة وطنيـة، والأمـور لا تقبـل العبـث، وعندمـا رأينـاك شـابكًا ذراعـك بـذراع «ميمـي» غضبنـا، خاصـة أن «نجيـب» كان يُراهـن أنَّـك لـن تـأتي موعـد لقائنـا.

ــ لا عليك. لكن لابد أن تثقوا في.

قالهـا «حسـين» بنـبرة المنتـصر المسـيطر قبـل أن يقـود الجمـع لخطـة إحـراق المعسـكر الإنجلـيزي راسـمًا تحـركات أفـراد المجموعـة عـلى

الخريطـة الممـدودة أمامهـم. واصـل تحديـد أدوار كل فـرد: «محمـد»، «جـول»، «سـيد»، «مدحـت»، و«سـعيد»، قبـل أن يطـرق «عـم عثمان» البـاب، ليفتحـه قليـلًا مُبـصرًا الكهـل الأسـمر مُضطربًـا وهـو يقـول لـه:

ـــ يـا حسـين بـك. البـك الكبـير يريـدك. أعتقـد أنَّ أحـدًا وشى بكـم. لقـد زاره قبـل قليـل ضابـط بملابـس رسـمية.

ـــ سأحضر.

بـبرود أغلـق البـاب وواصـل شرح خطتـه مُقـررًا أنَّ موعـد تنفيـذ العمليـة سيكون في الثالثـة صباحًـا. نظـر لـ«سـيد» وقال:

ـــ بحـيرة مـن البنزيـن سـتصبها حـول سـيارات النقـل الموجـودة خـارج المعسـكر، وسـيمد «محمـد» ثلاثـة حبـال مشـبعة بالكيروسـين مـن الشـارع المجـاور، وسيشـعل «جـول» النـار عنـد السـاعة صفـر، بينمـا سـأطلق أنـا النـار عـلى الجنـود الفاريـن مـن النـار وسـيقود بنـا «مدحـت» سـيارتنا ومعـه «سـعيد».

وافقـوا في اعـتزاز وكأنَّ منـاورة «محمـد» لـم تُغـيّر ثقـة أحدهـم في قيادة وزعامـة «حسـين» لهـم، وربمـا فـإنَّ «محمـد» نفسـه لـم يُبـد أي تشـكك في تلـك القيـادة.

غادرهـم «حسـين» سريعًـا ليمتـص غضـب والـده الـذي اعتـاد عـلى ضغوطـه ووصفـه الدائـم لـه بالفشـل. رمقـه بنظـرة مُجابهـة شـاعرًا بـأنَّ ذلـك الرجـل المُهـاب ذا الملامـح القاسـية يشـعر بالضعـف تجاهـه. وقـف أمـام مكتبـه دون أن ينبـس حـتى لاحـظ والـده وجـوده فأشـار لـه ليجلـس. سـأله «توفيـق بـك» عـن أحوالـه، فأجـاب بـبروده المعتـاد، ثُـم سـأله عـن دراسـته، فـردّ بأنَّـه بـدأ اسـتيعاب كثـير مـن الـدروس الـتي كان يسـتصعب اسـتيعابها، وسـأله عـن أصدقائـه وحالهـم فأجـاب إجابـات هادئـة قبـل أن يُفاجئـه والـده سـائلًا:

ـــ وكيف قتلتم العسكري آدمز ميكنزي؟

صعقتــه الكلمــات. لقــد عرفــوا، وحــددوا اســم القتيــل، وتشــككوا، وبعثــوا بأحــد رجالهــم لجــس نبــض البــك الكبــير. لــو كان لديهــم دليــل لمــا انتظــروا عليــه. نظــر إلى دخــان ســيجار والــده المُتصاعــد في خــط مُســتقيم نحــو ســقف غرفــة المكتــب، وسرحــت عينــاه بصفــوف الكُتــب الناعســة فــوق رفــوف مكتبــة كبــيرة عــلى يمــين المكتــب، وتذكــر وجــه العســكري الإنجليــزي وهــو ينتفــض هلعًــا وهُــم يُرســلون بــه إلى الجحيم، ثُــم لاحــت في عينيــه ذكــرى شــفتي «ميمــي» وهــي تــئن تحتــه قبل ســاعات. رســم «حســين» ابتســامة باهتــة عــلى وجهــه قبــل أن يقــول لوالــده في بــرود:

ـــ لــم يســتغرق الأمــر ســوى دقيقتــين، ضربتــه بعصــا الحديقــة فــوق رأســه بينمــا صفعــه أصحــابي عــلى قفــاه وركلــوه في بطنــه، ولكمــوه في وجهــه، وخنقــوه انتقامًــا للشــهيد عبدالحكــم الجراحــي.

ـ مَن؟ عبدالحكم الجراحي. لقد مات منذ سنوات.

علَّــق «توفيــق بــك» وعينــاه تســتعران غضبًــا وغيظًــا مــن بــرود ابنــه. تذكَّــر شــيئًا مــا ثُــم قــال لـ«حســين»:

ـ لقد قتلتموه بالرصاص. أين المُسدس؟

ابتسم صامتا للحظات قبل أن يُجيب:

ـــ في أعمــاق النيــل. أعــرف أنهــم بعثــوا لــك مُحققًــا ليســتدرجك. لكــن لا تقلــق. لا يوجــد دليــل واحــد.

وقــام مســتئذنًا بينمــا كان قلــب والــده يغــلي مــن القلــق. لا عليــه، لكــن منــه.

***

«محمـود يحـي مـراد». عضـو جديـد، ضمـه «حسـين» إلى الجماعـة بعـد أن قـرأ في عينيـه حزنـًا طاغيًـا.

الحياة مملة وسخيفة ولا فائـدة لها لأننـا نمـوت في النهايـة. هكـذا قـال «محمـود» لـ«حسـين» ابـن خالـه عندمـا ذهـب الأخـير يُعزيـه في وفـاة والـده.

ــ نحـنُ لا شيء. لا شيء يـا أخـي، مُجـرد لحـم يتدحـرج فـوق الأرض، رُبمـا يكـبر أو يصغـر، لكنَّـه يـزول، يفـنى. يتـلاشى.

كان «محمـود» يتذكـر مأسـاة والـده الـذي شـارك قبـل ثلاثـة عقـود في القصـاص مـن «بطـرس باشـا غـالي» وقُبـض عليـه فيمـن قبـض عليهـم، وحوكـم لكنَّـه حصـل عـلى الـبراءة لعـدم كفايـة الأدلـة مثلمـا جـرى مـع «توفيـق بـك». فيمـا بعـد لـم يتمكـن مـن الحصـول عـلى وظيفـة مناسـبة وتشـعبت بـه الحيـاة ليعمـل مُثمنـًا للتحـف والأثـاث، وهـي مهنـة كان يعيبهـا تذبـذب الدخـل، وعـدم الاسـتقرار.

كان «محمـود» يتخيـل أنَّ رجـال القلـم السـياسي سـيطرقون بابهـم في إحـدى الليـالي ليأخـذوا معهـم والـده الصامـت كثـيرًا، والخائـف دومًـا، ليمنعوهـم مـن قليـل العيـش الـذي يوفـره لهـم. لا معـاش لـه ولا عـلاج ولا حقـوق لأبنائـه مـن بعـده، هـذا مـا عرفـه «محمـود» بعـد وفـاة والـده المفاجئـة في شـتاء العـام الثـاني مـن العقـد الخامـس بالقـرن العشريـن.

عـلى الفيلسـوف «نيتشـة» شـبّ الفـتى الهـادئ ذو الملامـح الخشـنة والشـارب الكـث ليتعلـق بأفـكار التمـرد ومخالفـة الواقـع وكسـر المعقـول. آمـن معـه بـأنَّ الفنـون والآداب اخترعهـا الإنسـان للهـروب مـن الحقيقـة. وصـار يـردد كثـيرا مقولتـه «العـار العـار العـار، ذلك هـو تاريخ الإنسـان». كان يـرى أنَّ التاريـخ المـصري سلسـلة مـن الأكاذيـب الـتي لفقهـا مؤرخـو العـرش ليصمـوا تافهـين وخونـة بصفـات العـزة والكبريـاء. وعـلى مسـامع «حسـين» وصحبتـه ردد «محمـود» عبـارة «نيتشـة» الموجعـة «يبيعنـا بعـض المؤرخـين وكاتـبي السـير الذاتيـة أكاذيـب مشروعـة وقصصـا

ملفقـة، ويحلـو لنـا أن نصدقهـا». وأمامهـم هتـف للمـرة الأولى لاعنًـا حـزب الأغلبيـة وزعيمـه الرجـل المُبتسـم زائـغ النظـرات الـذي يعتبرونـه وليًـا مـن الأوليـاء.

في جلسـةٍ خاصـةٍ في حديقـة منـزل توفيـق بـك قـال لأفـراد الشـلّة الـتي انضـم إليهـا حديثًـا:

ــ إنَّ أخطـر مـا يجابـه مـصر الآن هـو ذلـك الاعتقـاد بـأنَّ هنـاك وطنيين مـن الباشـاوات والزعمـاء. إنَّ هـؤلاء الذيـن وضعـوا أكفهـم في كف السـفير «مايلـز لامبسـون» جلبـوا لنـا العـار إلى الأبـد، ولا حـق لهـم في قيـادة الأمة.

ــ مَن تقصد؟

سأله «محمد إبراهيم» فأجاب:

ــ «النحـاس باشـا». هـذا المُهـرج الـذي يسـحر النـاس ويخدرهـم فيصدقونـه ويقدسـون كل قـول وفعـل لـه.

لمعت عينا «حسين» ونطق:

ــ معـك حـق. النحـاس نبيهـم. قديسـهم المزعـوم. إنَّـه يقودنـا كنعـاج نحـو التسـليم. لقـد سـمعت والـدي يحـكي عنـه عندمـا كان رئيسـا كيـف وضـع جميـع أمـوال مـصر وإمكاناتهـا وقدراتهـا تحـت تـصرف الإنجلـيز فـور توقيعـه اتفاقيـة الصداقـة.

ــ لكـنَّ النـاس تريـده وتـرى فيـه خـلاص مـصر مـن اسـتبداد القـصر ومراوغـة الإنجلـيز.

قالها «نجيب»، لكن نظرات استنكار وأدتها مبكرًا فلزم الصمت.

أشـعل «محمـد» سـيجارة جاناكليـس وفوجـئ بـ«حسـين» يختطفهـا منـه ليُدخنهـا فقـال لـه:

ــ خُذ واحدة ولا تختطف سيجارتي.

ابتسم «حسين» وهو يقول:

ـ لقد صارت نادرة في زمن الحرب. أبحث عنها فلا أجدها.

دخـل «جـول» وفي يـده لفّـة سرعـان مـا فتحهـا لتبـدو زجاجـة ويسـكي متوسـطة، ثُـم أخـرج علبـة سـجاير ماركـة ماسـبيرو رويـال وقـال لهـم:

ـ معي مزاج الليلة. سنشرب نخب انتصارات الألمان.

لاحـت مظاهـر الدهشـة عـلى وجـوه المجتمعـين السـبعة ثُـم سـأل «حسـين»:

ـ هل هناك أخبار؟

ابتسم «جول» وقال:

ـ نعـم. الجيـش البريطـاني تقهقـر في الصحـراء الغربيـة بعـد هزائـم متلاحقـة، وطلبـة الجامعـة يهتفـون ضـد بريطانيـا والأحـوال معقـدة جـدًا.

ـ كيف عرفت؟ إنَّ الرقابة تمنع نشر أخبار الحرب في الصحف.

سأل «حسين» وهو يفتح الزجاجة، فقال «جول»:

ـ خـالي قـال لي إنَّ الأوضـاع سـتنقلب قريبًـا. أنتـم تعرفـون أنَّـه كان يعمـل في السـفارة الألمانيـة. إنَّـه يقـول إنَّ هنـاك تعاونـا بـين فدائيـين مصريـين وضبـاط ألمـان وطليـان، والملـك نفسـه يحـاول الاتصـال بهـم. وهنـاك أنبـاء حـول قيـام «حسـين باشـا رشـدي» رئيـس الـوزراء بتقديـم اسـتقالته.

ـ هاا. الخوف أن يأتوا بالنحاس باشا.

قالها «محمود مراد»، فشاركه «محمد» قائلًا:

ـ سيفعلونها. لـو توافـق الملـك والوفد فسـتخسر مـصر فرصـة حقيقية للتحـرر مـن ديكتاتوريـة الزعامـة وعبودية الاسـتعمار.

ـ ومن قال لكم إنَّ الألمان أو الطليان سيمنحوننا الحرية؟

فاجأهم «نجيب» ساخرًا.

برقت عينا «حسين» وهو يقول:

ــ لـم تحتلنـا ألمانيـا الآن لنفكـر في التحـرر منهـا أو محاربتهـا. نحـن نواجـه الإنجلـيز، وعلينـا أن نتوحـد مـع كل أعدائهـم. والألمـان عـدو لهـم، لـذا يجـب أن نسـاندهم، لكـن كل الخـوف مـن الخونـة. الوفـد والنحـاس أخطـر عـلى الأمـة مـن كلاب القـصر وخـدم الملـك.

نفـث «محمـد» دخـان سـيجارته باحثـا عـن بعـض الـدفء في الشـتاء القـارس قبـل أن يقـول:

ــ في يـوم مـا سـيكون علينـا التخلـص مـن كُل هـذه الوجـوه المتحفيـة المسـترخية. الذيـن يؤمنـون بالدسـتور والقانـون ويتخيلـون أنَّ الاسـتقلال سـيتحقق بالـكلام والتفـاوض. سـيكون مـن المهم محـو هـؤلاء وإزاحتهم تمامـا مـن الوجـود حـتى لـو كان النـاس يُحبونهـم ويقدّرونهـم.

علّق «محمود» مُستشهدا بإحدى عبارات نيتشة:

ــ من بين كُل ما كُتب، لا أحب سوى ما كتبه الإنسان بدمه.

صـبّ «حسـين» زجاجـة الويسـكي ليمـلأ كئوسًـا صغـيرة أخرجهـا مـن دولاب الغرفـة، ثُـم وضـع كأسًـا أمـام كل فـرد مـن الأفـراد السـتة ثُـم قـال ضاحـكا:

ــ عاش نيتشة.

ردَّد الجميع وهم يرفعون كئوسهم إلى السماء:

ــ عاش نيتشة. عاش. عاش.

***

رسـم القلـق أخاديـده في الوجـه الشـاب ذي القسـمات الملكيـة، وبـدا مُضطربًـا وهـو يُمسـك بالورقـة الممـدودة مـن كـف مُحدثـه مُغمضًـا عينًـا وفاتحًـا أخـرى مخافـة أن يقـرأ مـا يصدمـه. كان الفـتى الـذي لـم يمـر عـلى

تسلمه حُكم أرض النيل خمس سنوات مسكونًا بهواجس إقصاء ابن عمه «عباس حلمي» من سُدة الحُكم سنة 1914 ليتيه في بلاد الله ممنوعًا من دخول البلاد، ومُنكرا هُنا وهُناك. اعتبر المليك أنَّ ملامح السير «مايلز لامبسون» الصارمة ونظراته الاستعلائية التي طالعته فور دخوله القصر تصفع سلطانه وكرامته كأحد أبناء العائلة العلوية، وقال لنفسه إنَّه حتى ذلك العجوز الماكر ذي العينين العميقتين والذي يُشرف على جميع سياساته بدا مُنزعجًا من حديث «لامسبون» الجاف. إنَّ «أحمد باشا حسنين» داهية القصر والكشاف المُضيء لدهاليز السياسة المصرية المُعتمة يبدو لأول مرة مُهتزًا خائفًا من عواقب وخيمة. وجهه النحيل وجبهته التي هوت المغامرات سنين طوالًا، وعيناه المُدققتان والمُتشككتان في كُل شيء، الآن لا شيء. ما له سكن كشبح؟ قالها الملك «فاروق» لنفسه مُتذكرًا دس حسنين باشا لدى الشيخ «محمود المراغي» شيخ الأزهر لتحريض الطلبة على التظاهر تبشيرًا بانتصار قوات المحور، وخلص إلى أنَّه أخطأ بموافقته على خطة «حسنين» للتخلص من «حسين باشا سري».

قرأت عيناه المُذكرة المُقدمة من «مايلز لامبسون» ذلك الثعلب ميت القلب الذي يقترن بفاتنة تصغره بعقود، لتصدمه الكلمات غير مُصدق نبرة الوعيد والازدراء. مرّ مرورًا سريعا على المُذكرة التي شاركه قراءتها أحمد باشا حسنين، والذي حاول قبل دقائق منع دخول الجنرال ستون قائد القوات البريطانية مع السفير لكنَّه فشل تحت قصف نظراته المتوعدة.

«لقد كان واضحًا منذ زمن طويل أنَّ جلالتك قد تأثرت بمجموعة المستشارين المحيطين بك، الذين لم يكونوا مخلصين فقط بالنسبة للتحالف مع بريطانيا، بل أكثر من هذا أنهم يعملون ضد هذا التحالف، ومن ثم فإنَّهم يساعدون العدو. ولاشك أنَّ تعاون وتشجيع جلالتك لهم يناقض المادة الخامسة من معاهدة التحالف، التي

بمقتضاهـا تتعهـد كل الأحـزاب المتعاهـدة بـألا يتخـذوا موقفًـا معاديًـا بالنسـبة للبـلاد الأجنبيـة، ويكـون متعارضًـا مـع الحلـف.

بالإضافـة إلى ذلـك فـإنَّ جلالتـك أحدثـت أزمـة خطـيرة بطريقـة طائشـة وغـير ضروريـة كـرد فعـل للقـرار الـذي اتخذتـه الحكومـة المصريـة السـابقة اسـتجابة للطلـب الـذي تقدمـت بـه إنجلـترا والـذي نصَّـت عليـه المـادة الخامسـة مـن المعاهـدة.

وفى النهايـة فـإنَّ كل المحـاولات الـتي جـرت لتشـكيل حكومـة ائتلافيـة قـد بـاءت بالفشـل، إذ رفضتـم أن تعهـدوا بأمـر تشـكيل الحكومـة إلى زعيـم حـزب الأغلبيـة في البـلاد عـلى الرغـم مـن أنَّـه يتمتـع بمكانـة خاصـة تجعلـه قـادرًا عـلى ضمـان اسـتمرار تطبيـق المعاهـدة بـروح الصداقـة كمـا يجـب.

ومثـل هـذا التهـور والطيـش، وعـدم تقديـر المسـئولية يعـرض أمـن وأمـان مـصر للخطـر وكذلـك القـوات الحليفـة الموجـودة بالعاصمـة، ويؤكـد الجميـع أنَّ جلالتـك لـم تعـد جديـرًا باسـتمرارك عـلى العـرش».

بلـع صاحـب الوجـه المُضيء المُربـع ريقـه ومعـه كلمـات التوبيـخ والسـخرية، مُتخيـلًا مجموعـة مـن الأفنديـة المصريـين يتوسـطهم خصمـه اللـدود «مصطفـى باشـا النحـاس» يدوسـون فـوق رأسـه. لاحـظ بطـرف عـين تنكمـش أسـفل حاجـب رفيـع نظـرات وجـل مُنبعثـة مـن عيـني رئيـس ديوانـه ومسـددة نحـو القائـد البريطـاني وأخـرى نحـو النافـذة ليشـهد دبابـات بريطانيـا وجنودهـا حـول القـصر. أي كرامـة لملـك مجبـور وخائـف في وطـن يعشـق أهلـه السـخرية ويدمنـون التنكيـت حـتى عـلى أنفسـهم! قالهـا لنفسـه ذابحًـا بقايـا كبريـاء اشـتمها داخلـه.

تذكـر السـاعات الفائتـة بعـد أن جمـع باشـاوات مـصر وكبراءهـا لمناقشـة إنـذار السـفير البريطـاني شـديد اللهجـة الـذي قـال «مـا لـم أسـمع قبـل السـاعة السادسـة مسـاء اليـوم بأنَّـه تـم تكليـف «النحـاس» بتشـكيل الحكومـة، فـإن جلالـة الملـك عليـه أن يتحمـل العواقـب». كان

«النحـاس» باشـا بوجهـه الصـوفي وعينيـه الزائغتـين وحيـدا وسـط تأويلات خصومـه الذيـن رمـوه بنظـرات اتهـام ردهـا بقسـوة وقـوة، مؤكـدًا أنـه لا يعـرف شـيئًا عـن الإنـذار البريطـاني وأنَّـه يرفضـه تمامًـا، وحـاول «أحمـد باشـا ماهـر» ترجيـح فكـرة تشـكيل وزارة قوميـة يترأسـها «النحـاس»، لكـن بـدا السياسي المخضرم واعيًا تمامًا أنَّـه يقـف عـلى أرض صلبـة، فـأصرَّ أنَّـه لـن يؤلـف إلا وزارة وفديـة، وتاهـت المناقشـات ولـم يتـم التوصـل لحـل، سـوى اتفـاق باشـاوات مـصر عـلى رفـض الإنـذار البريطـاني والاحتجـاج عليـه.

قال الملك «فاروق» بعصبية زائدة:

ـ وماذا بعد؟

مـدّ السـير «مايلـز لامبسـون» بابتسـامة باهتـة ورقـة أخـرى كان واضحًـا أنَّهـا الحُكـم النهـائي عـلى الملـك الـذي حـاول التـصرف كمـا علمـه مُعلمـه ومستشـاره «أحمـد باشـا حسـنين» باعتبـاره حاكمـا واسـع السـلطات. قـرأ الملـك بعينـين ذبيحتـين وثيقـة التنـازل عـن العـرش. كانـت كل كلمـة بمثابـة سـكين بـارد يقطـع لحمـه ويـزدرد دمـاءه قطـرة قطـرة.

«نحـن فـاروق ملـك مـصر، تقديـرًا منـا دومًـا لمصالـح دولتنـا، فـإني بموجـب هـذا أتخـلى وأتنـازل بالنيابـة عـن أنفسـنا وورثـتي عـن عـرش مملكـة مـصر، وعـن جميـع حقـوق السـيادة والامتيـازات والصلاحيـات في المملكـة المذكـورة وبشـأن رعاياهـا، وأننـا نعفـي رعايانـا مـن ولائهـم لشـخصنا». صـدر في عابديـن في الرابـع مـن فبرايـر 1942.

أمسـك القلـم ولامـس بسـنه المُدبـب وثيقـة التنـازل، وسـأل اللـه بقـدر إحسـانه وعطفـه عـلى عجائـز الطهـاة والخـدم بقـصر عابديـن أن يُخلصـه مـن لامبسـون وسـتون فتنشـق بهمـا الأرض كقـارون، وتذكـر النحـاس باشـا فضمـه للأمنيـة، ثُـم تذكـر أمـين باشـا عثمـان ذلـك الجـسر الممتـد بـين الوفـد والإنجليـز فأضافـه هـو الآخـر. ثُـم اسـتجمع كل تصوراتـه عـن الشـجاعة وقـرر التوقيـع، لكنَّـه سـمع كلمـات هامسـة مـن رئيـس الديـوان

خمّـن أنّهـا كلمـتي «فرصـة أخـرى»، فتمالـك نفسـه وقتـل نبـض قلبـه المُتسـارع، وقـال للسـفير بإنجليزيـة مُتقنـة:

ـ هل يمكن أن تمنحني يا سيادة السفير فرصة أخرى؟

هـزَّ السـفير رأسـه باندهـاش، وتبـادل مـع القائـد العسـكري «سـتون» نظـرات ذات مغـزى ثُـم سـأل في بـرود:

ـ ماذا تنتوي أن تفعل؟

منع الملك دمعتين ساخنتين كادتا تدفقان من محجريه وقال:

ـ سأكلف النحاس باشا فورًا بتشكيل الوزارة.

ـ دون تدخل.

قالها السفير، فردد الملك:

ـ دون تدخل.

خـرج السـفير «مايلـز» مبتسـما وإلى جـواره الجـنرال «سـتون»، وخلفهمـا جـرى «أحمـد باشـا حسـنين» وهـو يُكـرر رجـاءه بـضرورة سـحب الدبابـات المحـاصرة بسرعـة حفاظـًا عـلى مـاء وجـه الملـك.

دقائـق قليلـة مسـح خلالهـا الملـك الشـاب دموعـه، ثُـم أشـعل سـيجارًا، قبـل أن يسـتقبل زعمـاء مـصر مـرة أخـرى. وقفـوا متوجسـين بينمـا بـدا النحـاس بينهـم ثابتـًا رابـط الجـأش كأسـد جسـور. حملـق الملـك في وجوه الزعمـاء بحضـور رئيـس الديـوان ثُـم قـال لهـم:

ـ اعتبروا ما دار بيننا كأن لم يكن.

سرت همهمـات بـين الحاضريـن، لكـن الملـك ركَّـز نظـره عـلى «النحـاس باشـا» بعينـين فاضتـا غيظـًا وقـال:

ـ وأنا أكلفك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ثـار الغضـب في وجـه أحمـد باشـا ماهـر، بينمـا مصمـص «إسـماعيل باشـا صـدقي» شـفتيه، وخبـط «عبدالفتـاح باشـا يحـيى» كفـًا بأخـرى، وران

الامتعـاض عـلى وجـه «محمـد باشـا هيـكل»، ونظـر «أحمـد باشـا زيـور» بضيـق إلى «النحـاس»، الـذي وقـف فجـأة، وقـال بثبـات موجهًـا حديثـه للملـك:

ــ وأنا أرفض يا جلالة الملك.

ــ ترفض يا باشا؟

قالها الملك غاضبًا فرد النحاس:

ــ أعتذر عن قبول التكليف.

حطّـت غربـان الخـوف بـين عيـني الملـك مـرة أخـرى وتذكّـر وثيقـة التنـازل ورأى ابـن عمـه الخديـو عبـاس متنقـلًا بـين العواصـم بـلا وطـن، فصـاح:

ــ لا يا دولة الباشا إنني أصر على تكليفك بالوزارة.

وقف أحمد ماهر وقال بصوت جهوري:

ــ كنـت أظـن أنَّ النحـاس باشـا وهـو كمـا يقـول عـن نفسـه زعيـم البلاد وصاحـب معاهـدة الـشرف والاسـتقلال يرفـض تشـكيل الـوزارة، أمـا وقـد قبلهـا فـإني أعلـن في حـضرة مليـك البـلاد أنَّ النحـاس باشـا يتـولى الحكـم الليلـة مسـتندًا إلى أسـنَّة رمـاح الإنجليـز.

لم يأبه «النحاس باشا» لوجود الملك وردَّ بصوت أعلى:

ــ لست أنا الذي يستند إلى أسنَّة رماح الإنجليز.

كان يـود أن يقـول لـ«أحمـد ماهـر» أنَّـه سـبق أن أنقـذ رقبتـه مـن حبـل المشـنقة الـذي فتلـه الإنجليـز بعـد ثـورة 1919 للمسـئولين عـن الجهـاز الـسري عندمـا ترافـع دفاعًـا عنـه وعـن صديقـه محمـود فهمـي النقـراشي، لكـن صخـب الاجتمـاع منعـه. فعـاد يقـول:

ــ أنتم الذين وصلتم بحال البلد إلى ما جرى.

ورمـى نظراتـه نحـو «أحمـد ماهـر» و«إسـماعيل صـدقي» و«أحمـد حسـنين»، لكـن الملـك قاطعـه غاضبًـا:

ـ أنا آمرك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ـ آسف جلالتك لا يمكن.

ـ هذا أمر ملكي.

وخرج الملك يجر خوفه وقلة حيلته وانفض الباشاوات واحدًا تلو الآخر، ومضى «أحمد باشا ماهر» ليُشهّر بـ«النحاس باشا» ويتهمه بالتواطؤ والاتفاق مع الإنجليز للعودة لحكم مصر، وحكى ما دار، وما تصور، وما ظنَّ لكثيرين من أصدقائه. وكان «توفيق بك أحمد» واحدًا من هؤلاء، لذا لم يكن غريبًا أن يسمعه عارفوه يقول إنَّ «النحاس باشا» عاد إلى الحكم بدبابات الإنجليز.

ـ يا لها من خيانة.

هتف «حسين توفيق» مُعلقًا على ما سمعه وحجبته الصحف عن الناس تنفيذًا لقرارات الرقابة.

***

دون طرق أو استئذان فتحت السيدة «سميرة» باب حجرة ابنيها لينتفض «حسين» من رقدته صائحًا:

ـ ماما. أما كان أفضل أن تطرقي الباب؟

منحته نظرة عتاب صامتة، بينما غرّد عصفور صغير داخل قفصها الصدري، مُرددًا أنَّ الصغير كبُر وصار رجلًا. ابتسمت مُعتذرة وقالت:

ـ آسفة يا حسين. لكنني أريدك لأمر مُهم.

ألقت نظرة على «سعيد» الجالس إلى مكتبه يقرأ كتابًا لم تعرف إن كان دراسيًا أم رواية مُترجمة استعارها من ابن خالته «نجيب» كما تعود، وأشارت لـ«حسين» بعينها اليُمنى ليتبعها إلى غرفتها.

سار «حسين» مُتثاقلًا خلف الجسد العريض المائل للسمنة متوقعًا رسائل غير مُباشرة تنقلها له أمه عن والده. إنَّه يشعر بالصلابة والقوة عندما يقف أمام والده مُتناقشًا أو مُتهمًا، بينما ينكمش ضعفًا أمام السيدة التركية ذات الحنان المُتكبر، تلك التي مازالت نظراتها إليه تُردد في سعادة كلمة «صغيري».

على سريرها المُستطيل ذي الأعمدة النحاسية جلس أمامها مُستعدًا بعقل منفتح وإجابات مُعدة سلفًا على أسئلة تتكرر. فكّر أنَّ والده ربما حكى لها ما نُقل له حول حوادث التعرض للعساكر الإنجليز أو إحراق سياراتهم، كما توقع أن تعيد السيدة الحنون فتح ملف الدراسة والمُذاكرة. ومن المؤكد أنَّها لن تُحدثه عن الفتيات بعد اطمئنانها أنَّه يلتقي بعضهن ويراقصهن كما أخبرها «نجيب». نظر لسيجارة رويال احتضنتها أصابعها قبل أن تنغرس بين شفتيها مُبديًا برودًا مبالغًا فيه تناسب مع ابتسامة مُصطنعة ارتسمت على وجهه.

سألته السيدة ذات الوجه المُشرب بالحُمرة في تحفز:

ـ قُل لي يا حسين. ماذا تنتوي أن تكون؟

ذات الأسطوانة. ستعرُج على الدروس والمذاكرة والمستقبل. قالها سرًا قبل أن يُجيب:

ـ قولي لي أنت. ماذا تُريدينني أن أكون؟

برقت عيناها فواصل:

ـ طيار مثل أونكل سليم يطير فوق السحاب وينظر للجميع من علٍ؟ أم قائد عسكري مثل جدي إسماعيل باشا يخدم في الجيش العثماني ويُقدم حياته فداء لأمير المؤمنين؟ أم وكيل وزارة مثل بابا نال البكوية ويقترب من إنعام مولانا عليه بلقب الباشاوية؟

اغتمت وبان الوجل على وجهها، ثُم قالت:

ـ كفى سُخرية من أهلك.

ردَّ مقاطعًا:

ـ لست أسخر لكني أعرف أنك تريدينني أن أكررهم.

ــ ليـس شرطًـا. مـن الممكـن أن تكـون طبيبًـا ناجحًـا يُـداوي النـاس وينظـر إليـه الجميـع باحـترام وتقديـر، ومـن الممكـن أن تُصبـح مُهندسًـا يُنـشئ الأبنيـة ويصمـم العمـارات، أو مُحاسـبًا كبـيرًا تُديـر أمـلاك والـدك وتُنمـي تجـارة تمنعـه الوظيفـة مـن تنميتهـا، أو ربمـا تُريـد أن تسـتكمل تعليمـك في أوروبـا لتصبـح مؤهـلًا لأي منصـب مرمـوق.

غزا الغضب وجهه رويدًا فقال:

ـ أين يا أمي. في لندن؟

ـ وما لها لندن؟

ـ بلد العدو، عاصمة القتلة، وأرض المُستعمرين.

ـ إذن ادرس في فرنسا.

ابتسم ساخرًا قبل أن يقول:

ــ البلـد الـذي يـدك إخواننـا في سـوريا بالطـيران دون رادع. فرنسـا الـتي تذبـح الأطفـال في الجزائـر وتغتصـب النسـاء، فرنسـا الـتي...

رفعت كفها احتجاجًا وقالت:

ــ كفـى يـا حسـين. لا عليـك. ادرس في بلـدك. لكـن لابـد أن تجتهـد وتُخطـط لمسـتقبلك. اتـرك الشـغب ولهـو الأطفـال الـذ...

لم تُكمل الكلام، حيث وقف حسين غاضبًا وقاطعها بصوتٍ عالٍ:

ـ لعب أطفال؟ لهو؟ أنت لا تعرفين ما أفعل.

قالت بحسم:

ـ أعرف.

ثُم أضافت:

ــ لكـن إشـعال النـار في معسـكرات العسـاكر الإنجلـيز لا يخـدم أحـدًا.

إنَّهـا أفعـال متهـوِّرة بـلا مقابـل. إنَّ والـدك يحـترق حـسرةً كلمـا عـرف بأفعالـك أنـت وأصحابـك. يحـترق صامتًـا حـتى لا ينكشـف أمـرك وتخـسر مسـتقبلك.

وضـع «حسـين» يـده في جيبـه وسـار في الغرفـة ذهابًـا وإيابًـا وقـال في توتـر:

ــ يصمت حتى لا ينكشف أمري ويخسر منصبه. أليس كذلك؟

ردَّت بعصبية مماثلة:

ــ لا يـا حسـين. ضربـك للعسـاكر في الشـوارع المُظلمـة لا يمكـن أن يمـر بسـلام. الإنجليـز لا يتركـون ثـأرًا وأبـوك يُحبـك ويخـشى أن يقسـو عليـك فيمنعـك عـن أصحابـك أو يوقـف مصروفـك. أنـت لا تعـرف كـم يُحبـك.

مضـت ساردة مـا عرفـه أبـوه مـن صديـق يعمـل بالأمـن العـام بـأنَّ هُنـاك جماعـة مـن الأولاد صغـار السـن يخربـون سـيارات الإنجلـيز ويحرقونهـا ويعتـدون عـلى بعـض العسـاكر في المعـادي، وأنَّ مُخـبرًا راقبهـم ورآهـم يدخلـون إلى حديقـة منزلـه، فقـدم إليـه ليُحـذره.

اقتربت منه لتضع يدها على خدِّه وقالت:

ــ أرجـوك يـا حسـين. لا تحـرق قلـبي وقلـب أبيـك عليـك. أنـت رجُـلي وسـندي بعـد والـدك. أرجـوك اشـغل نفسـك بالموسـيقى. ادخـل السـينما وصـادق الفتيـات، العـب كـرة، واهتـم بدروسـك.

سكنت خلاياه قليلًا وشعر بضعفه أمام أمه فقال:

ــ حاضر يا أمي. لن أرتكب أي أفعال خطر مرة أخرى.

ــ تعدني.

هزَّ رأسه في تسليم وقال:

ــ أعدك.

برقت عيناها وقالت له وهي تمسح على شعره:

ـ إذن. أعطني المُسدس.

ـ أي مُسدس؟

ابتسمت قليلًا وكررت:

ـ أعطنى المُسدس يا حسين. نحن نعلم أن معك مسدسًا.

هزَّ رأسه في برود، وقال لها:

ـ حاضر.

في المساء جلس في محل جروبي بوسط القاهرة يحتسي البيرة الباردة مع فتاته المُنبهرة دائمًا ببطولاته عندما سألته بعد أن قصَّ عليها حديثه مع أمه:

ـ هل أعطيتها المُسدس؟

ابتسم وقال:

ـ طبعا يا ميمي.

وأضاف مُفصلًا:

ـ أعطيتها مُسدسًا خربًا احتال أحد البوابين وباعه لـ«محمد» الشهر الماضي.

ضحكت «ميمي» وقرصته في خده الذي اتخذ ملمسًا خشنًا قبل أن تقول بنبرة رضا:

ـ أنت داهية.

ودلق كوبًا مُمتلئًا بالبيرة في جوفه، وقال:

ـ في صحتك.

***

في مكتبه بوزارة الداخلية جلس اليوزباشي «محمد إبراهيم إمام» يُراجع تقريرًا وصله من وكيل الوزارة عن حوادث مُقلقة وغامضة في أماكن متفرقة من أنحاء البلاد، التي صارت غاصة بالمشاغبين والناقمين بعد حصار الدبابات لقصر عابدين.

كان وجهه رائقًا وعيناه ناعستين من كثرة القراءة وبدا وجهه النحيل ممصوصًا من طول السهر، وهو يُقلب بأصابع طويلة أوراق التقرير المُقلق الذي يستثير فئران الرغبة في البحث والاستقصاء لمعرفة قتلة سريين أو مُجرمين غير مُسجلين. ورغم سمته الهادئ وابتسامته المُضيئة كان يعتبر أنَّ مسألة حفظ الأمن وحماية الأرواح مُهمة مُقدسة غير مُلتفتٍ لمبررات غضب وطني نتيجة قهر سلطوي يُمارسه الاحتلال البريطاني في مصر. ناقش الرجل نفسه من قبل مرارًا وخلُص إلى أنَّه خادم للأمن أيا كان المستفيد به، ومُطارد للعُنف أيًا كان مصدره أو اتجاهه. وعلى مدى سنوات تنقل فيها اليوزباشي الشاب بين قطاعات عديدة بالبوليس وجد نفسه مُنفصلًا عن جميع الأحزاب السياسية القائمة، ومُتصلًا في الوقت ذاته بجميع الزعماء وأصحاب التوجهات بصلات تعاون بما يُحقق الشأن العام.

كان التقرير المعروض عليه قد استعرض أنشطة لجماعات وأفراد معادين للأمن العام بما يُشكل خطرًا لا يجب اتساعه. وذكر التقرير أنَّ حوادث موت مُريب شهدتها منطقة الزيتون لعساكر إنجليز كانوا يسيرون في الشوارع ثُم يسقطون صرعى دون سبب، وبعد تشريح جثامينهم اتضح قيام أشخاص ما بشكهم بدبابيس صغيرة مغموسة في السم وهُم يمرون إلى جوارهم، ثُم يعتذرون في أدب حتى تسري السموم في شرايين الضحايا. ورجح التقرير أن يكون مدبرو الحوادث ضُباطًا بالجيش من أولئك الذين يحملون مشاعر كراهية وعداء شديد تجاه الإنجليز، وبعضهم تم فصله من الخدمة في الشهور الأخيرة بسبب شبهات حول اتصالهم بقوات المحور. وذكر التقرير

كذلك أنَّ تكنات الجيش البريطاني بالإسكندرية تعرَّضت لسلسلة حرائق في ظل اشتعال معارك الصحراء في العلمين ويعتقد أن وراءها تنظيمًا سريًا متطرفًا مواليًا لحزب مصر الفتاة.

وثمة حوادث قتل مُريبة في أسيوط لبعض الموظفين الإنجليز في مديرية الأشغال، إذ لقي مهندس ري بريطاني مصرعه بعد أن أطلق عليه مجهول ثلاث رصاصات في جنح الليل، وبعدها بأسبوع واحد وُجدت جُثة طافية لمهندس أيرلندي في نهر النيل مات طعنًا بسكين حاد، وأغلب الظن أنَّ مجموعة من الشباب المتطرف تحاول استغلال الغضب الشعبي للفت الأنظار.

ووقفت عينا اليوزباشي «إبراهيم إمام» عند حكاية اعتداءات المعادي، حيث تم العثورعلى جثة أومباشي بريطاني مصابة بطلق ناري وعدة ضربات في الرأس والظهر، وبعدها عُثر على جُثة الأومباشي «يونج» مصابة بضربات وكسور في الرأس وطعنات بآلة حادة في العُنق والبطن. ثُم تعرّض الأومباشي «ميللر» لإطلاق نار من سيارة مُسرعة في جنح الظلام لتُصيبه طلقتان في الكتف اليمنى دون أن يتعرف على مُطلق النيران. ويُعتقد أنَّ تلك الحوادث مُتصلة بحوادث أخرى شهدها الحي الهادئ خلال السنوات الثلاث الماضية تمثلت في إحراق سيارات نقل تابعة لمعسكر القوات البريطانية، فضلا عن إشعال النار في نادي الضباط بالمعادي. وتفيد المصادر أنَّ وراء تلك الاعتداءات مجموعة من الشباب المرتبطين بحركة مصر الفتاة.

وتابع اليوزباشي في التقرير نفسه توصية بنقل الضابطين «أحمد فؤاد صادق» و«محمد كامل الرحماني» لميولهما مع دول المحور إلى الصعيد، فضلًا عن التوصية بإبعاد الضابط «محمد أنور السادات» تماما عن الجيش لتكرار اتصاله بالجواسيس الألمان.

قطع حبل أفكاره دخول العسكري المناوب سائلًا في لُطفٍ شديدٍ

إن كان يأمر بشيء ما. نظر بهدوء إلى سجائره والتقط واحدة أشعلها بولاعته الروبنسون التي أهداها له حكمدار العاصمة لتميزه في العمل وقال له:

ـ نعم. قهوة سادة.

ـ تمام يا أفندم.

ردَّ العسكري، ليعود اليوزباشي لأفكاره حول تطورات الأوضاع الأمنية في مصر عقب حادث الرابع من فبراير في العام الفائت.

كانت مصر قد تابعت باهتمام بالغ على مدى عام كامل كيف انقلب تقهقر القوات البريطانية أمام قوات المحور في العلمين إلى انتصارات مُتتالية بفضل حنكة ودهاء القائد البريطاني المارشال مونتجمري، وزاغت قلوب عديدة حسرة على انفلات حُلم التحرر من الاحتلال البريطاني حال هزيمة بريطانيا في الحرب، وفاض الغيظ أنهارًا في نفوس الوطنيين المحسوبين على بعض الأحزاب مثل حزب مصر الفتاة، بينما كان حزب الأغلبية واضحًا ومعتدلًا في موقفه بأن مصلحة مصر تكمن في وفائها بالتزامات معاهدة الصداقة الموقعة سنة 1936. أما جماعة الإخوان المسلمين فلم يكن لها موقف واضح.

قال اليوزباشي «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّه على يقين من وجود تنظيم سري خاص مُسلح لجماعة الإخوان المسلمين، لكنَّه على ثقة من أنَّ هذا التنظيم لا يستهدف بأي حال جيش الاحتلال البريطاني، وإنَّه سيظهر يومًا ما لحسم مواقف واستغلال فرص.

وفكر الرجل ذو الجبهة العريضة والأنف الطويل والقسمات الهادئة أنَّ الأيام القادمة ستحمل كثيرًا من الأحداث الخطيرة، التي ستكتبها كُتب وأقلام وصحف ويرويها جيل بعد آخر.

***

اتسـع التنظيـم بـأسرع مما توقعـوا. كان مـن الواضـح أنَّ الشـاب الصامـت الخجـول «محمـود يحـيى مـراد» يُفكـر بذهـن مُتقـد في الغـد. ويبـدو أنَّ غرامـه بالرياضيـات وبالهندسـة دفعـه لوضـع حسـابات دقيقـة حـول مسـتقبل التنظيـم، مـا خطواتـه القادمـة؟ ومـا آليـات اتخـاذ القـرارات فيـه؟ وكيـف يؤمـن ذاتـه مـن ضربـات أمنيـة منتظـرة في حـال سـقوط أحـد أفـراد التنظيـم؟ وقبـل كُل ذلـك مـا توجهـات التنظيـم فكريًـا؟ لقـد كان في حـيرة مـن التبايـن الواسـع في أفـكار ورؤى أفـراد الشلـة حـول الديـن والعلـم والحيـاة. لقـد كان البعـض صوفيًـا زاهـدًا، بينمـا كان آخـرون مسرفـين وعبثيـين، وبـين أفـراد المجموعـة كان هنـاك المنفتـح، اللاهـي، وهنـاك أيضًـا الخجـول، المُنغلـق. كان هُنـاك مـن هـو مُثقـف ومُطلـع، وكان هُنـاك مَـن هـو لا يقـرأ كلمـة.

بعـد شـهور قليلـة مـن انخـراط «محمـود يحـيى مـراد» مـع «حسـين» وأصحابـه في عمليـات الاعتـداء عـلى الإنجليز ومنشـآتهم وسـياراتهم شـعر بـضرورة السـيطرة عـلى دفـة التوجيـه لتلـك المجموعـة، خاصـة أنهـا قـد تنفلـت في بعـض الأحيـان بسـبب تهـور رأسـها. ولاشـك أن ابـن عائلـة مُراد كان يعلـم يقينًـا أنَّ كفـة القيـادة تميـل دائمًـا لـ«حسـين توفيـق» بسـبب جرأتـه وقدرتـه عـلى التأثـير في «جـول» و«سـعيد» و«مدحـت»، فضـلًا عـن رضـا ابـن خالتـه «محمـد إبراهيـم» عنـه وموافقتـه لـه في معظـم الآراء. ولـم يكُـن هنـاك بديـل سـوى ضـم أعضـاء جـدد بهـدف انـتزاع القيـادة مـن الشـاب الطائـش الـذي كاد عـلى ظـن «محمـود» أن يوقـع بهـم أكـثر مـن مـرة بسـبب خططـه السـاذجة واندفاعاتـه غـير المدروسـة.

فى جلسـة احتضنتهـا غرفـة «محمـود مـراد» بمنزلـه وضمـت أفـراد التنظيـم، طـرح طالـب كليـة الهندسـة بـذكاء ضرورة توسـيع الجماعـة، وضـم أعضـاء جُـدد لديهـم قـدرة عـلى التخطيـط باحترافيـة والتحـلي بالـذكاء والـبرود لتنميـة أعمـال التنظيـم وصـولًا لفكـرة الثـورة الشـاملة كهـدف نهـائي. كان حسـين يومهـا يسـعل بشـدة نتيجـة إصابتـه بـدور بـرد

شديد، وهو ما جعله على الرغم من تناوله قرص بولمونكس الفعَّال ضد نزلات البرد أقل احتمالًا لمناقشات طويلة مع أفراد الجماعة، لكن طرح ابن عمته أثار لديه شكوكا بمحاولة الإقصاء أو السيطرة، لذا فقد سأل بدهاء عن الحقل الآمن لاستقطاب أعضاء جدد، ليفاجأ بإجابة محمود القاطعة:

ـ كلية الهندسة.

استشعر «حسين» بجدية وثبة للسيطرة من جانب ابن عمته المنضم حديثًا، فسأل في برود:

ـ ولِمَ كلية الهندسة تحديدًا؟

فأجاب المسئول قائلًا:

ـ أولًا لأنَّها تضم أناسًا أذكياء بالضرورة، فلا يدخل الكلية شخص غبي أو تافه. ثانيًا لأنني هُناك وأعرف مجموعة من الشباب الوطني الباحث عن قاعدة انطلاق لخدمة الوطن، وثالثًا لأنَّه من اليسير ضم مجموعة متآلفة معًا بدلًا من ضم عناصر متفرقة من الشرق والغرب.

لم يُبد المجتمعون اعتراضًا، لذا فقد فاجأهم «محمود» في اجتماع تال، شهده منزله أيضا بضم ولد أسمر من أصل صعيدي يُدعى «كريم القناوي»، وآخر سمين وضاحك على الدوام يُدعى «عباس مُرشدي»، وثالث جسور إلى أبعد مدى ولا يكترث لخطر اسمه «محمد خليفة»، ورابع قوي البُنيان، ثابت الخطوات هو «محمد الشافعي». وردّ «سيد» بعد ذلك ربما بتحريض من «حسين» بضم أحد أصدقائه من ذوي الأصول البدوية المُتحمسين للعمل الفدائي تميز بضخامة الجثة والشجاعة الفائقة يُدعى «محجوب»، وآخر مُدرسًا يرتدي طربوشًا ويتحدث بلغة عربية فُصحى ويتقدم في السن قليلًا عن باقي أفراد المجموعة هو «عبدالهادي أفندي مسعود». كذلك فقد ضم «حسين» نفسه مُدرسًا آخر هو «عمر أبو يعلى».

وكان لابد مع اتساع التنظيم من اختيار قيادة واضحة ومعلنة، لذا فقد اجتمع الشباب في منزل «عبدالهادي مسعود» بمنطقة الظاهر، واتفقوا على وضع اسم للجماعة هو «أبناء النيل»، ثُم اتفقوا بعد ذلك على اعتبار قتل الإنجليز والإضرار بممتلكاتهم الهدف الأسمى للجماعة، ثُم بدأوا مُناقشاتهم لاختيار رئيس لهم، فقال «حسين» مُقترحًا:

ـ أرى أن يكون الاقتراع سريا ويكتب كل واحد اسم مَن يريده رئيسًا في ورقة ثُم نفتح الورق كُله.

رانت حالة من الصمت على الحضور، قطعها «محمد إبراهيم كامل» عندما أخرج علبة سجائر وزَّع منها على المشاركين كافة في الاجتماع عدا «عمر أبو يعلى» و«سعيد توفيق»، اللذين لا يدخنان، وقال في حزم:

ـ ولِمَ نُجري اقتراعًا سريًا؟ هل نخاف أو نُحرج من بعضنا بعضا؟ علينا أن نُحدد الآن مَن يُريد الترشح ثُم نُصوِّت عليه.

قال «عبدالهادي أفندي» بعد أن خلع طربوشه ومسح بمنديل أبيض ناصية رأسه:

ـ أنا أعتقد بخبرتي السابقة في حزب مصر الفتاة أن نختار أولًا مجلسا استشاريا للمجموعة يتكون من خمسة أفراد تكون مهمتهم اتخاذ القرارات المصيرية على أن يختار الخمسة فيما بينهم واحدًا يترأس المجموعة، وأن نتفق على عدم تنفيذ أي قرار لا يحظى بموافقة أعضاء المجلس الاستشاري كافة.

ـ فكرة سديدة وعملية.

علّق «محمود مراد»، ناظرًا إلى «عبدالهادي أفندي» بنظرة ذات مغزى قبل أن يقرر:

ـ أنا شخصيًا أترشح للمجلس الاستشاري.

ـ وأنا أيضًا.

قالها «محمد إبراهيم» فكرر «حسين» في حزم:

ـ وأنا أيضًا.

ابتسم «نجيب» الذي لاحظ عصبية بادية على وجه «حسين»، فقال:

ـ إذًا حُلَّت القضية. لدينا محمود ومحمد إبراهيم وحسين، وأرى أن نضم إليهم عبدالهادي أفندي باعتباره أكبر الأعضاء سنًا، وأن نضم لهم محجوب باعتباره ممثلًا للبدو، وقادرًا على جلب السلاح بسهولة للجماعة.

ـ موافق.

قالها «حسين»، فردد باقي الحضور كلمات الموافقة، قبل أن يستطرد «نجيب»:

ـ وأرى وقد انتهينا من تشكيل المجلس الاستشاري أن يتم اختيار «عبدالهادي أفندي» بحكم عمله السياسي السابق وبحكم أنَّه الأكبر سنًا رئيسًا للجماعة.

ـ أشكرك على ثقتك.

قالها «عبدالهادي أفندي»، فبارك بعض الحاضرين ليشعر «حسين» بحجر صلت أسقطه ابن خالته «نجيب» فوق رأسه من علٍ. طعنة لم يتوقعها، وتطور لم ينتظره، ونظرات شماتة لم يقرأها من قبل في عيني ابن خالته.

حاول «حسين» أن يبدو مُتماسكًا وموافقًا لرأي الأغلبية الذي أقصاه واختار عضوًا جديدًا في محل القيادة، أمّن على الاختيار بهزّ رأسه تسليمًا ثُم قال للقائد الجديد:

ـ قُل لي يا عبدالهادي أفندي باعتبارك عضوًا عاملًا في حزب مصر الفتاة. هل يختلف أحمد حسين كثيرًا عن مصطفى النحاس ومحمود

فهمي النقراشي؟

هزَّ المسئول رأسه يمينًا ويسارًا وقال في صراحة:

ــ إطلاقًا. أحمد حسين مُخادع وتاجر كلمات فقط. والنحاس لا يريد من الحياة سوى لقب الزعيم الجليل.

ــ وحسن البنا؟

سأله «عمر أبو يعلى» فأجاب مبُتسمًا:

ــ راسبوتين الشرق. نصاب يحفظ كتاب الله.

ثُم قال كمن يوجه تلاميذه:

ــ أفضل شيء لنا أن نكون مُستقلين عن كُل هؤلاء المُخادعين. لو نظرتم إلى الوفد ستجدونه لا يبحث عن شيء سوى السُلطة حتى لو كانت عبر جسور دولة الاحتلال، ولو تابعتم الإخوان ستجدونهم يعبدون قادتهم ويقدِّسونهم أكثر مما يقدِّسون نبي الإسلام، أما الشيوعيون فهُم مجموعة من السُذج الذين يتخيلون أنهم قادرون على إشعال الثورة من خلال المنشورات التافهة التي يوزعونها. أعتقد أنه لا خلاص دون سلاح، ولا تقدم دون تضحية، واستعداد حقيقي لخوض غمار الخطر.

خطيب بارع. علَّق «حسين» دون صوت، بينما ابتسم محمود يحيى مُعتقدًا أنَّ التنظيم الذي كان يطمح لقيادته اختطف من شخص خارج دائرة التوقعات. ابتسم مُتحفزًا، وسأل الرئيس في اهتمام ظاهر:

ــ والآن. ما المُهمة القادمة؟

برقت عينا «عبدالهادي أفندي» اهتمامًا وقال بنبرة تحدٍ:

ــ سنسرق نُزل خُبراء وزارة الأشغال الإنجليز في مصر الجديدة.

ــ نسرق؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالهادي»:

ــ نعـم وبسرعـة. نحـن نحتـاج أسـلحة ومـا تدَّخرونـه مـن مصروفكـم لا يفـي بـشراء الأسـلحة.

ثُم أضاف بحزم:

ــ مفهوم؟

ــ مفهوم.

قالهـا أكـثر مـن واحـد، قبـل أن يسـتمعوا لخطـة السـطو عـلى اسـتراحة مُهنـدسي الميـاه الإنجلـيز، الـتي زارهـا «عبدالهـادي» عـدة مـرات بصحبـة أحـد أقربائـه العاملـين في الـري.

***

لـم يكُـن «عبدالهـادي أفنـدي» يـدري وهـو يدلُـف إلى بـار بيـلي ببـاب الشـعرية أنَّ هُنـاك خُطـى تتبعـه. سـار مُنتشـيًا بالنجـاح، وهـو يُـردد في سرّه بيـت شـعر طالمـا أحبـه يقـول «دعيـني للغـنى أسـعى فـإني.. رأيـتُ النـاسَ شرُّهـم الفقـيرُ». جلـس مكومًـا جسـدًا مُترهـلًا بانـت عليـه السـمنة عـلى كـرسي خشـبي بسـيط يختـبئ تحـت ترابيـزة رخاميـة مُسـتطيلة، عندمـا ألقـى عليـه النـادل تحيـة المسـاء واضعًـا طبقـين أحدهمـا مـن الترمـس المُملـح والآخـر مـن الخيـار المخلـل أمامـه. سـأله النـادل بعـد أن منحـه ابتسـامة ترحيـب مُعتـادة إن كان يطلـب مثـل كل مـرة كونيـاك، فجـاءه الـرد بالنفـي مُـرددًا:

ــ ويسكي يا خواجة. ويسكي.

فُرجـت، هكـذا قـال «عبدالهـادي أفنـدي» في سره، وهـو يتأمـل نوافـذ البـار الزجاجيـة ذات الطـراز الأوروبي مُشرعـة مـن الداخـل. سـتتبدد أيـام الشـقاء وسـترحل ليـالي الحرمـان، وسـتهنأ بمـا لـم تنـل رغـم قدراتـك ومهاراتـك. أنـت تسـتحق الصـدارة والـثراء. لقـد خلقـت للقيـادة.

نظر «عبدالهادي أفندي» حوله للجالسين يمينًا ويسارًا يُدخنون في قرف ويشربون بيرة وكونياك ونبيذًا رديئًا يتناسب مع ثيابهم الرثة ووجوههم العابسة، مُقررًا أنَّ مثل هذا المكان لم يعُد يليق به بعد أن صار زعيمًا لأكبر مُنظمة سرية. قبلها وعلى مدى عشر سنوات تنقل بين حزب وآخر والتقى صنوفًا متناقضة من ذوي الأفكار السياسية، واختلط بُخطباء مفوهين، وعرف دُهاة وساسة وشعراء وصعاليك وظرفاء ومحتالين.

وضع النادل زجاجة ويسكي بلا لون أمامه وكوبًا مُلمعًا، صبّ فيه حتى آخره، قبل أن يقول:

ـ أفضل ويسكي لعبدالهادي أفندي. سكوتش أيرلندي مُعتق.

ـ شكرًا.

هزَّ رأسه، وهو يفكر كيف كانت سنوات الحرب صعبة، وكيف بقي بلا وظيفة لأكثر من عامين قبل أن يلتحق بمدرسة المُعلمين بالعياط راضيًا براتب هزيل لا يتجاوز ثلاثة جنيهات والنصف في الشهر، مرَّ بخاطره كيف عرف من جاره محجوب بأمر الجمعية التي تستهدف مقاومة الاحتلال والتي ينفق عليها شباب ثري يفيض بالحماس والجرأة. دلق كوبًا من الويسكي في جوفه فشعر بلسعة الشراب الساحر الذي حرمه الفقر منه سنين، وتذكر كيف نفذّ الأولاد عملية سرقة نُزل خبراء الري الإنجليز بمصر الجديدة دون ذرة خطر. لقد تحركوا كما رسم لهم تمامًا في الصباح الباكر، حيث قاموا بإلهاء الحارس من خلال دعوته للمشاركة في تغيير عجل سيارة يقودها محمد إبراهيم، وإلى جواره مدحت، عندما تسلل حسين ومحجوب ومحمود مراد وسعيد وسيد وكريم إلى الداخل ليسرقوا دواليب المهندسين في خمس عشرة دقيقة فقط ويعودوا دون اشتباك. كانت حصيلة العملية خمسين جنيهًا وثلاثين قرشًا وثلاث زجاجات نبيذ، وساعة يد ماركة جيني وثلاثة أقلام حبر ماركة كروكسلي، وقلم حبر

مونيمـور، ودبوسًـا ذهبيًـا عـلى هيئـة علـم بريطانيـا وشـفرات حلاقـة جيليـت وعلـب أقـراص اسـبرو، واسـبيول.

استطاع «عبدالهـادي» إقنـاع أفـراد التنظيـم بـضرورة منحـه الغنائـم حـتى يتمكـن مـن بيعهـا وشراء قنابـل يدويـة عـن طريـق أحـد أقـارب «محجـوب» الذيـن يعملـون في الإسـماعيلية في خدمـة الجيـش البريطـاني. قـال لهـم إن القنابـل ضروريـة لتنفيـذ سلسـلة مـن العمليـات الفدائيـة خـلال المرحلـة القادمـة. وقـرر الرجـل ذو الوجـه العريـض، والطربـوش المُنتفخ أن يسـتمتع ولـو لأيـام قليلـة بحيـاة عبـث ولهـو كان يحلُـم بهـا لسـنوات طويلـة دون تحقيـق تحـت وطـأة الفقـر والعـوز.

فكَّـر المُـدرس العابـث في زيـارة ضروريـة لعوامـة ثُريـا بإمبابـة، حيـث الراقصـات البدينـات الـلائي عـاش عمـره عاشـقًا لهـنَّ. كان يـرى اهـتزاز الخـصر مُنشـطًا للقلـب وطـاردًا لرائحـة الحُـزن منـه. حـدَّث نفسـه بـأنَّ الفاتنـة تحيـة ذات العُنـق الطويـل والجسـد الخمـري الممشـوق والعينين الوقحتـين تسـتحق زجاجـة كولونيـا الشـبراويشي هديـة لهـا حـتى يهنـأ بأحضـان دافئـة وفـراش مُشـبع. شرب كوبًـا آخـر وردد مُترنمًـا بأغنيـة «محلاهـا عيشـة الفـلاح» للمطربـة المُبهـرة أسـمهان، بينمـا كانـت هنـاك في ركـن البـار عينـان صاحيتـان تُتابعانـه بترقـب وغضـب. قـال صاحـب العينـين لنفسـه «الويـل للخونـة يـا عبدالهـادي. سـتموت». ردد‍هـا بينمـا كان صـوت «عبدالهـادي» الغليـظ يُـردد في نشـوة: «محلاها عيشـة الفلاح.. متطمـن قلبـه مرتـاح.. يتمـرّغ عـلى أرض بـراح.. والخيمـة الزرقـا سـاتراه..».

شـعر صاحـب العينـين الصاحيتـين بالاسـتياء وتذكـر نصيحـة «محمـد إبراهيـم « و«حسـين « و«مدحـت» لـه بـأن يسـيطر عـلى أعصابـه، وتذكـر أيضـا مقولـة معلمـه الأول نيتشـة القائلـة «لا تمـشِ في طريـق مـن طـرق الحيـاة إلا ومعـك سـوط عزيمتـك وإرادتـك لتلهـب بـه كل عقبـة تعـترض طريقـك».

«خائـن. خائـن. خائـن» رددهـا وهـو يكبـت مشـاعر مُنفلتـة تـكاد تذبحـه

مُتذكـرًا كيـف بـدأ سـوس الشـك ينخـر قلوبهـم بعـد العمليـة مبـاشرة. أخبرهـم «حسـين» بـأنَّ «عبدالهـادي» سرقنـا، وتأكـدوا مـن محجـوب عندمـا قـال لهـم بـأنَّ الرئيـس المختـار لـم يدفـع نظـير ثـلاث قنابـل سـوى عـشرة جنيهـات، وأنَّـه ماطلـه في دفـع ثمـن مسدسـين جديديـن جلبهمـا قبـل يومـين. وقتهـا قـال حسـين مُسـتعيدًا دور القائـد المُحنّـك:

ــ سنُراقبه حتى يسقُط. لكن بهدوء.

قـام المُكلـف بالرقابـة بكسـل مُدعيًـا السُـكر وهـو عـلى يقـين أنَّ «عبدالهـادي أفنـدي مسـعود» لـن يشـعر أن كُل تحركاتـه وأفعالـه تحـت رقابـة ثعلـب صغـير اسـمه «محمـود يحـي مـراد». ثعلـب يعلـم أنَّ العُمر يسـتحق المُغامـرة، وأنّ الكـون بـلا أخـلاق. دفـع الحسـاب مُعطيًـا ظهـره للأفنـدي، ومـضى مُلتقطًـا بأذنـه بقايـا الأغنيـة الـتي غنتهـا أسـمهان: «دي القعـدة ويّـا الخـلان.. والقلـب مزقطـط فرحـان.. تتاقلهـا بجنـة رضـوان.. يـا هنـاه الـلى الخـل معـاه».

وخرج «محمود» راميًا الرئيس المختار للتنظيم بنظرة وعيد.

***

في حجـرة «عـم عثمـان الجنايـني» جلسـوا يتشـاورون فيمـا سـيفعلون مـع «عبدالهـادي أفنـدي مسـعود». شرح «حسـين» للحضـور خطـورة الوضـع، وحـكى «محمـود مـراد» كيـف تابـع الرجـل، وهـو يقـوم بتبذيـر غنائـم سرقـة الإنجليـز عـلى الخمـر والعاهـرات، وشـهد «محجـوب» بمماطلـة الأفنـدي في دفـع ثمـن المُسدسـين الجديديـن حـتى اضطـر للاسـتدانة مـن شـقيقه الأكـبر لسـداد القيمـة للبائـع.

كانـت العصبيـة باديـة في حديـث المُجتمعـين العـشرة والذيـن اتفقـوا جميعًـا في التدخـين بشراهـة، عندمـا قـام «مدحـت» مُشـهرًا مُسدسـه

وهـو يقـول في جـرأة:

ــ سأقتله.

وكرر:

ــ لا جزاء للخائن سوى القتل.

ــ قتل؟

غمغم البعض، فأكد مرة أخرى:

ــ نعم، ليس أمامنا حل سوى قتله.

ران صمـت غريـب تخللتـه نظـرات مُتبادلـة بـين وجـوه الحاضريـن، وسرحـت خيـوط الدُخـان في فضـاء الحجـرة راسـمة قلقًـا ظاهـرًا، لـم يلبـث أن قطعـه «حسـين توفيـق» قائـلًا بثبـات:

ــ لا يا مدحت. لن نقتله.

اسـتغربوا رأيـه. كان ينبغـي أن يكـون أكـثر حسـمًا خاصـة أنَّـه انـتزع منـه القيـادة. فكـر «محمـود مـراد». ليـس هـذا مُعلـم العُنـف والمُبـشر بالكراهيـة. ردَّد «سـعيد» في سرّه، وهـو يتذكـر كيـف علمـه قتـل الخـوف عندمـا خنـق قطتـه. مـاذا يريـد بنـا؟ سـأل «محمـد إبراهيـم» نفسـه ليجيبهـم «حسـين» وكأنَّـه يسـمعهم:

ــ نحـنُ لـن نقتلـه لأنَّـه لا يسـتحق القتـل، بـل هـو يسـتحق بالطبـع لأنه خائـن. سرق أمـوال الوطـن لحسـابه وألقـى بهـا تحـت أفخـاذ الراقصـات والعاهـرات. نحـن لـن نقتلـه لأن قتلـه قـد يُسـبب لنـا مشـكلات عديـدة، أولاّ لأنَّ كثيريـن رأوا بعضًـا منـا عندمـا كُنـا نـزوره في بيتـه، وثانيًـا لأنَّـه جـار محجـوب في السـكن وقـد تحـوم الشـكوك حـول محجـوب. وثالثًـا لأنَّـه شـخص عبيـط يسـهل التخلـص منـه دون دمـاء.

أشرق وجه «محجوب «بطمأنينة الرضا، قبل أن يسأل مدحت:

ــ وكيـف سـنتخلص منـه دون قتـل؟ لقـد صرنـا بالنسـبة لـه كـنزًا ثمينًـا، بقـرة حلـوب تـدر لبنًـا. نحـن ننفـذ أوامـره ثـم يسـطو عـلى مـا نأخـذ، لـذا

لا أعتقـد أنَّـه سـيفرّط فينـا بسـهولة.

فكر «محمد إبراهيم» قليلًا وقال:

ـــ معـك حـق. لابـد أنَّـه يرانـا وقـد تجـاوز الثلاثـين مـن عمـره مُجـرد مجموعـة مـن الأولاد الأشـقياء المُدللـين الباحثـين عـن أي مغامـرة. وربمـا يتصـور أنـه قـادر عـلى اسـتغلالنا والتربـح مـن حماسـنا للوطـن.

ردَّ «سيد» قائلًا:

ـــ أنـا عـلى اسـتعداد لأخلصكـم منـه، خاصـة أنـنى كنـت وراء ضمـه للتنظيـم.

نفـثّ «حسـين» دُخـان سـيجارته بعصبيـة، مـا لبـث أن سـيطر عليهـا مـرة أخـرى، وردَّ وهـو ينطـق كلماتـه كلمـة كلمـة:

ـ قُلت لكم إننا لن نقتله.

وعلا صوته قليلًا، وهو يردد بنبرة لوم:

ـــ حاولـوا أن تسـمعوا مـا أقولـه لمـرة واحـدة. سـنتخلص منـه ببسـاطة شـديدة، وللأبـد، واليـوم إن أردتـم.

نقـرت عصافـير الدهشــة فـوق رؤوســهم، وانتظـروا بشـوق خطــة «حســين».

ـ كيف ذلك؟

ســأل «محمــود مــراد» وأمامــه ورقــة وقلــم يُشـخبط بــه، فأجابــه «حســين» الــذي رانــت عــلى وجهــه مــرة أخــرى ســمات القيــادة:

ـــ الموضـوع ببسـاطة أننَّـا سـنعقد اليـوم اجتماعًـا للتنظيـم في بيـت عبدالهـادي أفنـدي، وسـيكون غـرض الاجتمـاع مناقشـة العمليـة القادمـة والـتي سـيقترح أحدنـا أن تكـون سرقـة مـصرف الخواجـة موصـيري بوسـط البلـد. سـأقدم أنـا الخطـة ومعهـا التفاصيـل كاملـة وسـيرفضها محمـد إبراهيـم، ويعتبرهـا سـاذجة، ثُـم سيشـتمه محمـود مـراد ويتهمـه بالخيانـة، وهُنـا سيشـهر مدحـت مسدسـه مُتوعـدا محمـود بالقتـل إن

كـرر كلمـة خيانـة مـرة أخـرى، وسـيقوم سـيد بتهديـد الجميـع بإبـلاغ البوليـس، في الوقـت الـذي سـيطلب فيـه محجـوب حقـه في العمليـة السـابقة، وسـيغادر كريـم ومحمـد خليفـة والشـافعي غاضبـين، وسـأعلن أنـا وقتهـا حـل التنظيـم تمامًـا، وسـننفض وكأنَّ كُل شيء انتهـى.

ابتسـم «محجـوب»، وصفَّـق «محمـد إبراهيـم»، بينمـا قبّـل «مدحـت» رأس ابـن خالتـه في امتنـان ظاهـر وهـو يقـول:

ــ برافو.

دخل نجيب في الحديث رغم عدم اهتمامه في السابق قائلًا:

ــ أهنئـك يـا حسـين. لأول مـرة تُفكـر بوعـي وتُخطـط بحنكة. أنـت تصلُح للقيـادة. لقـد أخطأنـا جميعًا.

ــ نعم.

كـرر الحضـور تأمينهـم، وانفضـوا سريعًـا عـلى موعـد باللقـاء ليـلًا، بعـد أن طلـب «حسـين» مـن «محجـوب» أن يُخـبر «عبدالهـادي» أنَّهـم سـيمرون عليـه في العـاشرة مسـاء.

غـادروا سُـعداء، بينمـا جلـس «حسـين» يُفكـر بجديـة في مسـتقبل التنظيـم. سينمو وسـيكبر ويتـولى قيـادة الأمـة بعـد خلـع الملـك الطفـل. رأى حُلمـه مُتخيـلًا مشـانق منصوبـة في ميـدان الإسـماعيلية يتـدلى منهـا «إسـماعيل صـدقي»، «النقـراشي»، و«أحمـد ماهـر»، و«أحمـد حسـين»، و«حسـن البنـا»، ثُـم أضـاف لهـم «النحـاس باشـا».

صعدا غرفتهما، ليقول «سعيد « لـ«حسين»:

ــ سـمعت ماما تقـول لبابـا إنَّهـا ستشـتري لـك كلبًـا بوليسـيًا هديـة عيـد ميـلادك القـادم. آمـل ألا تقتلـه.

فرح «حسين» وظهر ذلك على وجهه، وقال لشقيقه:

ــ لا تخف. سنستخدمه في نضالنا.

فكر سعيد قليلا، ثُم سأل:

ـ هل تعتقد أنَّ والدنا يعرف ما نفعل؟

ـ طبعًا.

ـ كيف يسكت على ذلك؟

ـ لأنَّه يعلم أننا على صواب، وأننا نكرر ما عجز هو عن تحقيقه. لقد كان مثلنا عندما كان في السن نفسها.

هزَّ «سعيد» رأسه قائلًا:

ـ معقول. معقول.

في اللقاء المسائي جرت الخطة كما أراد «حسين»، وسرت الرعشة واضحة في جسد «عبدالهادي أفندي» عندما شهر «مدحت» مسدسه مُهددًا «محمود مراد» بأنه سيضربه بالرصاص إن كرر وصفه لـ«محمد إبراهيم» بالخائن، وصاح في الشباب:

ـ استهدوا بالله. يا شباب. كُلنا إخوة.

هبّ «سيد» واقفًا وهو يُردد بصوتٍ عالٍ:

ـ أنا أرفض هذه الأعمال، سأبلغ البوليس عنكم.

وردَّ «حسين» بنظرات كُلها شرر قائلًا:

ـ أنت تحفر قبرك بيديك.

وعلا صوته قائلًا:

ـ سنقتلك إن خرجت كلمة مما نفعل أو نقول لأحد.

حاول «عبدالهادي» السيطرة على الوضع صارخًا:

ـ كفى طيشًا. كفى هُراءً. كفى لعب عيال.

وقام «محمد إبراهيم» مُمسكًا بياقة قميصه صارخًا:

ـ لسنا عيال يا هذا.

ـ احترم رئاستي لـ...

ـ اخرس.

وفوجئ صاحب البيت بـ«محجوب» يصرخ فيهم:

ـــ سـأفارقكم. أعطـوني حقـي في العمليـة الأخـيرة. لـن أشـارككم بعـد الآن.

نظروا إلى «عبدالهادي»، فوجدوه مُضطربًا وهو يُكرر:

ـــ سـتخسرون التنظيـم، وستشـمتون فيكـم الإنجلـيز، وأعوانهـم مـن الخونـة.

وقـام كريـم وخليفـة والشـافعي ومعهـم مدحـت وفتحـوا البـاب بُعنـف مُتظاهريـن بالغضـب بعـد أن ركلـوا في طريقهـم كُرسيًا ومنضـدة صغـيرة، وتبعهـم حسـين صائحًـا:

ـــ اسمعوا كلكـم. لـن أقبـل لعـب الأطفال مـرة أخـرى. اعتـبروا التنظيم حـلَّ نفسـه بنفسـه. انتهـى كُل مـا بيننـا كأن لـم يكـن.

ــ انتظر.

هتـف بـه «عبدالهـادي» لكنَّـه كان حاسـمًا وحـادًا، وخلفـه غـادر «محمـد إبراهيـم»، و«محمـود مـراد»، و«سـيد»، و«سـعيد» وهُـم لا يُعـيرون صاحـب البيـت أي اهتمـام وهـو يـصرخ فيهـم طالبًـا الانتظـار.

في الطريـق وعـلى بعـد خطـوات مـن المعبـد اليهـودي، قـال «حسـين» في هـدوء يليـق بسياسي مُنتـصر:

ــ انتهينا منه. شربها المُغفل.

ــ نعم.

قالها محمد إبراهيم مُثنيًا، فكرر حسين:

ــ دون أي دماء.

ومشوا فرحين ليحتفلوا بعيد ميلاد حسين التاسع عشر في جروبي.

***

أمطـرت شـوارع المعـادي رصاصًـا. غضبًـا، غِـلًا ضـد كُل قلـب أجنـبي ينبُـض عـلى أرض الوطـن، ذلـك المسلوب والمصلـوب ردحًـا مـن الزمـن، مُشـتتًا بـين صراعـات الساسـة والباشـاوات، ومُدنسًـا تحـت ظـل طفولـة وعبـث ملـك سـاذج لا يملـك مـن أمـره شـيئًا. كان شـباب المعـادي كُلّـه ناقمًـا عـلى تجـول العسـاكر الإنجلـيز في الشـوارع سُـكارى كُل ليلـة فرحًـا بانقشـاع خطـر روميـل ومـن معـه، وبـين الشـباب كان «حسـين» ومـن معـه يصلـون قتيـلًا بآخـر، ويتبعـون ضحيـة بضحيـة باحترافيـة شـديدة اكتسـبوها نتيجـة حُسـن تدبيرهـم وتماسـكهم وتغيـير سـيناريوهاتهم باسـتمرار. وفي أوج النشـاط ومـع انخـراط «كريـم» و«خليفـة» و«الشـافعي» و«عمـر» و«سـيد» و«محجـوب» في عمليـات القنـص عـن بُعـد شـعر «حسين» برغبـة شـديدة في تطويـر مجـال العمليـات ونقلهـا إلى مناطـق متفرقـة مـن العاصمـة، خاصـة بعـد أن أبلغهـم «عُمـر أبـو يعـلى» مُـدرس اللغـة الفرنسـية أنَّـه علـم مـن شـقيقه ضابـط البوليـس أنَّ الإنجلـيز رصـدوا ألـف جنيـه مكافـأة لمـن يُـدلي عـن معلومـات حـول القتلـة السريـين لعسـاكرها في المعـادي.

كان «حسـين» يـرى أنَّ أبـرز رد عمـلي عـلى ذلـك هـو أن يتـم تنفيـذ سلسـلة مـن عمليـات القتـل العشـوائي بمناطـق أخـرى لتشـتيت انتبـاه البوليـس، لـذا اختـار هـو بـار ماتوسـيان ببـاب اللـوق لاصطيـاد ضحيـة جديـدة، بينمـا قـرر «محمـود يحـيى مـراد» قتـل أحـد العسـاكر الإنجلـيز الخارجـين مـن ملهـى ليـل القاهـرة بشـبرا، وذهـب «محمـد إبراهيـم» إلى حُلـوان للبحـث عـن فريسـة، في حـين تـم تكليـف «سـيد» و«محجـوب» و«مدحـت» بإشـعال النـار في سـيارات الجيـش البريطـاني في قليـوب.

في بـاب اللـوق وقـف «حسـين» لأكـثر مـن سـاعتين دخّـن خلالهـا ثمـاني سـجائر رويـال مُنتظـرًا ضحيـة مُناسـبة حـتى لمـح ضابطًـا أربعينيًـا يميـل إلى السـمنة يخـرُج مـن البـار مُتثاقـلًا، فتبعـه في خفـة، تـاركًا مسـافة عـشر خطـوات فاصلـة. كان «حسـين» قـد تمـرّس عـلى إطـلاق الرصـاص عـلى

البطـن مُبـاشرة باعتبـاره المـكان الأسـهل في الإصابـة خـلال حركة الجسـم، خاصـة بعـد أن أثبتـت لـه التجـارب العمليـة أن التصويـب عـلى الـرأس كثـيرًا مـا يخيـب. نظـر «حسـين» في سـاعته فلمحهـا تقـترب مـن الواحـدة صباحًــا ودارت عينــاه في الشــارع لتجــده خاليًــا إلا مــن شــحاذ عجــوز يجلـس تحـت أحـد أعمـدة الإنـارة. قـدر أنَّ الناصيـة القادمـة هي الأنسـب لإطـلاق الرصـاص نظـرًا للعتمـة الطاغيـة عـلى المـكان المحيـط بالتقاطـع. سـعل الضابـط الإنجلـيزي سـعلتين مكتومتـين وبـدا مُطمئنًـا تمامًـا وهـو يُدنـدن في خـدر يُليـق بيـوم عُطلتـه الأسـبوعية، عندمـا انسـحبت كـف «حسـين» سريعًـا مـن جاكتتـه مُمسـكة بمُسـدس أوتوماتيـكي متطـور، ثُـم مـدَّ خطواتـه بسرعـة مُتجـاوزًا الضابـط ببضعـة أمتـار ليتوقـف بعدهـا ويسـتدير مواجهًـا ضحيتـه ليقـرأ في عينيـه هلعًـا نـادرًا قبـل أن تضغـط سـبابته عــلى زنــاد المســدس مُطلقًــا عــلى بطــن فريســته رصاصتــين مُتتاليتـين ثـم مانحًـا بعدهـا سـاقيه عنـان الركـض دون توقـف.

مـن شـارع لآخـر تـوارى قبـل أن يسـتقل تاكسـيًا نحـو مـنزل عُمـر بالجـيزة ليلتقـي هنـاك مـع زملائـه، حيـث أخـبره «محمـود» أنـه نجـح في إطـلاق الرصـاص عـلى جنديـين في شـبرا لكنـه يشـك في موتهمـا، بينمـا قـصّ «محمـد إبراهيـم» تجربتـه حيـث تجـوَّل عـدة سـاعات في شـوارع حلــوان دون العثــور عــلى ضحيــة مُناســبة. أمــا المجموعــة المُكلفــة بإحـراق سـيارات قليـوب فلـم تعُـد حـتى الصبـاح ممـا أثـار القلـق بـين أفـراد التنظيـم، وقـرروا العـودة إلى منازلهـم مُنتظريـن مـا تُسـفر عنـه السـاعات التاليـة.

فـور عودتـه إلى البيـت فوجـئ «حسـين» بـ«عـم عثمـان الجنايـني» مُخـبره الـسري يقـول لـه إن عسـكريا مـن قسـم البوليـس جـاء صباحًـا وسـأل عنـه وطلـب إبلاغـه ضرورة الذهـاب لمأمـور القسـم في الثانيـة عـشرة. لـم تمـض دقائـق عـلى الخـبر حـتى دخـل عليـه «نجيـب» ليخـبره أن «مدحـت» و«سـيد» و«محجـوب» قُبـض عليهـم ليـلًا بقليـوب

وبحوزتهـم مـواد سريعـة الاشـتعال، وأنَّ والدتـه لا تعلـم أي شيء حـتى اللحظـة.

امتص «حسين» ببرود قلق ابن خالته، وربت على كتفه قائلًا:

ــ اذهب إلى عُمر الآن وأخبره. سيتصرف.

ــ وأنت؟

سأله «نجيب» بغضب، فأجاب مُبتسمًا:

ــ أنا مطلوب في قسم البوليس.

أطلَّ الخوف من عيني «نجيب» وسأل محاولًا تمالك أعصابه:

ــ وأنت. ماذا ستفعل؟

ــ لا تقلق.

وغـادر «حسـين» بعـد أن سـكب نصـف زجاجـة كولونيـا فـوق بذلتـه السـوداء ومعـه «عثمـان الجنايـني»، الـذي سـأله عـن «سـيد» فكـرر كلمتي «لا تقلـق». اسـتقلا تاكسـيًا إلى القسـم وسـخر قلبـه مـن إيمـان «عُثمـان الجنايـني» وهـو يـردد طيلـة الطريـق الدعـاء بحـق السـيدة زينـب أن تـأتي العواقـب سـليمة. وصلا فسـأل حسـين عـن المأمـور، ثُـم بُخطـى واثقـة دخـل إلى مكتبـه بعـد إشـارة مـن الشـاويش ذي الجسـد الضخـم الـذي اسـتقبله فـور دخولـه. وجـد أمامـه شـاربًا طويـلًا مُتدليًـا عـلى فـم غليـظ الشـفتين مزروعًـا في وجـه مُربـع غامـق البـشرة يُدخـن بشراهـة كمدخنـة مصنـع فحـم. لمحـه واقفًـا فسـأله:

ــ من أنت؟

ــ حسين توفيق.

رماه بنظرة مُتفحصة من أسفل لأعلى والعكس، ثُم سأل:

ــ ماذا تُريد؟

ابتسم «حسين»، وجلس مُستفزًا مأمور القسم قبل أن يجيب:

ـ أنا لا أريد شيئًا، لكن هُناك استدعاء لي.

تفـرّس المأمـور ذو الوجـه المُتجهـم في الولـد الجالـس أمامـه وصـاح فيـه:

ـــ قُـم. مَـن سـمح لـك بالجلـوس؟ أنـت ابـن توفيـق بـك محمـد، أليـس كذلـك؟ لكـن مـن الواضـح أنـك ولـد مُشـاغب.

وقـف «حسـين» صامتًـا ليدفـع السـائل للتـورط في سـكب كُل مـا لديـه مـن أفـكار ومعلومـات.

ـ أين كُنت في الواحدة صباح الأمس؟

سأله المأمور، فأجاب:

ـ في فراشي.

ـ في بيتكم؟ ممم. هل لديك شهود على ذلك؟

ابتسم «حسين» وقال بثقة:

ـ طبعًا.

ـ مَن؟

ـ عم عثمان الجنايني وشقيقي سعيد.

ونظر للواقف على باب حجرة المأمور وقال:

ـ ادخل يا عم عثمان.

دخـل ذو الجلبـاب الأبيـض، ليُقـر بـأنَّ «حسـين بـك» وصـل البيـت الثانيـة عـشرة مسـاء وصعـد إلى غرفتـه في البيـت ولـم يهبـط منهـا إلا في السادسـة صباحًـا موعـد تريُضـه.

نظـر المأمـور بتشـكك إلى «حسـين» المُصمـت مـن التعبـيرات كلـوح ثلـج، وسـأله:

ـ أين والدك؟

ـ في أسوان. في مهمة عمل.

واصل المأمور تدخينه الشره ثُم قال:

ــ أبلغـه سـلامي وتحيـاتي. ولا تعبـث في الشـوارع ليـلًا حـتى لا تُثـير الشـبهات.

ثُم بحزم:

ــ انصرف.

بعـد عودتهما،عـرف «حسـين» مـن «سـعيد» أنَّـه لا توجـد أي تُهـم واضحـة تـم توجيهها إلى مدحـت وسـيد ومحجـوب، وأنَّـه تـم الإفـراج عنهـم عندمـا ذهـب عُمـر أبـو يعـلى لهـم بعـد أن اتصـل بشـقيقه الضابـط ليتدخـل مؤكـدًا أنهـم طلبـة مجتهـدون، وينتمـون لعائـلات محترمـة، وسـأل سـعيد عـن أخبـار ضحايـا الأمـس، فأجـاب:

ــ الضابـط الإنجليـزي الـذي ضربتـه أنـت اسـمه هتـش ونقلـوه إلى قـصر العيـني وحالتـه خطـيرة جـدًا، أمـا الجنديـان اللـذان ضربهمـا محمـود مـراد في شُـبرا فـلا توجـد بشـأنهما أي معلومـات ولا توجـد أنبـاء عـن تعـرض أحـد لاعتـداءات.

ــ هل تعتقد أنه يخدعنا؟

سأل «حسين»، فأجابه شقيقه وكأنه ينتظر السؤال:

ــ لا يـا حسـين. أعتقـد أنَّـه أطلـق الرصـاص في الهـواء كمـا يفعـل كُل مـرة ثُـم جـرى.

وقف «سعيد» فجأة كمن تذكر شيئًا ثُم قال:

ــ الغريـب يـا أخـي أن هنـاك جنديـين إنجليزيـين قُتـلا في صحـراء العباسـية قبـل يومـين.

ــ وما الغريب في ذلك؟

سأل «حسين»، فأجاب «سعيد» بسؤال:

ــ مَن قتلهما؟

ابتسم «حسين» وأراح ظهره على المقعد مُسترخيًا، وقال:

ـــ هُنـاك جمعيـات عديـدة مثلنـا، وهُنـاك شـباب وطـني آخـر يعمـل بجـد وفدائيـة في مقاومـة الإنجلـيز.

ثُم قام مُتمشيًا في الغرفة قبل أن يسأل:

ـ هل سمعت عن الحاج محمد؟

هـزَّ «سـعيد» رأسـه بالنفـي، فأخـرج شـقيقه سـيجارة أشـعلها بسرعـة، وقـال:

ـــ واحـد مـن الأبطـال السريـين، اسـمه محمـد أنـور السـادات وكان ضابطًـا بالجيـش وعمـل مـع عزيـز المـصري قبـل أن يطـرده النحـاس باشـا، وسـأقابله بعـد غـد.

عقدت الدهشة حاجبي سعيد، فسأل:

ـ كيف عرفته؟ وأين ستقابله؟

ـــ حـكى لي عنـه عمـر أبـو يعـلى، لأنَّـه صديـق شـقيقه ضابـط البوليـس. وطلبـت منـه مقابلتـه، وأخـبره، فحـدد لي موعـدا في محـل آلامريكـين بعمـاد الديـن.

وسحب نفسًا طويلًا من سيجارته وزفره قائلًا:

ـــ هـو شـخص خطـير جـدًا، ومُهـم لنـا. سنسـتغله في الحصـول عـلى أسـلحة ومعلومـات تفصيليـة عـن العـدو.

***

سـاعة كاملـة انتظـر نصفهـا قبـل الموعـد المُحـدد والنصـف الآخـر بعـده ولا أحـد بـان. الْتهمـه الملـل وافترسـته علبـة سـجائر كاملـة وهـو مُتطلـع للقـاء شـخصية أسـطورية سـمع عنهـا حكايـات مُثيرة كـم تمـنى

أن يكـون هـو بطلهـا. وحـده والصمـت وسـط مقاعـد وطـاولات خاليـة إلا مـن سـيدتين تتنـاولان إفطـارًا خفيفًـا بأحـد الأركان. تخيّـل «حسـين» جليسـه المُرتقـب رجـلًا بـلا ملامـح واضحـة، تفيـض عينـاه فزعًـا وهيبـة، ولا يطـرف لـه هُـدب، ولا يعـرف يأسًـا أو انهزامًـا.

طلـب قهـوة ثانيـة، وهـو يتطلـع إلى شـارع عمـاد الديـن حيـث تسـير عربـات وشـباب وأفنديـة لهـم ألـوان وملابـس شـتى. قلـوب مُبعـثرة، وعيـون مُتعبـة تمُـر في صخـب نهـار ربيعـي صعـب رغـم زوال خطـر الحـرب عـن القاهـرة. تذكـر أنَّ «ميمـي» هاتفتـه صباحًـا لتلومـه عـلى غيابه عنهـا أيامًـا طويلـة، ممـا اضطـره أن يعدهـا اللقـاء مسـاءً رغـم ضيـق الوقـت. قـال لنفسـه إنَّ النسـاء لا يشـغلهن في الغالـب سـوى العنـاق والقبـلات والفسـاتين وأدوات الزينـة، وإن ذكـروا غـير ذلـك. كـم ذكـرت لـه «ميمـي» أنَّهـا غاضبـة مـن تجبر الاحتـلال وخيانـات الكبـار، وأنَّهـا تـود مثلـه لـو تُسـوي بالإنجليـز وأعوانهـم أرض المحروسـة، لكـن كان باديًـا أنَّ كلامهـا لا يتجـاوز حلقهـا وأنَّهـا تقولـه لتُرضيـه. لا حُـب ولا رومانسـية في هـذا العالـم الوحـشي ومَـن لا يعيـش كقابيـل سـيحيى مُرغمًـا كهابيـل.

رشـف مـرار قهوتـه مُسـتعذبًا وهـو يُكتـب في ذهنـه مفاتيـح كُل شـخص مـن أفـراد تنظيمـه. كان يُراجـع وهـو جالـس اسـتعدادات وسـمات رفاقـه ليُعيـد اسـتخدامهم في خططـه المُسـتقبلية. فكـر أنَّ «محمـد إبراهيـم كامـل» مُخلـص لكنـه مُتأنـق ومُعتـدّ بنفسـه، أمـا «محمـود مـراد» فهـو نيتشـوي وعنيـف ومُتهـور كثـيرًا، و«سـيد» طيـب ومُخلـص وتابـع، أمـا «محجـوب» فقـوي وشـجاع و...

وانقطعت أفكاره عندما اقترب منه النادل سائلًا:

ــ أستاذ حسين؟

هزَّ رأسه بالإيجاب، فأشار سائله إلى التليفون قائلًا:

ــ تليفون لحضرتك.

قام مُندهشًا ليسمع صوتًا دافئًا وهادئًا يقول له:

ـــ حسين. أنت مُراقب. خُذ الترام إلى غمرة ثُم اهبط ستجد على اليمين قهوة بلدي اشرب فيها شايًا ثُم خُذ تاكسيًا إلى ميدان العتبة، وسر في شارع محمد علي حتى مسجد قاسيون، ولاقني هُناك بعد صلاة الظهر.

نظر حوله، وبحث عن مُراقبه دون جدوى، فدفع الحساب وسار كما أراد له مُحدّثه مُتحيرًا أي نوع من الرجال سيقابله، ذلك المُحتاط كما لم يتعلم، والماكر كما لم يتصور. صلى في المسجد خلف الإمام رغم أنَّه قليلًا ما فعلها في ظل عدم مبالاة والده بسؤاله عن الصلاة بعد أن نبت شاربه. جلس صامتًا يُفكر مَن يكون ذلك الضابط الغريب المطرود من الجيش بسبب اتصالاته مع الألمان؟ واصل الانتظار دون جدوى حتى وجد المسجد يخلو رويدًا إلا من خادمه الذي كان مُهتمًا بالنظر إليه بتركيز شديد. همَّ بالخروج بعد أن فقد الأمل في لقاء الداهية المطلوب من البوليس، وما أن وضع حذاءه خارج المسجد حتى وجد كفًا سمراء تُصافحه قائلًا:

ـ حرمًا.

سرت رعدة في جسده الفارع على غير اعتياده،عندما وجد وجهًا أسمر شاحبًا تُنيره عينان ضيقتان، وابتسامة ماكرة. تمالك اتزانه وأخمد شرر الخوف وهو يضغط على كف مُحدثه قائلًا بفرح شديد:

ـ جمعًا يا حاج محمد.

سارا معًا عبر أحد الأزقَّة المتفرعة من الشارع ليصعدا درجًا في بيت قديم فتحه «الحاج محمد»، ثُم جلسا في صالة ضيّقة خالية إلا من ثلاثة كراسي خشبية وطاولة قديمة يعلوها التراب. سأله «حسين»:

ـ هل هذا بيتك؟

ابتسم «الحاج محمد» وهزَّ رأسه قائلًا:

ـ كلها بيوت ربنا.

وابتسم قبل أن يقول:

ــ أنا أبيت كُل يوم في مكان. والأحباب كثيرون مثلك هكذا.

أخـرج «حسـين» علبـة سـجائره، فالتقـط «الحـاج محمـد» واحـدة وقـال له :

ــ تستطيع أن تُناديني باسمي، أنور.

ثُم بتبسُط مقصود:

ــ أنور السادات.

بطـل كمـا تصـوره، رائـق الضحكـة، حـكاء العينـين، قـوي التأثـير. سـأله «حسـين» في اهتمـام عمَـن كان يُراقبـه فأجـاب:

ــ رجل طيب من أصحابنا.

ــ أصحابنا؟ مَن؟

ـــ مـن البوليـس السـياسي. يوزبـاشي مُجتهـد اسـمه محمـد إبراهيـم إمـام.

استغرب «حسين»، وقال باستهجان مُقطعًا حروفه:

ــ مُ ج ت هـ د؟!

هزَّ «أنور السادات» رأسه قائلا:

ـــ نعـم. ألـم تسـمع عنـه؟ هـو الـذي ذهـب للقبـض عـلى المُخـرج أحمـد سـالم ليمنعـه مـن قتـل زوجتـه المُطربـة أسـمهان ونجـح في إنقاذهـا لكنـه تلقـى رصاصـة في صـدره، وأصـاب المُخـرج برصاصـة وعولجـا معًـا في نفـس المُستشـفى وكانـا حديـث الوسـط الفـني. ألا تقـرأ الصُحـف؟

هز «حسين» رأسه نافيًا ثُم قال:

ـــ لا أهتـم. لكـن قـل لي.. مـا علاقـة ضابـط البوليـس السـياسي بمُخـرج ومطربـة؟

سحب «أنور» نفسًا طويلًا من سيجارته وقال وهو ينفثه رويدًا:

ــ المُطربة أسمهان لها اتصالات عُليا، بالمُخابرات الألمانية والإنجليزية والسراي، وهي كنز أسرار ومعلومات. وهذا الضابط ذكي ومُخلص في عمله و...

ــ مُخلص؟ إنَّه خائن.

ــ لا ليس خائنًا. قبل عامين كُنت مطلوبًا وقابلته وكُنت أرتدي الجلباب وأعمل بالمقاولات بعد أن طردتني حكومة الوفد من الجيش، وقُلت له هيا بنا إلى السجن، لكنَّه سألني: لماذا السجن؟ فقلت: لأنني مطلوب، فهزَّ رأسه قائلًا: ومَن وجدك؟ لا أحد يعرف أنني وجدتك. انطلق ولكن ابتعد عن طريقي فقد أضطر إلى اعتقالك.

ــ يااه. غريب هذا الضابط. إذن لمَ يُراقبني؟

هزَّ «أنور» رأسه وهو يقول:

ــ هذا مطلوب، لكن وقت الحسم هو لا يميل إلى الإنجليز ورجال الحُكم، وهو بالمناسبة لا يُعذّب مستجوبيه. لقد بعثت له وردًا عندما أصابته رصاصة أحمد سالم. تصور جرأته، لقد ذهب للرجل في بيته، وقال إنَّه موفد لمنع جريمة قتل المطربة، فأخرج المُخرج مسدسه وأقسم أن يقتلها أمامه فقفز ليتلقى الرصاصة في صدره، ثُم أطلق رصاصة على «أحمد سالم» أفقدته الوعي ودخل معه نفس المُستشفى فأصرَّ أن يعالج الأطباء المُخرج قبله.

ــ مثال غريب.

ابتسم «أنور» وقام ليُعد شايا، لم يلبثا أن رشفاه معًا وهُما يتحدثان عن مصر وحالها في ظل الحرب وحكومات العار القابضة على الحُكم خدمة للاحتلال. وحكى «حسين» لـ«أنور» عن مغامراته وعملياته الفدائية طيلة السنوات الخمس الماضية، لكنَّه شعر بالضآلة عندما قال له «أنور» إنَّ هناك مجموعات كثيرة تقوم بنفس

العمـل.

ــ ما العمل إذن؟

سأل «حسين» كتلميذ، فأجيب:

ــ أعتقـد أنـك ومَـن معـك تقومـون بعمـل عظيـم، لكنَّـه غـير مجـدٍ. مـا الفائـدة مـن قتـل عسـكري إنجلـيزي؟ مـا الفائـدة مـن قتـل ضابـط؟ اثنـين؟ ثلاثـة؟ لا شيء. لـن تُخـرج هـذه الأعمـال الاحتـلال. المُصيبـة في أعـوان الإنجلـيز، خدمهـم مـن المصريـين، هُـم الأخطـر عـلى البلـد.

ــ خونة.

ــ بالطبـع. هُـم كذلـك. لا تهمهـم سـوى مصالحهـم الشـخصية. لـذا فـإنَّ قتـل واحـد منهـم يسـاوي قتـل ألـف جنـدي إنجلـيزي.

ــ يااه ألف. لكن مثل مَن.. صدقي والنقراشي وماهر؟

ــ هـؤلاء أضعفهـم. انظـر للـرأس الكبـير. النحـاس باشـا. ذلـك السـاحر العجـوز. درويـش النـاس وأفيونهـم، بحزبـه وأنصـاره ومُحبيـه هـو الأخطـر وهـو الأولى بالقتـل.

فكّر «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

ــ هـو سـاحر فعـلًا. معـك حـق. لقـد سـمعته يخطـب مـرة وكـدت أصدقـه وأهتـف لـه حـتى عرفـت مـن والـدي كيـف تحالـف مـع الإنجلـيز ليأتـوا بـه حاكمًـا في ظـل دباباتهـم.

ابتسم «أنور» وهو يقول:

ــ لـو فكرتـم في عمـل وطـني كبـير عليكـم أن تبـدأوا بـه. انتظـروا حـتى يقيلـه الملـك وأعتقـد أنَّ ذلـك سـيكون قريبًـا، ووقتهـا يُمكـن التخلُـص منـه وإنقـاذ البلـد مـن ديكتاتوريـة الوفـد.

ــ ديكتاتورية؟

ــ نعـم. ديكتاتوريـة الزعامـة الـتي تدّعـي امتلاكهـا للقيـم والمبـادئ والأخـلاق.

مصمص «حسين» شفتيه وقال له:

ـ هل تعرف عزيز المصري؟

ـ بالطبع إنَّه مُعلمي وأستاذي وأستاذ جميع الثائرين. أنا أعرف كُل مَن يُناضل، لذا فقد وافقت على التعرف بك. أنا أشم رائحة البطولة. اسمع، سأساعدكم بالمعلومات والسلاح الذي تحتاجونه، لكن توقفوا عن اصطياد الإنجليز. لو خرج الإنجليز من مصر لأكلها الباشاوات وبلغاء الخُطب في كروشهم.

وقام «السادات»، وهو يقول:

ـ والآن انزل. وسأتبعك بعد عشر دقائق. سأدلك على مخبئين للأسلحة في المُقطم. وعندما تسنح الفرصة، ستتوجه إلى هُناك لتأخذ ما تحتاج.

انبهر «حسين» بذلك التخطيط وشعر بالغبطة وهو يُعانق أنور الذي بدا مسرورًا وهو يودع تلميذًا جديدًا.

على أول الزقاق كان أفيش فيلم «تحيا الستات» لأنور وجدى ومديحة يسري وميمي شكيب يحتل عمود الإنارة العمومي، وأمامه كُتب بطبشور صغير على الحائط المقابل «الموت للاحتلال».

***

استطاع «حسين» اكتساب ثقة واحترام جميع زُملائه بعد تسويته لأزمة عاصفة كادت أن تودي بالتنظيم كُله. في يوم ما دخل محمود يحيى مُراد اجتماع التنظيم وبيده مُسدس ليُقسم أمام الجميع بأنه سيقتل نجيب، ران التوتر والقلق على وجوه الحاضرين خاصة «مدحت» الذي توقع أي تصرُف من شقيقه الأكبر، إلا ارتكاب ما يستحق معه الموت. كان «حسين» هادئًا كعادته وبدأ في امتصاص

غضب «محمود» ببُطء، مُقررًا أنه يُقدّر غضبه ووطنيته وإخلاصه ويعرف جيدًا أنَّه أكثر نفعًا للتنظيم الفدائي من ابن خالته نجيب، الذي لا يشاركهم سوى في الكلام وتقديم المشورة، ثُم أكد له أنَّه على استعداد لمعاقبة «نجيب» حال ارتكابه أي خطأ يُعرّض المجموعة للخطر، لكن من الضروري توضيح الأمر برمته لجميع الزملاء. وتعهد حسين بحل المشكلة تماما بعد أن أخذ المُسدس من «محمود»، فطلب من عم «عثمان الجنايني» الاتصال ب»نجيب» ودعوته للقدوم بسرعة شديدة. وبعد دقائق من التدخين والنقاش الساخر خمدت همة «محمود» للقتل وتحوّل غضبه لبوح حزين كشف فيه أنَّ «نجيب» على علاقة عاطفية بشقيقته وأنَّه علم بذهابهما معًا إلى السينما قبل يومين.

دخل «نجيب» ليتلقى توبيخًا مُستحقا من ابن خالته وليُقرر بعفوية أنَّه يُحب شقيقة «محمود» بصدق ويريد الزواج منها، لكنَّه تراجع أمام شتائم وتهديدات مُتكررة من«محمود»، قبل أن يتدخل حسين مُهدئًا وطالبًا من الجميع ترك جميع الصغائر والتركيز على تطوير أعمال التنظيم ونقلها إلى مُحيط الساسة المصريين المُرتبطين بالإنجليز.

كرر «حسين» ما قاله «أنور السادات» له من أنَّ قتل سياسي مصري مُتعاون مع الإنجليز يُعادل قتل ألف جندي إنجليزي. وفاجأ القائد غير المُنتخب للتنظيم الأعضاء بضرورة البدء بالنحاس باشا، وهو ما أثار علامات الدهشة عند معظم الأفراد.

قال «نجيب» بتحفز:

ـ تقتل زعيمًا يُحبه الناس ويشهدون له بالنزاهة والوطنية؟

وردّ «محمود» بغضب:

ـ بل خائن ومُدع يخدع الناس بمعسول الكلام. ويكفي أنَّه تحالف مع العدو ضد الملك ليُصبح رئيسًا للحكومة.

فقال «نجيب»:

ـ لكن الناس تحبُه و...

ورد «محمود» مُقاطعًا:

ــ تبًا للناس. لن تولد هذه الجماعة ويُصبح لها تأثير حقيقي بغير دماء.

وقال «محمد إبراهيم كامل» بعد أن رمق المُسدس الذي يحمله «حسين» بوله:

ــ مُتفق تمامًا مع حسين ومحمود. قتل النحاس باشا ضرورة. هو السبب في خلود الناس إلى الدِعة مُنتظرين نتائج مفاوضات لا تتم أبدًا. إنَّه مُخادع كبير. ثُم مَن قال إن حُب الناس شفيع له. ألم تروا ما جرى للنادي الأهلى على يد المُختلط.

ضحكوا على المثال، فقال «مدحت»:

ــ لقد انهزم 6 / صفر. زُقلط أحرز وحده ثلاثة أهداف، ومحسن حلمي هدفين.

بدوا غير مُهتمين كعادتهم بأحاديث الكُرة، عندما وقف حسين مُلقيًا نظرة استفسار عن آراء سيد، ومدحت، وسعيد، ومحجوب، والشافعي، وعُمر، وخليفة، فتكررت إجابات الموافقة على اغتيال النحاس بهز الرأس إلى أن قال محجوب:

ــ إنني مثلكم أعتقد أن قتل النحاس ضرورة، لكن ينبغي أيضًا قتل النقراشي وماهر وصدقي وهيكل.

قال «محمود»:

ــ معك حق. علينا أن نُقرر أنَّ النحاس هو ضحيتنا الأولى، ثُم سنقتل بعده ماهر. ذلك المتلون الذي خان تاريخه كمناضل ومقاتل ضد الإنجليز ليتحالف معهم.

رمقه «محمد إبراهيم» بنظرة استهجان قائلًا:

ـ هـل صدقـت مـا ردده بأنَّـه كان مُشرفًـا عـلى الجهـاز الـسري لثـورة 1919؟ كُلهـا دعايـات كاذبـة. إنَّهـم يتاجـرون بـكل شيء. الأبطـال الحقيقيـون هُـم شـفيق منصـور وآل عنايـت ومَـن أعدمـوا معهـم سـنة 25.

مـشى «حسـين» بهـدوء واضعًـا يديـه في وسـطه، ليـدور حـول أفـراد المجموعـة الجالسـين ثُـم قـال:

ـ إذن علينـا أولًا أن نُنـشئ جهـازًا للمعلومـات لجمـع المعلومـات عـن الخونـة واحـدًا واحـدًا. نريـد كُل شيء. عناوينهـم، جداولهـم اليوميـة، عاداتهـم، خطـوط سـيرهم، رجالهـم، وأنظمـة الحراسـة الـتي يسـتخدمونها. أقـترح تكليـف محمـد إبراهيـم كامـل بإنشـاء جهـاز المعلومـات، وأقـترح إنشـاء جهـاز معاونـة آخـر يضـم تنظيمًـا مـن الشـباب الصغـير يترأسـه مدحـت.

ـ لماذا؟

سأل «محمود»، فأجاب «حسين»:

ـ سـيكون هـذا التنظيـم مسـئولًا عـن اسـتكمال أعمالنـا حـال سـقوط تنظيمنـا. سـنُطلق عليـه تنظيـم الكتاكيـت.

ضحكوا، عندما أطلق مدحت شخرة احتجاج على الاسم.

في المسـاء حـدَّث حسـين صاحبتـه عـن تطـور نظـام جماعتـه، ووعدهـا أن تسـمع عنهـا قريبًـا بعـد أن تُقـدم عـلى أفعـال لا يتوقعهـا أحـد. كانـت مُتوتـرة قليـلًا عندمـا أخبرتـه أنهـا خُطبـت. هبـط عليـه النبـأ كصاعقـة، ولاحـظ دموعًـا تترقـرق في عينيهـا وهـي تُكـرر:

ـ أنا أحبك. أحبك.

سألها بعد أن رشف كوبًا من البيرة الباردة:

ـ مَن يا ميمي؟

مسحت دمعة مُنحدرة على خدّها وقالت:

ـ يوزباشي في البوليس.

ـ البوليس؟

ـ نعم البوليس السياسي.

ـ اللعنة.

قالهـا مُغتمًـا، لا عـلى فـراق رفيقتـه الحسـناء، ولكـن عـلى اقترانهـا بضابـط بوليـس، بـل وبوليـس سـياسي. كان يعتقـد أنَّ كُل رجـال الأمـن خصـومٌ لـه، وجميـع المُخبريـن خـدمٌ لأهـل السُـلطة والنفـوذ. قـال إنَّ ملعـب المُبـاراة لا يسـمح بتواجدهمـا معًـا، ولـو قُـدر لـه اقتـلاع أرواحهـم سـيفعل دون تـردد.

ودعهـا غـير مكـترثٍ بدموعهـا ليسـمع وهـو عائـد إلى البيـت بائـع الصُحـف يُنـادي عـلى جريـدة الأهـرام قائـلًا:

ـ اقرأ الحادثة. اقرأ الحادثة. مصرع أسمهان.

نـاول البائـع قرشًـا وقـرأ بالبنـط الأحمـر «مـصرع المطربـة أسـمهان بعـد سـقوط سـيارتها في النيـل. السـائق قفـز مـن السـيارة قبـل غرقهـا».

وتذكـر مـا قالـه «السـادات» لـه بـأن «أسـمهان» ليسـت مُجـرد مُطربـة. وقـال لنفسـه: لابـد أن المخابـرات البريطانيـة قتلتهـا أو رُبمـا الألمانيـة، أو آخـرون. القتـل هـو نهايـة المُنخرطـين في الأعمـال الخطـرة. سـيكون مصـيرك يومًـا. لكـن لا شيء يهـم. إنَّـه مـوتٌ جميـل.

***

«الفرصـة سـانحة». قالهـا «أنـور السـادات» لحسـين توفيـق في لقـاء سريـع جمعهمـا في شـقة عمـر أبـو يعـلى. كان الملـك فـاروق قـد أقـال حكومـة الوفـد مُسـتغلًا سـفر السـفير «مايلـز لامبسـون» إلى الخـارج، بعـد أن سـعى القـصر عـبر رجالـه إلى تشـويه «النحـاس باشـا» اعتمـادا

على اتهامات بالفساد أعدَّها «مكرم باشا عبيد» سكرتير الوفد السابق ونشرها في كتاب قُدم إلى السراي بعنوان «الكتاب الأسود». كان رأي «السادات» أن أطقم الحراسة المفروضة حول الرجل زالت ولم يبق سوى حارس شخصي واحد يُسهل التعامل معه.

قال «السادات» وقتها:

ــ الأسد العجوز بلا مخالب.

وردّ «حسين» بأنَّه ومجموعته جاهزون للتنفيذ، خاصة بعد تلميحات باح بها السادات بأنَّ هناك مجموعات وطنية أخرى على استعداد للقيام بتلك البطولة حال تقاعس رجاله. كان «حسين» يتصور أنَّ المجموعة التي ستحقق السبق في صيد روح الرجل ستكون مؤهلة للعب دور قيادي في النظام الجديد الذي سيحكم بعد خروج الاحتلال، واعتبر «السادات» هو حلقة الوصل بين تنظيمه وبين قيادات الثورة القادمة.

في بضعة أيام جمع التنظيم بيانات تفصيلية حول الجدول اليومي للضحية، عاداته، زواره، وموقع سكنه، وتحركاته، واكتشفوا صعوبة الوصول له إلا يوم الجمعة، والذي يزور فيه ضريح الحُسين للصلاة، وقرروا قتله خلال ذلك اليوم رغم تحذير «نجيب» لهم بأن تنفيذ الاغتيال خلال الصلاة سيُزيد من شعبية الرجل ويحوّله إلى شهيد أمام الناس.

في أحد صباحات الجُمعة تطوَّع «محمد إبراهيم كامل» و«عُمر أبو يعلى» و«محجوب» بالاختباء وسط المُصلين تمهيدا لانتهاز فرصة خروجه مع الناس عقب الصلاة وإطلاق الرصاص عليه، لكنَّهم فشلوا بسبب الزحام الشديد حول الرجل واحتضان البعض له مما جعله هدفًا صعبًا، مُتذكرين الواقعة الشهيرة لمحاولة قتله في المنصورة قبل أكثر من عشر سنوات والتي فشلت بعد تلقي سينوت حنا طعنة أحد القتلة بدلًا منه.

في مـرة أخـرى كمـن «حسـين» فى أحـد أركان المسـجد مُنتظـرًا قـدوم النحـاس ومعـه مسـدس أتوماتيـكي سريـع الطلقـات منحـه إيَّـاه «السـادات»، لكنَّـه اكتشـف فجـأة خلـو المسـدس مـن الرصاص، وتذكـر أنَّـه نـسي مـلء خزانتـه قبـل التحـرك. وفي مـرة ثالثـة انتظـره هـو و«محمد خليفـة» و«كريـم القنـاوي» ومعهـم عـدة مُسدسـات وقنابـل يدويـة، لكنَّـه لـم يـأت في ذلـك اليـوم، لتنـشر الصحـف بعـد ذلـك أنَّ الرجـل مصـاب بنزلـة بـرد حـادة.

واعتـبر «محمـود مُـراد» إخفاقهـم في قتـل الرجـل بمثابـة لعنـة لا يُمكـن الخـلاص منهـا، واقـترح تحويـل المسـار بشـكل مؤقـت إلى أحمـد باشـا ماهـر الـذي صـار رئيسًـا للـوزراء وحليفًـا شرعيًـا للإنجليـز، لكـن «حسـين» اعـترض مُكـررًا أنَّ إخفاقهـم في قتـل شـخص مـا لا يجـب أن يدفعهـم إلى تركـه واختيـار بديـل لـه، وقـال لهـم إن عليهـم المحاولـة مـرة واثنتـين وثلاثًـا.

وعـاد «حسـين» لـ«السـادات» ليُخـبره بصعوبـة قتـل النحـاس لأنَّـه في الغالـب مُحـاط بعـشرات الأشـخاص، وأنَّـه محـدود الحركـة ولا يـكاد يُغـادر بيتـه لأيـام طويلـة. وسـأله إن كان مـن الممكـن قتـل أحمـد ماهـر باشـا بـدلًا منـه، فأشـاح عنـه السـادات بوجهـه وقـال:

ــ إن الرصاصـة الواحـدة فيـه حـرام. ماهـر؟ مَـن يُمثـل؟ لا شيء. دعـك مـن أحـزاب الأقليـة جميعـا، وفكـر في المُتحكمـين في الشـعب.

كان الامتعـاض باديًـا عـلى وجـه «السـادات» كُلمـا ذكـر اسـم «النحـاس» أمامـه ويبـدو أنَّـه لـم يكـن قـادرًا أن ينـسى للرجـل أنَّـه طـرده مـن الجيـش وحوَّلـه إلى شريـد بـلا عمـل. وفكـر «السـادات» قليـلًا قبـل أن يخـبر «حسـين» أنَّـه مـن الممكـن قتـل رجـال حـول «النحـاس باشـا»، ثُـم يجـرى بعـد ذلـك تفجـير الجنـازة خـلال مشـاركته فيهـا. وأعجبـت الفكـرة «حسـين»، فنقلهـا إلى زملائـه الذيـن بـدأوا التفكـير بشـكل جـدي في المُقربـين مـن «النحـاس باشـا»، فاختـاروا في البدايـة «فـؤاد سراج

الديـن»، ثُـم اسـتبعدوه لأنَّـه يسـتعين بُحراسـة قويـة، ثُـم فكـروا في أحـد أشـقاء حـرم «النحـاس»، لكنَّهـم عـادوا واعتـبروا ذلـك بعيـدًا عـن المـروءة والنبـل خاصـة أنَّهـم جميعًـا ليـس لهـم أي توجهـات سياسـية، وأخـيرًا أخبرهـم «السـادات» أنَّ «أمـين باشـا عُثمـان» هـو الأنسـب لهـذه العمليـة خاصـة أنَّـه لعـب دورًا معروفًـا في الوسـاطة بـين «النحـاس» والإنجليـز، وهـو مـن خـدم التـاج البريطـاني حيـث تعلـم هُنـاك، وتـزوج إنجليزيـة، واعتـبر الاحتـلال البريطـاني رفعـة وتقدمـا، وأنَّـه يجاهـر بخيانتـه دون حيـاء.

وجلـس ثلاثـة عـشر شـابًا في حديقـة مـنزل توفيـق بـك بالمعـادي يصوتـون عـلى قتـل «أمـين عثمـان» كمقدمـة لقتـل «النحـاس»، لكنَّهـم اختلفـوا مـرة أخـرى بسـبب إصرار «محمـود مـراد» عـلى رأيـه في أنَّ قتـل «أحمـد ماهـر باشـا»هو الأولى في الوقـت الحـالي باعتبـاره رئيـس الـوزراء الموجـود في الحكـم، وأنَّ «النحـاس» بعـد خروجـه مـن الـوزارة صـار مُثيرًا للشـفقة. وتمثّـل لهـم «محمـود» بمقولـة للفيلسـوف نيتشـه تقـول: «مـن كان يحيـا بمحاربـة عـدو مـا، تصبـح لـه مصلحـة في الإبقـاء عـلى هـذا العـدو حيًـا».

وشـعر «حسـين» بالتـبرُم مـن اعتراضـات «محمـود» المتكـررة، وانتظـر ذهابـه إلى الحمـام ليقـول لزملائـه في حـزم:

ـــ لا عليكـم باندفاعـات محمـود، هـو يتحامـق كثـيرًا. سـنقتل النحـاس باشـا لا محالـة، وسـنقتل أمـين عثمـان. لا تغيـير بـدون دمـاء. اسـتعدوا. يجـب أن تكـون لدينـا معلومـات تفصيليـة عـن أمـين عُثمـان.

فهزوا رؤوسهم موافقين.

***

راجعـت يمنـاه رابطـة عُنقـه الـتي كادت تخنُقـه، وهـو يسـتعد للخـروج مـن قاعـة البهـو الفرعـوني لمبـنى البرلمـان مُتذكـرًا أنَّـه حقـق نصـف مـا يريـد بانتصـاره عـلى خصمـه اللـدود. بـدا ثقيـلًا وهـو يُصافـح بعـض النـواب في طريقـه نحـو سـيارته بالخـارج لتقلّـه إلى بيتـه بعـد أن أعلـن رسميًا أنَّ مصلحـة مـصر ستتحقق بدخولهـا الحـرب العالميـة الثانيـة إلى جانـب بريطانيـا. بوجـه عريـض مُنفـرج الشـفتين، وشـارب كـث يتناسـب مـع سـمنته المفرطـة قابـل «أحمـد باشـا ماهـر» زمـلاءه وهُـم يُهنئونـه عـلى قـراره النابـه بعـد تأكـد انتصـار الحلفـاء في الحـرب لتصبـح مُشـاركة مـصر مُجـرد تحصيـل حاصـل ومقاسـمة في الغنائـم. قـال لنفسـه إنَّـه اسـتطاع النيـل مـن غريمـه «مصطفـى النحـاس» الـذي سـبق أن أضـاع فرصتـه في تـولى الحكومـة قبـل ثـلاث سـنوات عندمـا تدخلـت دبابـات الإنجلـيز لتـأتي بـه رئيسًـا رغـم أنـف الملـك.

«السياسي هـو مَـن يتحـول مـن اليمـين إلى اليسـار بفطنـة ثعلـب وسرعة أرنـب، السـياسي هـو الباحـث عـن إجابـات متعـددة لأسـئلة صعبـة، وهـو القابـل للحلـول الوسـطى، والـراضي بالأمـر وعكسـه، واللامُحـب والـلاكاره لأحـد أو أمـر». ردَّدهـا داخلـه وهـو يسـتعيد لقـاءه الأول قبـل ثلاثـة عقـود مـع سـعد باشـا زغلـول عقـب عودتـه مـن دراسـة القانـون في باريـس وإحساسـه بـأن الأيـام تُخـبئ لهـذا الرجـل أدوارًا تاريخيـة عظيمة، واتفاقـه مـع صديقـه المُقرّب «محمـود فهمـي النقـراشي» عـلى الانخـراط في العمـل المسـلح لدعـم «سـعد زغلـول».

طافـت برأسـه مشـاهد نقـل الأسـلحة للفدائيـين، وتجهـيز القنابـل للجهـاز السـري، وتوفـير السـلاح للقائمـين بالاغتيـالات، ثُـم القبـض عليهمـا مـن قبـل الإنجلـيز واتهامهمـا بالإرهـاب، ومحاولـة لـف حبـل المشـنقة حـول رقبـة كُلٍ منهمـا. يومهـا تفـرغ المُحامـى الكُفـء «مصطفـى النحـاس» للدفـاع عنهمـا وحشـد كُل الأدلـة لتبرئتهمـا في قضيـة شـغلت الـرأى العـام. تسـاءل «ماهـر باشـا» عـن مصـيره لـو لـم يحصـل لـه

«النحــاس» عــلى الــبراءة، وشــعر أنــه مديــن للرجــل رغــم خلافتهمــا بالكثـير. ضبـط «أحمـد ماهـر» طربوشـه وهـو يخطـو في ثقـة مُتذكـرًا يـوم اجتمـاع الهيئـة الوفديـة لاختيـار خليفـة لـ«سـعد باشـا» وكيـف وقـف هـو و«النقـراشي» إلى جـوار «النحـاس» في منافسـة «فتـح اللـه بـركات»، لكنَّـه شـعر بجفـاء شـديد مـع تقريـب «النحـاس» لــ «مكـرم باشـا»، ثُـم جعلـه الرجـل الثـاني في الوفـد. حـدّث نفسـه بـأنَّ النحـاس هـو الذي دفعـه دفعًا للخـروج مـن بيـت الأمـة ليؤسـس مـع «النقـراشي» حـزب السـعديين. الوفـد هـو الوفـد. ردَّدهـا وهـو يواجـه هـواء السـاحة مُتنفسًـا بصعوبـة معتـادة نتيجـة سـمنته المُفرطـة، واسـترجع سـنوات الفدائيـة والعمـل الــسري، وتغيـير ملابسـه عـدة مـرات في اليـوم للإفـلات مـن عيـون المُخبريـن، والسـفر لبنهـا بتذاكـر القاهـرة الإسـكندرية لخـداع مطارديـه، وإطـلاق الرصـاص في البـارات عـلى جنـود الاحتـلال. كيـف تغـيّر بـكُل هـذه الحـدة؟ سـأل نفسـه، وأجـاب بـأنَّ الزمـن تغـيّر والأعـداء انقلبـوا حلفـاء، وصـار الرفـاق خصومًـا، وأثبتـت الأيـام أن حلـول السياسـة أنجـع مـن الرصـاص.

دقّ قلبـه بتسـارع وهـو يسـتعيد لقـاءه الأخـير مـع السـفير «مايلـز لامبسـون» عندمـا أخـبره بأنَّـه أنفـع للإنجلـيز مـن الوفـد، وأنَّـه لا يهمـه في الوقـت الآني سـوى مصلحـة مـصر، وهزيمـة «النحـاس» والثـأر منـه. لمـح سيارته وحرسـه أمـام البـاب، وفكـر كيـف كان يضـع خطـط إرهـاب الــوزراء في زمـن الثـورة، مُتغلبًـا عـلى نُظـم التأمـين ومُتحديًـا كُل مَـن وقفـوا خـارج الوفـد. لقـد قـال يومهـا أن مَـن يخـرُج عـلى الوفـد يخـرج عـلى الأمـة، ومَـن يخـرج عـلى الأمـة يُعـد خائنًـا، وهـا هـي الأقـدار تدفـع بـه خـارج الوفـد، لكنَّـه ليـس خائنًـا.

تذكـر أنَّـه تلقـى قبـل مجيئـه البرلمـان رسـالة مـن مجهـول تُهدده بالقتل إن قـدم اقتراحـه بإعـلان دخـول مـصر الحـرب، لكنَّـه قـدم الرسـالة لـ«النقـراشي باشـا» المسـئول عـن وزارة الداخليـة ليُقدمهـا للبوليـس

السـياسي بهـدف البحـث عـن ذلـك المخبـول الـذي واتتـه الجـرأة أن يُهـدد دولـة رئيـس الـوزراء.

لاحـظ شـابًا طويـلًا مُهندمًـا يقـترب مُسرعًـا مـن البـاب، لتلتقـي عينـاه بعينـين عسـليتين مُتعبتـين قـرأ فيهمـا حُكـم الإعـدام. تذكر وجه عسـكري إنجلـيزي طعنـه في زحـام القاهـرة سـنة 1922 وهـو يطلـب العفـو منـه بملامـح مُنكسـرة، ودمـوع مُترجيـة. قـال إنَّـه يُفضـل المـوت صلبًا، شـامخًا كالرجـال. ودَّ لـو قـال للشـاب المواجـه بعـد أن تبـين مُسدسًـا بـين يديـه أنـه ليـس خائنًـا، وأنَّـه مثلـه يريـد مصلحـة مـصر لكنَّـه لـم يكـد ينطـق حـتى أخرسـه أزيـز رصاصـات لـم يتبـين عددهـا قبـل أن تُصيبـه لسـعات مُتفرقـة، سـمع عـلى إثرهـا صياحًـا، وشـعر بحركـة مُتسـارعة حولـه، ثُـم غـاب تمامًـا عـن الوعـى.

ـ مات؟

سـأل «توفيـق بـك» مُحدِّثـه في التليفـون، ثُـم هـز رأسـه حُزنًـا وهـو يقـول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان «حسـين» جالسًـا أمامـه في غرفـة المكتـب عندمـا سـأل والـده في فضـول عمـا جـرى، فأجابـه:

ـ قتلوا ماهر باشا.

هـزَّ «حسـين» رأسـه قلقًـا وقـال في سره «محمـود الوغـد. سـيقضي علينـا جميعًـا»، واسـتأذن والـده بدعـوى أن لديـه موعـدًا مـع أصدقائـه، وخـرج مُسرعًـا لتنفيـذ خطـة مواجهـة الخطـر. الاختفـاء ضرورة حـتى يسـتبين موقـف «محمـود». قالهـا لنفسـه في الطريـق إلى بيـت عُمـر، قبـل أن يسـمع صوتـه مناديًـا في الشـارع. أدار وجهـه وفوجـئ بـ«محمـد إبراهيـم كامـل» معـه، فبـادراه بالخـبر وقـالا إنَّ القاتـل ليـس «محمـود يحـيى مـراد»، وإنمـا هـو شـاب وطـني آخـر اسـمه «محمـود العيسـوي» يعمـل مُحاميًـا بمكتـب عبدالرحمـن الرافعـي.

انحسر القلق تدريجيًا من وجه حسين، واستعاد هدوءه رويدًا، وفكر كثيرًا ثُم قال:

ــ يبدو أنَّ ما قاله لي أنور السادات صحيح مائة في المائة، هناك جماعات عديدة تفعل ما نفعل، وتُجاهد مثلنا وتُفجر، وتطارد الخونة، وإن لم نتحرك وندخل أرض المعركة، فإننا سنكون خارج أي حسابات فيما بعد.

***

كقالب سكر ذاب، واختفى عن الأنظار. لم يذهب «محمود يحي مُراد» اللقاء الأسبوعي للتنظيم في حديقة منزل «توفيق بك». اتصل به «حسين» عدة مرات ووجد التليفون مُعطلًا، وسأل «عُمر» عنه في الكلية فلم يجد جوابًا، وشعر «حسين» بالقلق، فسحبته قدماه نحو منزل «محمود» في حدائق القُبة، وطرق الباب، لينفتح على وجه بشوش مُنير لفتاة غرست فيه البراءة أعلامًا وشارات. تذكر أنَّه لم يرها مُذ كانت طفلة، ثُم دار بخاطره غضب «محمود» من اكتشافه علاقتها بـ«نجيب» ابن خالته. سأل نفسه كيف يُمكن أن يفلت هذا الجمال من بين يديه ويذهب إلى المناضل المُتفرج الذي لم يطلق يومًا رصاصة، ولم يخاطر بنفسه، ولو للحظة. لو كانت على علاقة بأي من أفراد المجموعة لما استكثر، ولا اندهش، لكن أن يفوز بها «نجيب» مذوق الكلام، ومُدّعي الثقافة، فلابد أن يغضب. عيناها صافيتان كبحيرتي سُكر، وأنفها يُشابه أنف محمود، لكنَّه أقل بروزًا، وابتسامتها تُنبئ عن رقة مُتناهية وأنوثة طاغية، وذلك الشعر الساحر المُنسكب خلف جيدها يؤكد أن الجمال اختار موطنًا له في شقة بسيطة بحدائق القبة.

رحلت «ميمي»، تركته، لا يهم، إلى الزواج، إلى العريس الجاهز،

ضابـط البوليـس السـياسي، الخـادم للخونـة، إلى الجحيـم، ولا أسـف، فقـد اختـارت، وصـار مـن الـلازم اختيـار امـرأة أجمـل وأنضـج وأكـثر قـدرة عـلى اسـتيعاب أعمالـه الوطنيـة، وليـس أنسـب مـن هـذا القمـر المُتـلألئ الفتـان، ويكفـي أنَّهـا ابنـة عمتـه الراحلـة مُنـذ سـنوات، وشـقيقة «محمـود» زميلـه في الكفـاح والنضـال ضـد الإنجلـيز والخونـة. لاحظـت صمتـه فبـدرت منهـا ابتسـامة نقيـة أطلـت عـلى اسـتحياء مـن خلـف بـاب مـوارب، وسـألت في فراسـة:

ــ أنت حسين؟ أليس كذلك؟ ابن خالي توفيق؟

هـزَّ رأسـه كمَـن يُحـيي الجماهـير، مُقـررًا في سره أنهـا أجمـل مـن «ميمي» مائـة مـرة. قالت:

ــ لم أرك مُنذ سنوات طويلة، لكن لم تتغير كثيرًا.

هـزَّ رأسـه مـرة أخـرى، وهـو يفكـر إن كان كلامهـا إعجابًـا أم نفـورًا، ثُـم سـأل وعينـاه تلتهمـان جمالهـا:

ــ سناء؟

ــ نعم. عظيم أنك تعرف اسم بنت عمتك التي لم تزرها.

حدّق في وجهها أسفًا قبل أن يسأل:

ــ محمود هُنا؟

هزَّت رأسها نافية، فواصل:

ــ أين أجده؟

كـررت هـز الـرأس وران عـلى وجههـا بعـض الضيـق، وشـعر «حسـين» بأنَّهـا تكـذب عندمـا اشـتم رائحـة دُخـان سـجائر مخنـوق يتـسرب عـبر البـاب. ركـز نظـره عـلى عينيهـا مُخترقًـا ومُسـيطرًا قبـل أن يكـرر سـؤاله:

ــ هل أنتِ متأكدة أنَّ محمود غير موجود؟

قرأ ارتباكها، فكرر:

ـ سناء. أرجوكِ. أخبريه أننى أريده لأمر مهم. سأنتظر هُنا.

انسحبت للداخل بجذبة ذراع مُستترة، بينما أطل وجه «محمود» مُكفهرًا، ليبدو بلحيته النابتة مُنزرعًا في البيت لعدة أيام. دعاه للدخول، بينما غابت شقيقته في إحدى الغرف، وتبعه نحو غرفته المُختنقة بدخان السجائر.

ـ مالك؟

سأله «حسين» في برود، فأجاب:

ـ قتلوا أحمد ماهر.

مصمص «حسين» شفتيه، وضرب كفًا بأخرى وسأله:

ـ ألم تكن تتمنى ذلك؟

ثُم بنبرة تهكم:

ـ هل أنت حزين على الباشا؟

أشعل «محمود» سيجارة جديدة، وقال بحزن حقيقي:

ـ كُنت أتمنى أن أكون قاتله بدلًا من العيسوي. كُنت أكرهه بصدق، أشعر أنَّه النموذج الأمثل للخيانة، والانصياع للسلطة. إنني أحسد المحامي القاتل على ما ناله من شرف، مُنذ عرفت بالحادث وأنا أشعر بالتقصير والبطء في اتخاذ القرار. إننا كثيرو الكلام قليلو الفعل، نُفكر، ونُخطط، ونُدبر، ولا نتحرك. لذا يصدق فينا قول نيتشه «في صدورهم ثورة البغضاء، وعلى شفاههم بسمة الثلج».

ـ هات سيجارة.

ابتسم «حسين» ثُم مدَّ يده مُلتقطًا سيجارة وأشعلها بقداحته وقال:

ـ الفرص لا تنتهي. والخونة أكثر مما تتخيل. قُتل أحدهم خير، ولكن أمامنا غيره.

ــ لكـني أتحـسر كُلمـا رأيـت صـور محمـود العيسـوي مُبتسـمًا عـلى صفحـات الجرائـد، ومُصرحًـا للصحـف بـأنَّ التاريـخ سـيتكلم عنـه وسـينصفه. سـبقنا للمجـد.

ابتسـم حسـين مُسـتعذبًا حمـاس محمـود وإخلاصـه وتذكـر عيـني شـقيقته، مُقـررًا أنَّـه سـيتزوجها يومًـا مـا، وقـال:

ــ استعد يـا بطـل. يجـب أن نتحـرك. الهـدف مُتـاح، والتوقيـت مثـالي، ولابـد أن نستغل حالـة الغضـب العـام، واضطـراب البوليـس بحثًـا عـن شركاء العيسـوي في تنفيـذ عمليـة مباغتـة تُربـك البلـد وتُهيئـه لثـورة عارمة.

ــ فيم تُفكر؟!

سـأل «محمـود»، فـرد «حسـين» بسـؤال يؤكـد حنكتـه واسـتحقاقه مقعـد القيـادة:

ــ فيم تُفكر أنت؟

فكر «محمود» قليلًا ثُم قال:

ــ في النحاس باشا.

ــ أمين عُثمان أولًا. لقد اتفقنا على ذلك.

احمرت عينا «محمود» وزفر دُخان سيجارته قائلًا:

ــ اقتلوا أنتم أمين عثمان وسأقتل أنا النحاس.

سـكت «حسـين» لحظـات كمَـن يبحـث عـن رد منطقـي، وهـو يُدخـن بعصبيـة، وقـال:

ــ يـا محمـود. مـصر تريدنـا أن نعمـل معًـا. لقـد حاولنـا قتـل النحـاس عـدة مـرات مـن قبـل، وكان ذلـك صعبًـا للغايـة، فقررنـا اختيـار أمـين عثمـان لأنـه هـدف أسـهل. أمـا لـو كان لديـك خطـة جديـدة لقطـف روح النحـاس، فقُـل ونحـن معـك.

وأضاف:

ـ نحنُ جماعة يا محمود.

ثُم قام وهو يربُت على كتف صاحبه، مُتمنيًا أن يرى وجه الجميلة التي فتحت له الباب، لكن أمله خاب، فغادر راضيًا.

***

كان قلق «توفيق بك أحمد» على ابنه يتعاظم يومًا بعد يوم، خاصة بعد أن تأكد من عنفه وضلوعه في أعمال خطرة ضد عساكر إنجليز وأجانب ومصريين. جال بخاطره أنَّ أمر ذلك الولد الذكي المُشاغب لابد أن ينكشف، خاصة مع تطور طموحاته، واستمرارية عملياته التي يقوم بها مع أصحابه الغاضبين دائمًا.

علم الرجل المُخضرم ذو الخبرات المُتراكمة في السياسة أنَّ هؤلاء الشباب لا يُثنيهم نصح ولا يوقفهم إرشاد، كما أن مجابهتهم بالعنف والتهديد قد تؤدي إلى نتائج صعبة. إنهم حزمة من العناد يصعب تفريقها. قال الرجل لزوجته إنه على يقين أن أبناء الخالة «نجيب» و«مدحت» و«محمد» مُنخرطون مثل «حسين» في ذات الأعمال العدوانية، كما أنَّه تناقش ذات مرة مع ابن شقيقته «محمود مراد» وعلِم أنَّه يحمل أفكارًا مُشابهة. وبدا الرجل في داخله مُتعاطفًا مع توجهات الشباب الحماسية عندما قال لزوجته في إحدى جلساتهما المسائية:

ـ إنَّهم لا يعجبهم سياسي ولا يُرضيهم حزب. حتى مصر الفتاة والإخوان المسلمين اللذين اجتذبا كثيرا من الشباب في هذه الأيام لا يلقون لهما بالًا. هُم يُبصرون الجميع على حقيقتهم، يعرفون المُمثل، والخائن، والمُهرج.

ثُم ببسمة رضا:

ـــ هـل تعرفـين يـا سـميرة؟ إنـى أرى فيهم شـبابي. هُـم أنقيـاء ووطنيون ومخلصـون. لكـن لابـد مـن تأمينهـم. أعتقـد أنَّ إبعـاد الشـبهات عـن حسـين يسـتلزم انتقالنـا لبيـت جديـد، بعيـد عـن معسـكرات الإنجلـيز.

ـ وبيتنا؟

سـألت «سـميرة»، فأجابهـا بأنَّـه سـيكون مفتوحًـا لاسـتقبال الضيـوف وإقامـة الحفـلات فقـط، لكـن السـكن سـيكون في مـصر الجديـدة. ثُـم قـال لهـا بشـكل واضـح:

ـ لقد أجرَّت بيتًا مناسبًا في شارع حسن الأكبر في مصر الجديدة.

مصمصـت شـفتيها امتعاضًـا، لكنَّهـا رأت أنَّ السـبب الـذي سـاقه زوجهـا مُقنـع، خاصـة أنَّهـا عـلى يقـين أنَّ بكريهـا مُنفلـت وحـاد المـزاج. تذكـرت سـخريته مـن أقربائهـا الباشـاوات ونظرتـه المتهكمـة لهـم.

كان خـبر الانتقـال إلى مـصر الجديـدة صادمًـا لـ«حسـين» وزملائـه، والذيـن فقـدوا مقـرًا جيـدًا لاجتماعاتهـم في غرفـة «عثمـان الجنايـني»، لكنَّهـم اعتـبروا الأمـر خطـوة مُهمـة للاعتيـاد عـلى عقـد اجتماعاتهـم المصغـرة عـلى المقهـى أو في جـروبي، والموسـعة في بيـت «عمـر أبـو يعـلى» الـذي تمكَّـن مؤخـرًا مـن ضـم ثلاثـة أعضـاء جـدد هـم «سـعد كامـل»، و«محمـود الجوهـري»، و«عبدالعزيـز خميـس». في ذات الأمـر فقـد وجـد «حسـين» خزانـة خلفيـة في البيـت الجديـد تصلـح لتخبئـة الأسـلحة، خاصـة القنابـل الـتي وفرهـا لهـم «عمـر» عـن طريـق شـقيقه المتصـل بـ«أنـور السـادات».

فى يـوم مـا فاجأهـم «محمـود مُـراد» بـأن متابعتـه للرجـل العجـوز وصلـت بـه لإمكانيـة قتلـه خـلال الاجتمـاع القـادم للهيئـة الوفديـة بالنـادي السـعدي. كان «مُحمـود» مُـصرًا عـلى قتـل «النحـاس» رغـم ترجيـح جميـع الأعضـاء اغتيـال «أمـين عثمـان» أولًا، لـذا فقـد انشـغل عـلى مـدى أسـابيع عديـدة برصـد كُل حركـة وكلمـة لزعيـم الوفـد. وضـع طالـب الهندسـة عـلى طاولـة الاجتمـاع خريطـة مرسـومة بالقلـم الرصاص

لمقـر النـادي السـعدي والطـرق المؤديـة لـه، مُتوقعًـا مـرور الهـدف مـن شـارع رسـتم المتفـرع مـن قـصر العيـني قبـل نُصـف سـاعة مـن موعـد الاجتمـاع. قـال «محمـود» إنَّ واحـدًا منهـم سـيقف عـلى ناصيـة الشـارع ومعـه قنبلـة، وسـيقف آخـر أمـام النـادي ومعـه مسـدس، وسـتلقى القنبلـة عـلى السـيارة لتقـف ويصبـح مَـن فيهـا هدفًـا سـهلًا لحامـل المُسـدس، بينمـا سـتنتظر سـيارة أخـرى في شـارع قـصر العيـني وسـيارة ثالثـة في ميـدان لاظوغـلي لتقـل منفـذي العمليـة بعيـدًا.

فكـر «حسـين» برويـة في خطـة «محمـود» واعتبرهـا صعبـة التنفيـذ، خاصـة أنَّ سـيارة «النحـاس» قـد تـأتي مـن شـارع آخـر، لكنـه اعتمدهـا وأيدهـا عندمـا تذكـر ضرورة تقربـه مـن ابـن عمتـه، ليوافـق عـلى اقترانـه بـ«سـناء» الـتي مازالـت عيناهـا تسـكنان خيالـه.

قال «حسين» على غير اعتياد:

ـــ الخطـة مُمتـازة. سـألقي أنـا القنبلـة عـلى السـيارة، وسـتطلق الرصاص يـا محمـود، وسـيكون لدينـا سـيارتان، واحـدة سـيقودها سـعيد ومدحـت وتقـف في قـصر العيـني، والأخـرى سـيقودها محجـوب وسـتقف في ميـدان لاظوغلي.

ضرب «محمـد إبراهيـم كامـل» بقبضتـه فـوق الطاولـة صائحًـا بأنَّـه يجـب أن يشـارك في العمليـة، وهـو مـا فتـح البـاب لتدخـلات غضـب مشـابهة مـن «كريـم القنـاوي» و«سـعد كامـل» و«محمـود الجوهـري» مطالبـين بالمشـاركة أيضـا، ولـم يجـد «حسـين» بُـدًا مـن تشـكيل فرقـة أخـرى وإسـناد قيادتهـا إلى «محمـد إبراهيـم كامـل» تكـون مهمتهـا تعطيـل أي مطـارد لمنفـذي العمليـة. كان الجميـع يـرون اغتيـال «النحاس باشـا» بمثابـة شرف عظيـم يجـب نيلـه حـتى أنَّهـم احتفلـوا في الليلـة السـابقة عـلى التنفيـذ كُلٌّ عـلى طريقتـه حيـث شرب «حسـين» كأسًـا مـن النبيـذ، ودخّـن «محمـود» و«سـعد» و«سـيد» الحشـيش، بينمـا صـلى «محجـوب» بتبتـل شـديد، وقـرأ «سـعيد» عـدة قصائـد مـن ديـوان

المُتنبي مُكررًا في انتشاء بيتين يقولان «إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ.. فلا تقنع بما دون النجومِ. فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ.. كطعم الموت في أمرٍ عظيم».

في ساعة الصفر وقف «حسين» مُرتديًا بذلته الجديدة التي منحتها له أمه هدية عيد ميلاده العشرين، واطمأنت يُمناه على القُنبلة الناعسة في جيب الجاكت الداخلي، بينما لمح وجه «محمود مُراد» شاحبًا وهو يقف على بعد أمتار مُنتظرًا إلقاء القُنبلة. اقترب موعد الاجتماع وبدت برودة الطقس تبُث رجفاتها في الجسد النحيل، مُتصورًا أن سيارة «النحاس» قد لا تأتي من الناحية المتوقعة، وفي تلك اللحظة لن يكون في مقدور «محمود» إطلاق الرصاص. تذكر «أنور السادات»، وقال إنَّه سيسعد جدًا بخبر قتل «النحاس»، باعتباره الأخطر على مصر ومستقبلها، مسترجعًا توصيفه له بأنه «أفيون الناس ومخدرهم». حقًا. إنه كذلك. هتف في أعماقه وهو يُتابع بنظره سيارة صغيرة تمر إلى جواره ببطء شديد. نظر إليها ففوجئ بـ«فؤاد سراج الدين» إلى جوار «النحاس باشا» جالسين معا على المقعد الخلفي، بينما جلس على المقعد الأمامي رجل بسيط ضئيل الجسم ولا يبدو كحارس أو رجل أمن. أين رجال الأمن المفترضون؟ سأل نفسه، وأجاب بأن ذلك الجالس إلى جوار «النحاس» رجل مخادع وداهية. إنَّه قادر دائمًا على إدهاشه. اضطرب قلبه عندما رمقه الباشا بنظرة مُخترقة، واضطر إلى رفع يده لأعلى مُتظاهرًا بتحية مُحب، حتى مرت السيارة قليلًا، فقذف بقنبلته بأقصى قوة لتسقط أمام السيارة دون انفجار. شعر «حسين» بوجع في بطنه ومر الهدف أمام عينيه مرور الكرام، وبعد بضع ثوان انفجرت القُنبلة مُحدثة رجة هائلة، اضطرب لها المارة فجرى بعيدًا، وهو يتابع خيبة الأمل تكسو وجه «محمود مراد» بعد أن غابت سيارة النحاس بعيدًا كأنَّ شيئًا لم يقع.

«محظوظ. دائما» قالها غاضبًا، مُغتاظًا أن الهدف أفلت منه دون

سبب منطقي بعد أن كان على بُعد خمسة أمتار منه.

ـــ سيكون علينا أن نُعجّل بقتل أمين عثمان في أقرب وقت. ولو خرج النحاس إلى الجنازة ستكون نهايته.

قالها «حسين» بحزم في الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه عقب فشل العملية في الليلة نفسها، ووافقوا جميعًا مُستسلمين.

***

عقدوا المُحاكمة فعليًا بحضور «نجيب» الذي اختاروه مُحاميًا عن المُتهم. في صحراء المُقطم وقف «محمود يحيى مُراد» يتلو قرارات الاتهام ضد «أمين باشا عثمان» وزير المالية الأسبق ورئيس نادي رابطة النهضة. نظر «محمود» في ورقة أمامه، وقرأ منها بصوتٍ عالٍ:

«أتى أمين عثمان أفعالًا تمثل أقصى درجات الخيانة، وتستوجب الموت جزاءً، حيث قام المذكور في سنة 1937 بالاتصال المباشر مع السفير البريطاني لوضع جميع طاقات مصر وإمكاناتها في خدمة الجيش البريطاني، وحصل مقابل ذلك على لقب الباشاوية. ثُم واصل دور الوساطة القذر في فبراير 1942 ليدفع بحزب الوفد إلى الحُكم رغم أنف الملك بعد محاصرة دبابات الإنجليز لقصر عابدين، ونال نظير ذلك وزارة المالية التي مكَّنته من استغلال نفوذه وتأسيس شركات تجارية بمشاركة الخواجة شارل كاسترو ومنحها تراخيص عمل واستيراد وتصدير مخالفة للقانون. وبعد إقالة الحكومة دعا المتهم إلى الاندماج في الثقافة الإنجليزية وتوطيد العلاقات مع بريطانيا وأسس لذلك رابطة أسماها رابطة النهضة. وواصل المتهم تحديه للإرادة الوطنية وقام باتصالات مباشرة بين السراي والإنجليز بهدف تحسين العلاقات، ووصل به الأمر إلى التصريح بزواج مصر وبريطانيا زواجًا كاثوليكيًا. ولم يكتف المتهم بالكلام وإنما قام بجمع تبرعات

ماليـة مـن أمـوال المصريـين بلغـت نحـو مائـة ألـف جنيـه وقدَّمهـا إلى الحكومـة البريطانيـة لإنشـاء قريـة في بريطانيـا لتخليـد ذكـرى معركـة العلمـين».

كان شـباب التنظيـم يجلسـون عـلى صخـرة يُدخّنـون في تحفـز وهُـم يسـتمعون لقائمـة الاتهامـات ناظريـن نحـو «نجيـب» بنظـرات تحذيـر بعـد أن قـام لتمثيـل دور الدفـاع بنـاء عـلى إشـارة مـن «حسـين» الـذي وقـف إلى يمـين «محمـود مـراد».

قال «محجوب» وهو يقف مُنفعلًا:

ــ أعتقـد أنَّ الدِفـاع سينسـحب مـن المحاكمـة ، لأنَّـه لا يمكنـه الدفـاع عـن الخيانـة.

ونظـر «محمـد إبراهيـم» نظـرة ذات مغـزى إلى «نجيـب» الـذي أشـعل سـيجارة انتظـارًا لمنحـه الكلمـة، قبـل أن يقـول:

ــ لا إنَّنا نريد أن نسمع دفاعه.

وعلّق «عُمر» قائلًا:

ــ إنَّ صديقنا نجيب طيب القلب، لكن مهما كان فهو إنسان وطني.

رد «نجيب» بإشارة اعتراض من يده صائحًا:

ــ أرجو من هيئة المحكمة منحي الفرصة للدفاع عن المتهم.

سرت همهمـات وارتفعـت أكـف مُشـوحة في وجـه نجيـب، لكـن حسـين الـذي أسـعده تمثيـل دور القـاضي قـال بحنكـة:

ــ سنمنح الدفاع خمس دقائق للرد على الاتهامات.

ــ كثير.. كثير.

ردد الحاضرون، لكن «نجيب» وقف وقال بصوتٍ عال:

ــ إنَّـنى مـع كُل ثقافـتي واعـتراضي عـلى العُنـف أقر أنـه لا يمكـن التعامل مـع أفعـال المتهـم بتحـضر، خاصـة أنـه فُـرض علـيّ الدفـاع عنـه دون

رغبة مني. وأنا لا أجد عُذرًا مقبولًا لمن يدفع بمصر لتُصبح عروسًا لبريطانيا، مع التبجح والدعوة أن يكون ذلك الزواج كاثوليكيًا أي أبديًا، وهُنا فإنني أشعر بمزيج من الخجل والانهزامية وأنا أقف بينكم طالبًا الصفح عن مُجرم، خائن لبلاده. إنني أعرف جيدًا أن جميع الاتهامات الموجهة إلى المُتهم صحيحة، وأنه ضالع في خدمة العدو المُحتل، مُحققًا مكاسب مالية حرامًا، ويكفي أنه تزوج من سيدة بريطانية تدعى الليدي كاترين جريجوري، وأن شريكه الأول انجليزي الجنسية.

ثُم ابتسم «نجيب» ابتسامة خافتة، ثُم رمى بنظرة رضا نحو ابن خالته القاضي قائلًا:

ـ إنني للمرة الأولى في تاريخ القضاء أضم صوتي إلى صوت ممثل الادعاء مطالبًا بتوقيع أقصى العقوبة على المتهم. وباعتباري محاميًا ودارسًا للقانون فإنني لا أجد لجرمه عقابًا سوى الموت.

هلَّل الحاضرون، وصفقوا، قبل أن يرفعوا «نجيب» عاليًا، وهُم يرقصون في مرح ويصيحون: يحيا العدل. يحيا العدل، بينما وقف «حسين» رافعًا قبضته في الهواء وهو يُردد في صوتٍ عال:

ـ هدوء من فضلكم. النطق بالحكم.

صمتوا، والغبطة تُظللهم عندما قال «حسين» في رزانة:

ـ حكمت المحكمة الوطنية على المتهم أمين عثمان بالإعدام، وحددت مساء الغد موعدًا لتنفيذ الحُكم. الله.. الوطن.. الشعب. رفعت الجلسة.

***

ودعـت عينـاه العسـليتان ضـوء الشـمس وهـو يسـحب أسـتاره مُبشرًا بغـروب شـتوي عاصـف. لـم يكُـن الرجـل متوسـط القامـة ذو الملامـح المنبسـطة دائمًـا يشـعر بوحشـة الغـروب الشـتوية الـتي يعتادهـا سُـكان القاهـرة لأنَّـه كان دائمًـا لا يكـترث بمـا حولـه. لقـد تعلّـم مُـذ كان طفـلًا في مدرسـة فيكتوريـا بالإسـكندرية كيـف ينعـزل تمامًـا عـن أي مؤثـرات قـد تنـال مـن حالتـه المزاجيـة، لـذا فإنَّـه لـم يلتفـت لقـول زوجتـه «كاتريـن» وهـو يُغـادر في ذلـك الصبـاح:

ـ أمين. أشعر أن الجو مُقبض اليوم.

منحهـا قُبلـة رقيقـة اعتـاد طبعهـا فـوق خدهـا الأيمـن مُكـررًا أنَّـه كرجـل نشـأ في الإسـكندرية، وهـي كسـيدة ولـدت بانجلـترا وتربَّـت هُنـاك لا ينبغـي أن تُعكـر صفوهمـا حالـة الطقـس.

ـ عزيزتي.. سيكون كُل شيء على ما يرام.

كان «أمـين عُثمـان» رجُـلا عمليًـا إلى أقـصى درجـة، يفهـم السياسـة كصفقـة تجاريـة، فيهـا طرفـان كلاهمـا رابـح. عـرف الرجـل الخمسـيني دروب السياسـة وحنكـة الإنجليـز ودهـاء المحامـين مُـذ اسـتثمر علمـه في القانـون والمتـوج بدكتـوراه حصـل عليهـا مـن باريـس، وخـاض غمـار المفاوضـات بحثًـا عـن مصالـح بـلاده. كان يؤمـن أنَّـه يمكـن خدمـة الوطـن دون دمـاء، وأنَّ المعـارك والمواجهـات المباشرة بـين المصريـين والإنجليز لا يُمكـن أن تـؤدي إلى اسـتقلال، أو تُحقـق نهضـة. في مـرات عديـدة اختلـف مـع ساسـة وزعمـاء مُحنكـين حـول كيفيـة تطويـع ظـروف الخصـم لتحويلـه إلى صديـق والاسـتفادة منـه، وكثـيرًا مـا كان يُـردد أنَّ مصالـح مـصر سـتتحقق بالطُـرق السـلمية.

ركب «أمين» سيارته، وابتسم ابتسامة رضا وهو يقول لسائقه:

ـ إلى الجمعية.

النهضـة. هكـذا أطلـق عليهـا مُنـذ أسسـها قبـل سـنوات قليلـة بهـدف الاسـتفادة مـن الثقافـة الإنجليزيـة والتقـدم المُتحقـق في انجلـترا ونقلـه

إلى مصر. وقتها قرر إنشاء جمعية لخدمة هذا البلد الذي يستحق أحوالًا أفضل وينبغي انتشال بنيه من الجهل والتخلف والفقر. وكان ذلك الخاطر يدور برأسه عندما قال في خطاب سياسي قبل أيام «إنَّ مصر وإنجلترا يجب أن يتزوجا زواجًا كاثوليكيًا». لم يقصد ما ذهب إليه الفاشيون من خضوع أو خنوع، وإنما كان هدفه التأثير في المُتلقي الإنجليزي الذي يفهم معنى العبارة كرباط مصالح دائم، لا تبعية. فكَّر أن يوضح للمُنتقدين في الصُحف المصرية مغزاه من العبارة، لكنَّه عاد وتجاهل الرد على أولئك الذين يعرف جيدًا إلى أي مدى هُم متربصون به، وقال لنفسه إنَّهم سيخونونه سواء فهموا ما أراد أو لم يفهموا. قرأ جريدة «الكُتلة» المرصوصة وسط الصُحف بالسيارة واغتمَّ من تلميحات وإشارات «مكرم عبيد» ضده باعتباره جناحًا سريًا لدعم حزب الوفد. سأل دون أن ينطق: ألم تكُن تنام وتقوم في خدمة الوفد يا مكرم باشا؟ لمَ كان الوفد بيتًا للأمة عندما كُنت رجله الثاني وكيف فسد الآن؟ ثُم ما هي المُشكلة أن أعمل لصالح الوفد؟ أليس هو حزب الشارع والناس؟ وأليس ذلك أطهر وأنبل من العمل لصالح السراي؟

تذكر كيف ساقته الأقدار أن يعمل يومًا سكرتيرًا في مكتب مكرم عبيد قبل خمسة عشر عامًا مضت قبل أن يصبح بعد ذلك مفتشًا بوزارة المالية، ثُم يتوّج طموحاته بنيل مقعد وزير المالية نفسه. وفكَّر في المنشور مُقررًا كعادته اعتزاله السياسة وتفرغه للتجارة وتعليم جيل من الشباب العلوم الإنجليزية الحديثة ليقودوا مصر يومًا في دروب التقدم. كان هذا هو الدافع الذي من أجله أنشأ جمعية النهضة واختار لها مقرًا مميزًا بشارع عدلي ليجذب أصحاب الألباب الناضجة من الشباب والفتيات. «لقد تركت لكم حلبة السياسة كُلها. اشبعوا بها». قالها في سره عندما وصلت السيارة إلى مُبتغاه.

شعر الرجل بتحرره وهو يهبط من سيارته أمام بناية فخمة على

الطراز المعماري الأوروبي، مُقدرًا قرار اعتزال العمل العام والتفرغ للتجارة، الذي اتخذه بعد مناقشات مُستفيضة مع رفيقة حياته «كاترين»، تلك التي أحبته بجنون، فمنحها قلبه وحياته وأعصابه وتشاركا معًا في الطموحات والآمال. لأجلها وصمه البعض بالخائن أو «زوج الست»، لكنه لم يأبه كعادته، مُعلنًا أنَّ الأسد لا ينبغي أن يلتفت لخربشة الفئران في جحورها.

عبر بُخطى ثابتة داخلًا إلى العمارة المقصودة وعلى وجهه ابتسامة مُعتادة صارت لصيقة بوجهه. نظر إلى المصعد وتوقَّع أن يكون مُعطلًا كالعادة، ثُم تذكَّر نصائح زوجته بضرورة الصعود عبر السلالم لتنشيط الدورة الدموية كُلما أمكن ذلك. سمع خطوات مُسرعة خلفه، لكنَّه كعادته لم يكترث وواصل صعوده حاملًا في يمينه حقيبته السوداء، ونظر في الساعة فوجدها السادسة والنصف، لكن أذنيه أنكرت اسمه منطوقًا بصوتٍ عالٍ. مَن هذا الذي يُناديه باسمه مُجردًا من لقب باشا؟ الصوت لشاب في مُقتبل العمر، ربما أحد أعضاء الجمعية من الشباب، فكَّر، لكنَّه لام جيلًا بأكمله على الجليطة وعدم احترام الأكبر سنًا.

ـ يا أمين يا عُثمان.

للمرة الثانية سمع اسمه عاليًا، بصوت كريه، كنعيق الغربان. ثُقب في السماء ينزف دمًا أسود. فكر للحظات شاعرًا بدبيب الخطر يزحف مُحاصرا. لن يكترث كالعادة، لكن الفضول دفع رأسه للالتفات، ليشهد عينين ذئبيتين تُطلقان نارًا. ثلاث رصاصات كفيلة برسم نهاية مأساوية لطالب خير اجتهد من أجل بلاده فأساءوا فهمه، ثلاث رصاصات كافية لإنهاء قصة حُب بين اثنين من بلدين شاء القدر أن يتقاتلا ويحتل أحدهما الآخر، ثلاث رصاصات تصلُح لإسعاد آلاف الخصوم والساسة وغوغاء الأرض. الأولى في الكتف اليسرى، والثانية في اليمنى، والثالثة حفرت طريقًا ضيقًا بين أمعائه.

جلـس مُرغمًـا، وشـلال الـدم يغسـل سـلالم العمـارة، ولمـح ابتسـامة انتصـار عـلى وجـه القاتـل، الـذي بـبرود شـديد وضـع يـده بالمسـدس في جيبـه وخـرج ماشـيًا بهـدوء.

لـم يعـرف «أمـين عثمـان» بعـد سـاعات مـن نقلـه إلى مُستشـفى مـورو أنَّـه ميـت إلا بعـد أن سـمع نحيـب «كاتريـن» وهـي تـصرخ فيمـن حولهـا:

ـ افعلوا شيئا. أتوَسل إليكم.

لا توسلات ولا شفاعة. النهاية هي دائمًا ما لا تتمناها أو تنتظرها.

***

سريعًـا أتـوا. كان «حسـين» يتوقـع قدومهـم، خاصـة بعـد أن علـم أنَّ ضحيتـه قـضى نحبـه سريعًـا في مُستشـفى مـورو. لـم يكـد يجلـس عـلى مكتبـه مُدخنًـا سـيجارة قبـل النـوم حـتى سـمع أصـوات الخُطـى تـدب بقـوة داخـل المـنزل، وصـوت أمـه تـصرخ فيهـم مطالبـة باحـترام غيـاب توفيـق باشـا عـن المـنزل. هـل حصـل الوالـد الفاضـل عـلى الباشـاوية؟ سـأل «حسـين» نفسـه ولـم يُجـب، عندمـا بـادره أحـد الرجـال ضخـام الجسـم مُطالبًـا إيـاه بالثبـات دون حـراك. اعتـدل «سـعيد» مـن فراشـه راميًـا مـن يديـه مجلـة «الاثنـين» ومُنتبهـا لقـول أحـد المُقتحمـين:

ـ معنا أمر بضبط حسين توفيق وشقيقه سعيد توفيق.

علا صوت السيدة «سميرة»، لكن أحد الرجال قال في هدوء:

ـ هل تنتظرين خارج الغرفة حتى ينتهي التفتيش؟

انصاعـت بعـد أن قـرأت في عيـني حسـين نظـرة غامضـة تعرفهـا جيـدًا. كان يقـول لهـا إنَّهـم عـلى حـق. أنـا القاتـل، الفاعـل، مَـن ضغـط عـلى الزنـاد، مَـن حاكـم الخائـن، ومَـن نفـذَّ الحُكـم. أنـا يـد العدالـة أيهـا الخـدم، قتلـت عدوكـم وعـدو النـاس، مثلمـا قتلـت قبلـه عسـاكر

وموظفين إنجليز. تذكرت حديثها له قبل أيام عندما أخبرته بضرورة الاهتمام بدروسه لطمأنة والده الذي يلازمه قلق دائم تجاهه وتجاه مستقبله، حينها قال لها إنَّه يعرف مُستقبله، وأنَّه حريص عليه. لم تكن تتصور أن ذلك المستقبل هو توجيه السلاح نحو أي شخص حتى لو كان عدوًا.

ـ وجدت هذا.

قال أحد الرجال موجهًا حديثه لشخص آخر، وهو يشير لمُسدس، فقال:

ـ يُحرّز.

استمر التفتيش نصف ساعة بينما وقف حسين في مكانه مُدخنًا سيجارة خلف أخرى وبدا وجهه أشبه بصخرة مُصمتة مُنتظرًا السير معهم إلى حيث الجحيم المُنتظر. توقع أن يرى «محمد إبراهيم إمام» رجل البوليس الذي حدثه عنه السادات، لكنه لم يكُن يعرفه. جمعوا عددًا من الرصاصات المتفرقة، ومسدسين، وجريدة الإجيبشيان جازيت، وجريدة المصري، وورقة يانصيب، وعدة ولاعات، ومفكرة بها رسوم لميادين العتبة والجيزة وباب الحديد.

اقتيد المُتهمان إلى مبنى سجن الأجانب حيث وُضعا معًا في غُرفة نصف مُظلمة وضيقة. بدا الوهن والاضطراب على وجه سعيد، لكن وجه شقيقه الأكثر تماسكًا دنا منه قليلًا وهمس:

ـ اصمت تمامًا. لا تُجب عن شيء.

ظلوا دقائق لم تطل حتى تم استدعاؤهما إلى مكتب وكيل النيابة، والذي قدَّر «حسين» عمره بأربعين عامًا، قبل أن يقرأ اسمه على لافتة خشبية صغيرة «كامل القاويش». قال في نفسه: لو قدر لي أن أقتلك سأفعل.

ـ حسين توفيق أحمد وسعيد توفيق أحمد. أنتما متهمان بقتل

أمـين باشـا عثمـان مسـاء أمـس بشـارع عـدلي.

نطـق وكيـل النيابـة في تريُـث محـاولًا قـراءة وجهـي المتهمـين بعـد سـماع الاتهـام، لكنَّـه لـم يلحـظ أي تغـير ولا حـتى طرفـة عـين. نظـر إلى «سـعيد» الواقـف أمامـه محنيًا رأسـه إلى الأرض، وقـال بصـوتٍ عـالٍ:

ـ أنت يا ولد متهم بجريمة عقوبتها الإعدام شنقًا. ما قولك؟

هزَّ رأسه باكيًا وقال:

ـ لم أفعل شيئًا.

وعـلى مـدى دقيقتـين تكـررت النظـرات وتكـرر الـرد نفسـه عـدة مـرات قبـل أن ينتقـل وكيـل النيابـة ناظـرًا بعيـنيْ ثعلـب نحـو حسـين قبـل أن يقـول:

ــ يـا حسـين أنـت في موقـف صعـب. لقـد شـاهدك أفنـدي حامـلًا المُسـدس وأنـت تخـرج مـن عمـارة المجـني عليـه، ثُـم هتـف: أمسـكوا القاتـل فجريـت.

ـ لم يحدُث.

قالها «حسين» بثبات غريب استفز وكيل النيابة فواصل:

ــ لـو قُلنـا إنَّ الأفنـدي كاذب، فهنـاك كونسـتابل في ميـدان الأوبـرا رآك وأنـت تجـري وخلفـك المـارة وألقيـت عليهـم قُنبلـة.

ـ لم يحدُث. يخلق من الشبه أربعين.

نفـس الثبـات، اسـتفز وكيـل النيابـة، لكنَّـه حـاول تمالـك أعصابـه ثُـم دعـا «حسـين» للجلـوس، بعـد أن طلـب من العسـكري الواقـف بغرفته أن يعيـد «سـعيد» إلى زنزانتـه، ثُـم مـدّ يديـه بسـيجارة رويـال إلى «حسـين» سـائلًا إن كان يـود التدخـين، فوافقـه.

ابتسم «كامل القاويش» قبل أن يرُد على اتصال هاتفي قال فيه:

ـ نعم إمام بك. إنَّه أمامي. هو سيساعدنا.

وعاد مُحدثًا «حسين»:

ــ نحن نعرف يا حسين مقدار وطنيتك. أنت ولد طيب وابن ناس طيبين. ونعرف أنَّ البعض استغل حماسك لدفعك لإطلاق الرصاص على أمين باشا. إنَّك لم تكن تقصد أن تقتله، لكنها إرادة الله.

ابتسم «حسين» نافثًا دُخانه بعصبية في الهواء قبل أن يقاطع الرجل قائلًا:

ــ أنا لم أقتل أمين عثمان.

حاول وكيل النيابة استرجاع ما تعلمه في مادة علم الإجرام ليُحدد على وجه الدقة قدرات الولد الصغير الجالس أمامه، وفكر صامتًا للحظات قبل أن يسأل:

ــ إذن قُل لي: ما هو رأيك في أمين عثمان؟

ــ خادم.

هزَّ وكيل النيابة رأسه مُستبشرًا وقال:

ــ عظيم. خادم وخائن.

هزَّ «حسين» رأسه موافقًا، فأكمل الآخر:

ــ ويستحق الموت؟

ــ نعم.

ــ إذن فقد قتلته؟

بثبات غريب أجاب:

ــ هو يستحق الموت وأنا أراه خائنًا، لكنَّني لم أقتله.

ثُم أضاف ببعض البرود:

ــ لا أعتقد أنَّه يمكن أن يحاكم إنسان لأنَّه تمنى قتل إنسان.

ران بعض التوتر على وجه «كامل القاويش» فعاد للسؤال:

ــ أين كُنت أمس في الساعة السادسة والنصف مساء؟

ـ عند خالتي.

ـ ماذا كنت تفعل عند خالتك؟

ـ كُنت أجلس مع ابن خالتي محمد إبراهيم كامل.

ـ هل هو زميلك في الدراسة؟

ـ لا، طالب في مدرسة الحقوق، لكنَّنا أصدقاء.

علا صوت وكيل النيابة مرة أخرى وهو يسأل:

ـ ماذا كنتما تفعلان؟

ابتسم «حسين» ابتسامة هادئة وقال:

ـ كُنا نُدخن ونتحدث.

سأل وكيل النيابة مرة أخرى:

ـ ومتى عُدت إلى المنزل؟

ـ السابعة مساءً.

هدأت ملامح وكيل النيابة وبدا أنَّه تذكر أمرًا ما، ففتح درج المكتب وأخرج كيسًا يُغلف مُسدسين وقال:

ـ لماذا تحتفظ بهذين المُسدسين في مكتبك؟

قتل حسين سيجارته في منفضة زجاجية أمام وكيل النيابة، ثُم قال بعد أن رمى الرجل بنظرات وعيد:

ـ نلعب بهما.

ـ كيف وصلا إليك؟

ـ قُمنا بشرائهما من أحد حرس المعسكرات الإنجليزية.

ـ مَن هو البائع؟

ـ لا أتذكره.

ثُم قال بنظرة غضب:

ـ أنا مُتعب، وأريد أن أنام.

تذكر لحظة إطلاق الرصاص على الخائن، كان تنفيذًا مُحكمًا، فبعد إشارة من بطارية «محمود الجوهري» عرف بوصول سيارة الهدف، ودخل خلفه العمارة، وفي الشارع الخلفي كان يقف «محمود مراد» و«محجوب» و«سيد» و«عمر» مؤمنين ومعاونين. خرج واضعًا يديه في جيبي بنطاله، لكن أحد المارة صاح بالناس: امسكوا القاتل. امسكوا المجرم، فجرى وخلفه جمع من السُذج يحاولون الفتك به، أطلق عدة رصاصات في الهواء، لكنَّهم ظلوا يطاردونه حتى فاض به وقرر استخدام قنبلته، فرمى بها على الأرض لتنفجر ويتفرق على إثرها المطاردون.

نظر «حسين» نظرات ذات مغزى إلى «كامل القاويش» وقال له:

ـ أنا من حقي ألا يتم استجوابي وقت النوم.

خبّط وكيل النيابة بيد غليظة على المكتب وهو يصيح:

ـ هل عرفت حقك أيها القاتل؟

ـ حتى الآن. ليس من حقك يا رجل القانون أن تصفني بالقاتل.

هزَّ رأسه موافقًا وقال:

ـ معك حق.

ثُم نادى حارسه، وقال له:

ـ أرجع الأستاذ حسين إلى غرفته. وأردف بعد هنيهة:

ـ الرجل يحتاج الراحة، فغدا أمامه يوم عصيب.

ثُم قال لكاتبه:

ـ يُستدعى محمد إبراهيم كامل ابن خالة حسين توفيق، ويستدعى توفيق بك أحمد.

ونظر إلى المُسدسين مُندهشًا كيف تمكن هذا الشاب الصغير من

الإمساك بآلة القتل! ثُم كيف واتته الجرأة أن يضغط على الزناد!

***

في الصباح استيقظ «حسين» على صوت فتح باب زنزانته، تلك الحجرة المستطيلة التي تضم ثلاثة أسرة ودلوًا صغيرًا في أحد الأركان، فوجئ بالحارس يضع صينية بها ثلاثة صحون في أحدها فول، وفي الآخر جبن أبيض، وفي الثالث عسل أسود بالطحين. فوجئ أيضا بصُحف الأهرام والمصري والسياسة. شعر بغبطة النصر وهو يلمح مانشيت الكتلة يقول «مصرع أمين باشا عثمان برصاص مجهول» وسرت الطمأنينة في جسده، وهو لا يجد الجحيم المنتظر الذي حدثه عنه أنور السادات يومًا. فكر كيف تلقى «السادات» النبأ؟ هل هو سعيد بنجاح مجموعة الشباب الذين كان يعتبرهم صغارًا بقتل الخائن؟ وابتسم وهو يوقظ شقيقه النائم، ثُم أمسك صحيفة الأهرام ليقرأ تفاصيل الخبر.

قال لنفسه إنَّ توصيل رسالة للناس بخيانة أمين عثمان هو أفضل ما في الأمر. وجد علبة سجائر بين الصُحف، فتحها وأشعل واحدة، وهو يستمتع بقراءة الحادث. علا صوته محاولًا ايقاظ شقيقه الغائص في نوم ثقيل: «.. وقد لفظ المرحوم أنفاسه الأخيرة بعد ثلاث ساعات من وصوله إلى المُستشفى، وقد زاره فور وصوله دولة الرئيس «مصطفى باشا النحاس»، ومعه «فؤاد سراج الدين»، والسيد السفير «مايلز لامبسون»، وحاول الأطباء إنقاذ حياته، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. وصرح السيد «محمد كامل القاويش» وكيل النيابة بأنَّه تم القبض على أحد المُشتبه فيهم، وأن التحقيقات الابتدائية كشفت أن وراء الحادث منافسة على علاقة بإحدى سيدات المجتمع و...».

ولم يستطع «حسين» أن يُكمل فصرخ بأعلى صوته:

ــ لا. هذا كذب. هذا كذب. كذب.

ثُمَّ بصوت مبحوح:

ــ نساء؟ سيدة؟ افتراء. افتراء.

واستيقظ شقيقه مذعورًا ليجده يرن بقوة بصينية الإفطار على باب الحبس مناديًا:

ــ يا وكيل النيابة. يا وكيل النيابة: أنا قتلت الخائن. قتلت أمين عثمان. قتلته لأنَّه تحالف مع الإنجليز.

ثُمَّ صاح في الحارس البادي من قُضبان الحجرة قائلًا:

ــ افتح لي. أريد النائب العام. أنا قاتل الخائن.

كرر الصراخ بصوتٍ عال، حتى فُتحت الزنزانة وأطل منها وجهان لرجلين أحدهما لوكيل النيابة، بينما كان الآخر هادئا وصارمًا ومُطابقًا لوصف «أنور السادات» عن اليوزباشي «إبراهيم إمام». كان يبدو بارد الملامح وهو يُحدّق بعين متفرسة في وجه حسين الذي شعر أنَّه أمام ثعلب البوليس السياسي الذي طالما سمع عنه.

فكر «حسين» قليلا قبل أن يسأل:

ــ هل أنت اليوزباشي إبراهيم إمام؟

هزَّ الرجل رأسه وعلى وجهه ابتسامة هادئة، قبل أن يقول «كامل القاويش»:

ــ نعم. حضرة القائمقام محمد إبراهيم إمام. واضح أنكما تعرفان بعضكما.

هزَّ الضابط رأسه نافيًا وقال بهدوء:

ــ لم أتشرَّف من قبل.

ثُمَّ ألقى نظرة على «سعيد» الواقف خلف «حسين» وقال:

ــ أهلا وسهلا يا حسين. سأترككما لتتحدثا.

سـار «حسـين» إلى جـوار وكيـل النيابـة عابـرا ممـرا يُفـضي إلى مكتبـه، جلسـا هادئـين قبـل أن يقـول «كامـل القاويـش»:

ـ ها. احك لي يا حسين ماذا جرى.

هـزَّ «حسـين» رأسـه مُطيعًـا، وقبـل سـيجارة مـن محدّثـه قبـل أن يسترسـل في سرد كُل شيء عـن جماعتـه الوطنيـة. بـدأ منـذ حـادث إحـراق سـيارات المعسـكر الإنجلـيزي، ثُـم ضرب العسـاكر واحـدًا بعـد الآخـر ووصـولًا إلى الاعتـداء عـلى «مصطفى باشـا النحـاس». كانـت عينـا المتهـم تفيضـان ألقًـا وفخـرًا وهـو يتحـدث عـن فلسـفة المقاومـة، وردع الخونـة، قبـل أن يسـأل وكيـل النيابـة في حـدة، إن كان لا يـرى أنَّ الإنجلـيز أعـداء، فابتسـم الرجـل وقـال إنَّـه غـير معـني بالإجابـة لأنـه وكيـل نيابـة، وهـو وحـده الـذي عليـه توجيـه الأسـئلة. كان مـن الواضـح أنَّ القاويـش أوقـع بـه بعـد أن صرح للصحـف بـأنَّ النسـاء هُـن سـبب الحـادث، لـذا فقـد اندفـع «حسـين» كاشـفًا كُل شيء بحـدة وافتخـار. تحـدث عـن المشـاركين معـه في اغتيـال أمـين عثمـان، وغيرهـم المشـتركين في محاولـة قتـل النحـاس، ثُـم بـاقي أفـراد الجماعـة، مُكـررًا أن الغـرض هـو تحقيـق اسـتقلال مـصر ومطـاردة الخونـة. فتـح «كامـل القاويـش» نوافـذ الاسترسـال أمـام «حسـين» بسـعادة، ثُـم سـأله في النهايـة عـن سـبب وصمـه لـ»أمـين باشـا عثمـان» بالخيانـة، فأجـاب:

ـ كُل الناس تعرف خيانته.

ابتسم بمكر وسأل:

ـ هل واجهته؟ هل منحته حق الدفاع عن نفسه؟

ردَّ «حسين» بحدة:

ـ لقـد سـمعت دفاعـه بنفـسي في رابطـة النهضة.هـو خائـن لبلـده وعقوبـة الخيانـة هـي المـوت.

نظر وكيل النيابة بتركيز إلى وجه المتهم وسأل:

ـ ماذا يعمل والدك؟

ـ وكيل وزارة المواصلات.

هزَّ رأسه وسأل:

ـ هل لو اكتشفت خيانته ستقتله؟

ران صمت على شفتي «حسين»، لكن سرعان ما قال:

ـ نعم، بكل تأكيد.

ـ إذن لمَ لم تقتله؟ وهو في منصب وكيل وزارة المواصلات يضع جميع خدمات البلاد تحت تصرف الإنجليز.

لم ينطق، وفكر أنَّ الأمر مختلف، لكنَّه تذكر كم يحتقر والده. لقد كان يحب توفيق الآخر، السابق، الوطني، المُتقد غيرة على بلاده، والذي شارك في خلية اغتيال بطرس غالي قبل أكثر من ثلاثة عقود.

أنهى «حسين» اعترافاته ثُم خرج من الحجرة ليصطحبه الحارس إلى حجرة أخرى وجد فيها القائمقام إبراهيم إمام الذي بدت ملامحه أكثر صرامة، فجلس، لكنَّ صوتًا زاعقًا أمره بالنهوض مرة أخرى قائلًا:

ـ قُم. لم أسمح لك بالجلوس.

اهتزَّت أوصاله قليلًا، لكنَّه سرعان ما سيطر على أعصابه، حتى قال له الضابط:

ـ لقد أخبرني سعيد أنَّك تعرف الحاج محمد.

ـ سعيد؟ متى؟

ـ لقد حققت معه وأنت عند وكيل النيابة.

هزَّ رأسه مُستسلمًا:

ـ نعم أعرفه. محمد أنور السادات. إنه يُحبك ويحترمك.

ـــ عظيـم. أريـد أن أرُد لـه هدايـاه إلي، وهـذا لـن يحـدث إلا بعـد أن تُخـبرني كيـف أجـده.

وأشار بيده إلى الكُرسي وقال:

ــ اجلس أستاذ حسين. تفضل.

جلس بهدوء وقال له:

ــ سأخبرك بكُل شيء.

***

اعتـاد القائمقـام «محمـد إبراهيـم إمـام» بحـث القضايا وقـت الشروق، مُسـتبشرًا كعادتـه بسـاعات البكـور الـتي علمـه والـده أنهـا الأكـثر نفعًـا وبركـة. جلـس في مكتبـه وبـين أصابعـه قلـم منتمـور أهدتـه لـه زوجتـه قبـل أيـام يُشـخبط ويرسـم عـلى ورق أبيـض، مُفكـرًا في تفاصيـل أكـبر قضيـة يُحقـق بهـا مُنـذ التحـق بالبوليـس السـياسي. كان أمامـه خيـوط عديـدة تؤكـد أنَّ هُنـاك جُنـاة خـارج الحبـس فكـروا وخططـوا وأمـروا، وأنَّ الصبيـان الذيـن وقعـوا ليسـوا سـوى شـباب سـاذج يُسـاق دون درايـة.

لقـد اعـترف «حسـين توفيـق» عـلى زملائـه «محمـود يحـيى مـراد»، و«محمـد إبراهيـم كامـل»، و«عمـر أبـو يعـلى»، و«محجـوب «، و«سـيد»، و«الشـافعي»، و«محمـود الجوهـري» وشـقيقه «سـعيد»، وابـنيْ خالتـه «نجيـب» و«مدحـت»، لكـن يبـدو أنَّ هُنـاك تنظيمـات أخـرى موازيـة في الخـارج تعمـل لدعمهـم وإفسـاد القضيـة، وإلا كيـف يمكـن تفسـير سلسـلة الحـوادث الغريبـة الـتي جـرت عـلى مـدى عـدة شـهور بعـد القبـض عـلى جماعـة حسـين توفيـق؟ هكـذا تسـاءل مُتذكـرًا كيـف أعقـب القبـض عـلى «أنـور السـادات» تعـرَّض «عبدالعزيـز أفنـدي» الشـاهد الرئيـس في القضيـة الـذي رأى «حسـين توفيـق» أمـام مـسرح

الجريمـة للتهديـد ثُـم لإطـلاق الرصـاص عليـه، ثُـم تعرضـت أوراق القضيـة نفسـها للسرقـة مـن جانـب شـاب غامـض كان يسـير وراء حاجـب المحكمـة ثُـم اختطـف منـه كل مـا يحملـه مـن أوراق. كما تعـرض شـاهد آخـر في القضيـة هـو كونسـتابل ميـدان العتبـة لإطـلاق رصـاص عليـه مـن مجهولـين مما دفعـه للعـدول عـن شـهادته مُدعيًـا أنَّـه لا يسـتطيع التيقـن مـن الجـاني.

طقطـق «إبراهيـم إمـام» أصابعـه وهـو يسـتعيد مشـهد «توفيـق بـك» في أول اسـتدعاء لـه وهـو مُستسـلم لفكـرة قيـام ابنـه بقتـل أمـين عثمـان، والقـول بـأنَّ ابنـه مُصـاب بمـرض بشـبكية العـين يؤثـر عـلى قـواه العقليـة، ثُـم تراجعـه في سـاحة المحكمـة عـن أقوالـه، ورد الاتهـام بـأنَّ ابنـه تعـرض لضغـوط شـديدة مـن البوليـس السـياسي للاعـتراف بمـا لـم يرتكـب.

رسـم وجهًـا عريضًـا مسـحوبًا لأسـفل وحولـه وجـوه صغـيرة مُبتسـمة مُندهشًـا كيـف تلاعـب هـؤلاء الصبيـة بالقضيـة فعـاد «حسـين توفيـق» لينكـر كُل مـا اعـترف بـه، ثُـم عـاد ليقـول أنَّـه لا يعـرف أنـور السـادات وأن البوليـس السـياسي طلـب منـه الاعـتراف عليـه. لقـد نجـح الشـبان الصغـار في مـد آجـال القضيـة لأكـثر مـن عـام بعـد تطـوع عـشرات المحامـين الكُبـار واسـتدعاء وزراء وساسـة وزعمـاء وضبـاط بوليـس وأطبـاء نفسـيين. تذكـر الضابـط ذا العقـل المُتقـد والمُحـب للقـراءة والثقافـة. مقـالات لصحفيـين كثيريـن انتهـت إلى أنَّ محاكمـة «حسـين توفيـق» وزملائـه تحولـت لمحاكمـة لأمـين عثمـان، فأصبـح أكـبر آمـال أنصـاره هـو أن يحصلـوا لـه عـلى الـبراءة مـن تهمـة الخيانـة.

قـال «إبراهيـم إمـام» لنفسـه وقلمـه المنتمـور يواصـل الشـخبطة عـلى الـورق إنَّ هُنـاك ثعلبًـا وداهيـة كبـيرا يُمثـل وسـيط جميـع التنظيمـات الإرهابيـة في مـصر هـو «أنـور السـادات»، الـذي لا يخلـو تنظيـم يسـاري أو فـاشي أو دينـي مـن وجـوده ولا يغيـب عمـل إرهـابي عـن علمـه. إنَّـه

شخص موهـوب في الإقنـاع، ومُخـضرم في العمـل السري، يعـرف ما يريد، ويحقـق مـا يُخطـط لـه، بأيـدي غـيره بينمـا تظـل يـداه دائمًـا مغسـولة من الدمـاء. مُنـذ صـار «السـادات» غريمـه وهـو يعـي أنَّ هـذا الرجـل نافـذ ولديـه شـبكات لا حـصر لهـا مـن الإرهابيـين والقتلـة والمنتشـين بحلـم الثـورة. سـأل نفسـه: لحسـاب مَـن يعمـل السـادات أو الحـاج محمـد كمـا يحلـو للبعـض تسـميته؟ لثـوار حقيقيـين؟ للألمـان؟ للإخـوان؟ أم للـسراي نفسـها؟ أو ربمـا للإنجلـيز؟ لكـن كيـف؟

تذكـر كيـف بـدأت متاعبـه مـع القضيـة مُنـذ الأسـبوع الأول عندمـا نـادى المتهمـون المحتجـزون في الغرفـة رقـم 10 بسـجن الأجانـب عـلى الحـارس وهـم يصرخـون مُطالبـين بسـجائر، وعندمـا فتـح البـاب فوجـئ بضربـه بُقلـة ميـاه شـج رأسـه عـلى إثرهـا، ثُـم اسـتولوا عـلى سـلاحه، قبـل أن يسـمع هـو الجلبـة خـلال مـروره ويطلـق رصاصًـا في الهـواء لإخافتهـم ثُـم يأخـذ منهـم المسـدس المختطـف. فكَّـر كيـف يدفعـه اللـه دائمًـا نحـو الخطـر فيُفلتـه ويكتـب لـه السـلامة بعـد أن يـرى شـبح المـوت مـارًا أمامـه. وعـادت بـه ذاكرتـه إلى سـنوات مضـت كان فيهـا محـل تقديـر وامتنـان قياداتـه لجرأتـه وخوضـه للمخاطـر دون تـردد حـتى أنَّـه تلقـى رصاصـة في الصـدر يومًـا مـا عندمـا نجـح في إنقـاذ المطربـة أسـمهان مـن القتـل عـلى يـد زوجهـا.

قبـل أيـام قالـت لـه زوجتـه إنَّهـا تشـعر بالقلـق عليـه خوفًـا مـن تعرضـه لاعتـداء خاصـة بعـد أن أبلغهـا بنظـرات الوعيـد الـتي رمـاه بهـا «السـادات» خـلال شـهادته في المحكمـة وتعليقـه عـلى الشـهادة بـأن هـذا الـكلام لا يقولـه إلا إنجلـيزي. قالـت لـه إنَّهـا تُقـدر وطنيتـه وإخلاصـه لعملـه لكنهـا تعلـم أنَّ مُدعـي الوطنيـة عميـان، فأجـاب بأنَّـه اعتـاد السـير في الظـلام في حقـول الألغـام.

واصـل الشـخبطة عـلى الـورق وهـو يُقـرر أنَّـه لا يعـرف مـع مَـن يلعـب هـذه المـرة؟ إنَّ القضيـة تبـدو بسـيطة بوجـود أكـثر مـن 50 متهمًـا

معظمهـم طـلاب في المـدارس والجامعـة ويقودهـم شـاب أهـوج نرجسي مفتـون بنفسـه، لكنهـا في حقيقـة الأمـر معقـدة للغايـة، خاصـة عندمـا يتعـرض شـهود القضيـة للإرهـاب وتتحـول الصُحـف لنـشرات تعظيـم ومديـح للجنـاة، ويطـول أمـد القضيـة ويصبـح هـو وبـاقي أفـراد البوليـس السياسي مُتهمـين في حاجـة لدفـاع أمـام الـرأى العـام. لقـد كان مُدهشًـا أن تتقـدم إحـدى الفتيـات بطلـب زيـارة للمتهمـين عارضـة الـزواج عـلى واحـد منهـم هـو «محمـد إبراهيـم كامـل» باعتبـاره فـتى أحلامهـا.

وتذكـر الضابـط صـولات جيـش المُحامـين المُحتشـد للدفـاع عـن المُتهمـين ونجاحهـم في الإفـراج عـن عـدد مـن المتهمـين بعـد تراجـع «حسـين توفيـق» عـن أقوالـه فخـرج في المـرة الأولى «جـول أسـود» و«محمـد إبراهيـم كامـل» و«عزيـز ديـاب»، ثُـم في المـرة الثانيـة تـم الإفـراج عـن «محمـد خليفـة» و«أحمـد خـيري» و«عبـاس المرشـدي» و«محمـد الشـافعي». وفكـر أنَّ الأيـام القادمـة مـن المُحاكمـة سـتكون صعبـة ومريـرة.

***

ابتسـم صاحـب الوجـه الأسـمر ابتسـامة انتصـار وهـو يُصافـح بعينـين صافيتـين عيـون شـباب أسـن يرونـه أسـتاذًا ومُلهمًـا. كانـوا يُنادونـه بحـضرة اليوزبـاشي، لكنـه كـرر لهـم مـرارًا أنَّـه صـار خـارج الجيـش وبأنَّ اسـمه مُنـذ عـدة سـنوات صـار «الحـاج محمـد». كان المُتهمـون في قضيـة «اغتيـال أمـين عُثمـان» عائديـن إلى السـجن بعـد زيـارة اعتادوهـا للمحكمة لحضـور إحـدى الجلسـات عندمـا حـكى لهـم «الحـاج محمـد» عـن روعـة السـجن ومُتعـة القُضبـان، كان يسـتثير حماسـهم وخيالهـم وهـو يكـرر لهـم أنَّ مُعظـم الأبطـال والزعمـاء التاريخيـين دخلـوا السـجون، وعاشـوا سـنوات محرومـين مـن الحريـة. ذكـر لهـم ضرورة توزيـع جميـع المأكولات

والحلويات التي تأتي لهم من ذويهم على جميع المتهمين، وكذا السجائر.

وطلب منهم الرجل تكوين فريق تمثيل لأنَّ أمد المحاكمات ستطول، وبالفعل اقترح عليهم تمثيل مسرحية عن الخليفة هارون الرشيد كتبها خلال أيام الحبس الأولى، وقام بتوزيع الأدوار ليحتفظ لنفسه بدور هارون، ثُم اختار دور السياف لـ«حسين توفيق»، ودور كبير الحجاب لـ«سعيد توفيق»، ودور اسحق الموصلى لـ«عمر أبو يعلى»، ودور رئيس وفد الإفرنج لـ«محمود يحيى مُراد»، ودور قهرمانة لـ«سيد خميس». تبدأ المسرحية بقيام هارون الرشيد بدعوة الجارية قهرمانة للغناء فتشدو بأغاني تمجيد في قوة وعدل الخليفة ليطرب الحاضرون، ويطلب هارون اعادة الغناء مرة واثنتين وثلاثا، ويقاطعه كبير الحجاب مستئذنا في دخول وفد الإفرنج، ليدخل رئيس الوفد ومعه هداياه طالبًا من الخليفة التعاون مع بلاده فينفعل مسرور السياف، ويقول للخليفة إنَّ الإجانب لا يحفظون العهود ولا يحترمون الحدود، ويطلب أن يسمح له الخليفة بقطع رأس رئيس وفد الإفرنج، فيُهدئ الخليفة من غضب سيَّافه ويؤكد له أنَّه لا يسمح بقطع رأس رسول، ثُم يأمر رئيس الوفد بالمغادرة فينطلق متبوعًا بشتائم ولعنات حاشية الخليفة، لتعود قهرمانة للغناء مرة أخرى.

بعد بدء المحاكمات صار السجن أشبه باستراحة مُنعزلة فيها جميع وسائل الراحة والترفيه، فكان المتهمون يقضون الساعات في تبادل النكات وسرد حكايات الغرام ولعب الشطرنج، وكان «الحاج محمد» بشوشًا ومُقبلًا على الحياة، مُستمتعًا بها، وهو ما دفع «حسين» إلى محاولة تقليده مُبديًا كثيرًا من المرح المُصطنع. وفي يوم طلب «الحاج محمد» حلويات من أحد أكبر المحلات ودفع حسابها، وأخبرهم أنَّ تلك الحلويات للاحتفال بنقل السفير لامبسون من مصر، مُكررًا أنَّ هذا الرجل كان أسوأ ممثل إنجليزي منذ بدء

الاحتـلال.

بـدأ «السـادات» كشـخصية سـاحرة قـادرة عـلى طمأنـة الجميـع بـأنَّ رجالـه في كُل مـكان سيفسـدون كُل شيء خـاص بالقضيـة، وسـيخرج جميـع المتهمـين دون عقوبـات تذكـر نظـرًا لحداثـة أعمارهـم. ومـع الوقـت تجـاوب المتهمـون مـن أعضـاء التنظيـم مـع مـرح ولامبـالاة السـادات، غـير أنَّ «نجيـب فخـري» الـذي رأى أنَّـه دُفـع بـه دفعًـا ضمـن المُتهمـين كان يشـعر بالنـدم لأنـه لـم ينخلـع تمامًـا عـن «حسـين» وأصحابـه عندمـا تورطـوا في أعمـال القتـل، وظـل عـلى علـم بمـا يفعلـون ومشـاركًا في التخطيـط دون التنفيـذ.

وذات يـوم فوجـئ المتهمـون برؤيـة شـاويش ضخـم الجُثـة، قـاسي الملامـح، وحـاد النظـرات في حـوش التريُـض، ودنـا منهـم سـائلًا إن كانـوا هُـم المُتهمـين بقتـل أمـين باشـا عثمـان فهـز «محمـود مـراد» رأسـه بالإيجـاب، ففوجـئ بـه يُخـبره أنَّـه عشـماوي. ولمـا التـف حولـه بـاقي الجماعـة قـال لهـم إنَّـه ينتظـر الحُكـم عليهـم بفـارغ الصـبر لأنَّـه مـرَّ عليـه وقـت طويـل لـم يُنفّـذ فيـه حُكـم إعـدام، ثُـم بـدأ يصـف لهـم كيفيـة تنفيـذ الإعـدام واصفًـا لهـم سُـمك الحبـل وطريقـة لفـه حـول الرقبـة، ولحظـة رفـع مقبـض طبليـة الإعـدام، وشـهقة المُذنـب وهـو يلفـظ روحـه، بعـد أن تتكـسر رقبتـه نتيجـة الشـنق. وحـكى لهـم كيـف كان مُسـاعدًا لعشـماوي وقـت إعـدام شـفيق منصـور في قضيـة الاغتيـالات قبـل أكـثر مـن عشريـن عامًـا وتابـع بـكاء المُذنـب عنـد تغطيـة عينيـه بكيـس أسـود.

كان لوقـع الكلمـات في نفـوس الشـباب الصغـير أثرهـا الموجـع إذ بـدأوا لأول وهلـة يتخيلـون أنَّـه مـن الـوارد الحكـم عليهـم بالإعـدام، ولـم يسـتطع «حسـين» رغـم دعابـات «السـادات» أن يمحـو مـن رأسـه مشـهد المشـنقة وبذلـة الإعـدام الحمـراء وهـي تلتصـق بجلـده. كان يـرى أنَّـه لـم يُحقـق بعـد مـا تصبـو إليـه نفسـه مـن إشـعال الثـورة وقيـادة البـلاد

وتحقيـق العـدل والمساواة عـلى الأرض الطيبـة الـتي أحبهـا رغمًـا عنـه. فكَّـر كثـيرًا في أمـه الملهوفـة عليـه دائمًـا والمُنصاعـة لمطالبـه والمُـبررة لأفعالـه أمـام والـده، وشـعر كـم هـي تُحبـه، لكنَّـه لا يُبادلهـا ذات الشـعور رُبمـا لجذورهـا التُركيـة أو تكبُرهـا عـلى الخـدم والبسـطاء. راجعـت ذاكرتـه مشاهد والـده وهـو يؤنبـه مـرارًا عـلى إهمالـه لدروسـه، مُسـتقرئًا بـين عينيـه نظـرات حنـان مكتـوم، ومُقنعًـا نفسـه بـأنَّ الأب مهمـا كان حُبـه لأبنائـه يجـب أن يبـدو قاسـيًا حـتى تسـتقيم لـه القيـادة، وهـو نفـس حـال الزعيـم الـذي لابـد أن يحمـل قـدرًا مـن الحـدة حـتى يتسـنى لـه تنفيـذ أفـكاره. تذكـر «حسـين» وجـه «سـناء» شـقيقة صديقـه وزميلـه في الكفـاح «محمـود مـراد» وتسـاءل إن كان سـيراها مـرة أخـرى أم لا؟ وهـل هـي مُعجبـة ببطولتـه؟ هـل تشـتاق لرؤيتـه كمـا يفعـل؟ قـال إنَّ الحُـب كثـيرًا مـا يختنـق في بـلاد القهـر وأزمنـة الكفـاح، لكنـه لا يُمكـن أن ينخلـع تمامًـا عـن النفـس الإنسـانية لأن اللـه خلـق لـكل إنسـان قلبًـا، وزرع في كل بـني البـشر مشـاعر وأحاسـيس. كان يعلـم أنَّ علاقتـه بـ«ميمـي» لـم تكُـن علاقـة حُـب لكنـه كان يشـعر بنـوع مـن الألفـة معهـا، وبحالـة مـن الاعتيـاد والرضـا تجاههـا. تـرى هـل هـي سـعيدة الآن وهـي مُسـتلقية تحـت ضابـط في البوليـس السـياسي تـئن وتتـأوه تلـذُذًا؟ هـل تسُرهـا قُبلاتـه وهـل تـذوب بـين ذراعيـه مثلمـا كانـت معـه؟

مـرَّت الأيـام بطيئـة، مُملـة، بين جلسـة وأخرى نقاشـات حـادة ومفاجآت عـدة. تـوفي وكيـل النيابـة المسئول عـن القضيـة فجـأة، فتم انتـداب غيره ليحـلّ محلّـه، في الوقـت الـذي تتابعـت فيـه أحـداث فلسـطين بسرعـة بعـد إعـلان اليهـود قيـام دولـة إسرائيـل واعـتراف الرئيـس الأمريـكي ترومـان بالدولـة الجديـدة. كانـت الصحـف تنـشر أنبـاء المذابـح المرتكبـة مـن جانـب عصابـات اليهـود ضـد السُـكان العـرب العُـزل، داعيـة لنـصرة الشـعب الشـقيق والتطـوع لقتـال اليهـود، بينمـا اجتمعـت الحكومـات العربيـة لتنسـيق التعـاون والتدخـل بجيوشـها في فلسـطين. قـرأ «حسـين» لزملائـه مقـالًا لكاتـب بروزاليوسـف يدعـو النـاس للتطـوع في فلسـطين،

وعلّـق «السـادات» بـأنَّ مَـن فشـل في طـرد المُحتلـين عـن بـلاده لا يُمكـن أن يطـرد اليهـود عـن فلسـطين. شـعر «حسـين» أنَّ السـجن يحجـزه عـن المشـاركة في قتـال اليهـود الأوغـاد مُقتنعًـا أن كُل مـا تفعلـه الحكومـات العربيـة وحكومـة بـلاده مـن بينهـم مُجـرد تمثيـل في تمثيـل مثلمـا هـو كائـن في مسرحيـة هـارون الرشـيد، وقـرر أن بقـاءه في السـجن سـينتهي بـه إلى المـوت حـتى لـو لـم يُحكـم عليـه بالإعـدام، لأنَّ حرمانـه مـن ممارسـة دوره الـذي اختـاره لنفسـه في الحيـاة يمثـل حُكمـا بنهايتـه كبطـل ومناضـل. هكـذا فكّـر قبـل أن يخلُـد للنـوم في العنـبر رقـم 10 في سـجن الأجانـب.

***

عـاد «توفيـق بـك» إلى منزلـه بعـد سلسـلة إجـراءات خاضهـا هـو وعـدد مـن المحامـين للسـماح لابنـه المحبـوس في قضيـة اغتيـال «أمـين عثمـان» بالـتردد عـلى عيـادة طبيـب الأذن والحنجـرة بنـاء عـلى شـكوى تقـدم بهـا. أخـبر زوجتـه أن «حسـين» سـيكون بـين ذراعيهـا خـلال سـاعات، ثُـم سـيترك مـصر نهائيـا بعـد ذلـك للإفـلات مـن مـوتٍ محتـوم. سرت دمـاء السـعادة في شرايـين السـيدة «سـميرة»، وشـعرت باسـترداد الحيـاة بعـد شـهور مـن الحسرة والقلـق عـلى مصـير بكريهـا المشـوش نفسـيًا. اسـتفسرت منـه عمـا جـرى فأخبرهـا أنَّ ضابطًـا مـن البوليـس السـياسي زاره قبـل أيـام ونقـل لـه تقديـر الـسراي لوطنيـة نجلـه وتشـكيل مجموعـة عمـل لإنقـاذ حياتـه وتهريبـه خـارج البـلاد. في البدايـة لـم يُصـدق «توفيـق بـك» حـتى أقسـم لـه الضابـط أنَّ مـا يقولـه حـق، وأنَّـه يفعـل ذلـك دون علـم رؤسـائه في العمـل، وبتوصيـة خاصـة مـن جلالـة الملـك شـخصيًا. كان «توفيـق بـك» قـد سـعى لـدى عـدد مـن الأطبـاء النفسـيين لاسـتخراج شـهادات تفيـد عـدم مسـئولية ابنـه «حسـين» عـن أفعالـه بعـد أن أكـد

لـه المحامـي الكبـير الـذي لجـأ إليـه صعوبـة إفـلات ابنـه مـن حُكـم الإعـدام خاصـة أنـه شـبه متلبـس.

سـألته السيدة «سـميرة» كيـف سـيهرب ابنهـا، فأشـار إلى الحمـام قائـلًا إنَّـه أمـر بخلـع حديـد نافذتـه ليعـبُر الهـارب إلى الفنـاء الخلفـي للحديقـة وهُنـاك سـينتظره ضابـط البوليـس السـياسي بسـيارته ليأخـذه إلى مقـر آمـن لحـين ترتيـب سـفره خـارج القطـر. بـدت مُبتهجـة، مُعلنـة أنَّ اللـه اسـتجاب لدعواتهـا لإنقـاذ ابنهـا الحبيـب، مُكـررة أنَّهـا عـلى يقـين بأنـه سـيتعلم مـن تجربتـه وسـيُصبح ابنًـا يبعـث عـلى الفخـر.

مـرَّت ثـلاث سـاعات كالدهـر، وصـل بعدهـا «حسـين» بصُحبـة ضابـط وعسـكري بعـد أن ذهـب معـه إلى عيـادة طبيـب الأنـف والحنجـرة، ثُـم ترجـاه أن يتنـاول غـداءه في البيـت، بينمـا غـادر «توفيـق بـك» حـتى لا يبـدو مُتهمًـا بالتخطيـط لتهريـب ابنـه. بـدا الضابـط كمـال الديـن عـلي مُغتبطًـا وهـو يُشـاهد فرحـة السـيدة سـميرة برؤيـة ابنهـا واحتضانـه بـين ذراعيهـا، وتذكـر التوصيـة الـتي تلقاهـا مـن رئيسـه المُبـاشر بعـدم التضييـق عـلى «حسـين» خـلال اصطحابـه لزيـارة الطبيـب، لـذا فقـد اسـتجاب لرجائـه بالمـرور عـلى والدتـه المريضـة قبـل العـودة للسـجن. شـعر بالامتنـان لإلحـاح والـدة حسـين لتنـاول الغـداء معهمـا، واعتـذر مؤكـدا ضرورة العـودة قبـل الخامسـة مسـاء التزامًـا بالتعليمـات، ثُـم قبـل أخـيرًا أن يتنـاول فنجانـا مـن القهـوة المضبـوط قالـت السـيدة إنَّهـا سـتعدُه بنفسـها. نظـر الضابـط إلى «حسـين» فوجـده مُسـتكينًا كالعـادة، ينظـر لأسـفل، فتسـاءل إن كان نادمًـا عـلى مـا فعـل أم إنـه كمـا يـرُدد دائمًـا بـريء وقـع ضحيـة عمليـة تلفيـق مُنظمـة قـام بهـا إبراهيـم إمـام. قـال لنفسـه إنَّ «إبراهيـم إمـام» رجـل بوليـس قـوي وثعلـب ماكـر لكنَّـه شريـف بالدرجـة الـتي تمنعـه مـن تلفيـق اتهـام كهـذا لـبريء. لحظـات ورأى فنجـان القهـوة يتقـدم بـين يـدي السـيدة «سـميرة»، ذات الوجـه البشـوش الـذي لا يتناسـب أبـدًا مـع الظـروف المُحيطـة بابنهـا. خمّـن

أنَّ سعادتها برؤية ابنها منحت وجهها البشر والحيوية فبدت كزهرة بنفسج جميلة. رمقه «حسين» بنظرة استعطاف قبل أن يسأله في أدب جمّ:

ـ هل تسمح لي بدخول الحمام؟

رمى باب الحمام المواجه له بنظرة فاحصة سريعة قبل أن يُجيب:

ـ تفضَّل. لكن لا تتأخر سنغادر خلال ثلاث دقائق.

ـ كافية.

نطق «حسين» وهو يعي أنها كافية لتنفيذ ما أنبأه به والده عبر رسول يعمل في السجن. ذهب إلى الحمام وأوصده خلفه وبسرعة تدلَّى من نافذته ليمر إلى الفناء الخلفي بعيدًا عن العسكري المُصاحب للضابط المنتظر في السيارة أمام باب البيت. قفز من السور بسرعة ليجد أمامه سيارة سوداء كاديلاك ففتح بابها لتنطلق بعيدًا مانحًا السائق نظرة استفسار.

شعرت السيدة «سميرة» بضيق الضابط الذي نادى بصوتٍ عالٍ:

ـ تأخرنا يا حسين.

قامت بسرعة لتجلب للضابط ألبوم صور لابنها عندما كان صغيرًا وهي تقول:

ـ سأعرض لك صورًا عجيبة لحسين وهو طفل صغير، وستعلم يقينًا أنَّه لا يُمكن أبدًا أن يقتل فرخة.

ابتسم في دبلوماسية، وحاول التملص، لكنَّه انصاع تحت إلحاحها مُستغربًا كيف لسيدة في مثل ظروفها أن تتحلَّى بكل هذه الصلابة والقوة. جاراها في تأمل الصور للطفل اللاهي بكرة، والجالس وسط أقرانه في احتفال أشبه بعيد ميلاد، والمُرتدي لبذلة وطربوش لا يُناسبان مَن هو في العاشرة من عُمره، وتابعها مُبتسمة وهي تُقلّب

صفحـات الألبـوم أمامـه واحـدة وراء واحـدة. تأخـر «حسـين»، فاسـتثقل الضابـط الوقـت، وقـال لسـيدة البيـت:

ــ أنا آسف يا هانم. يجب أن نتحرك الآن.

ثُم نادى بصوتٍ عال:

ــ حسين. تأخرنا يا حسين.

كـرَّر النـداء، فأشـارت السـيدة «سـميرة» لصـورة أخـرى، لكنـه سـمع دبيـب القلـق في نبضـات قلبـه، فقـام مُسرعًـا ليطـرق بـاب الحمـام دون مُجيـب، فضربـه بقدمـه بقـوة لينفتـح عـلى خـواء. نظـر إلى النافـذة المفتوحـة، ثُـم قـرأ في عيـني السـيدة نظـرة طمأنينـة وانتصـار فـصرخ بصـوتٍ عـالٍ:

ــ هرب. خدعتموني.

وأخـرج مُسدسـه وجـرى في أنحـاء البيـت مفتشًـا يمينًـا ويسـارًا، ودخـل الغـرف لينظُـر تحـت الأسرَّة ويفتـح دواليـب الملابـس ثُـم خـرج إلى الحديقـة وجابهـا، وصرخ في العسـكري الواقـف أمـام البـاب إن كان قـد رأى «حسـين»، فنفـى، فعـاد إلى البيـت وقـال لصاحبتـه:

ــ سأطلق الرصاص على رأسي إن لم تُخبريني الآن مكان حسين.

ــ اهدأ.

قالتهـا في بـرود، لكنَّـه واصـل الـصراخ مهـددًا بالانتحـار، ممـا دفعهـا أن تُديـر قُـرص التليفـون سريعًـا طالبـة مـن زوجهـا الحضـور بسرعـة.

في الوقـت نفسـه كان «حسـين» قـد هبـط أمـام إحـدى البنايـات في شـارع قـصر العيـني، عندمـا قـال لـه السـائق:

ــ في هـذا البيـت سـتصعد إلى الطابـق الثالـث، سـتجد البـاب مفتوحًـا، ادخـل دون كلام وانتظـر التعليمـات.

ضربـه رصاص الدهشـة، وكـرر سـؤالًا طرحـه مـرارًا خـلال الطريـق مـن مـصر الجديـدة إلى قـصر العيـني دون مجيـب:

ـ مَن أنت؟

ابتسم الواقف أمامه، وقال في ثبات:

ـ سأقول لك الآن. أنا اليوزباشي محمود موسى من البوليس السياسي، لقد قُمنا بتهريبك تنفيذًا لتعليمات جلالة الملك. إنَّه يُقدّر وطنيتك، ويُقدر أنَّك خلصت مصر من أحد الخونة. اصعد الآن، ستجد كُل شيء على ما يرام.

لم يُصدق، وجرَّ ساقيه ثلاثة طوابق نصف مُظلمة ليدخل إلى شقة واسعة مؤثثة أثاثًا كلاسيكيًا فريدًا. شاهد بيانو خشبيًا كبيرًا، وتماثيل نُحاسية بديعة، وبارًا خشبيًا، تمتد عليه عدة مقاعد مستديرة، وصالونًا ذهبيًا ضخمًا. جلس مُستغربًا، فوجد شابًا أبيض البشرة، متوسط القامة له عينان عسليتان، صافحه في اهتمام وقال له:

ـ إحسان.

ـ أهلًا.

ـ هذه غرفتك. أرجوك لا تخرج منها أبدًا، في الصباح سيأتي الخادم، وهو يعلم أنَّ هذا الغرفة مغلقة على متعلقات والدي ولا يفتحها. لكن لا تُحدث صوتًا. سأمرّ عليك كُل مرة في الصباح ومرة في المساء. وسأجلب لك كُل ما تحتاج.

سحب يدُه الدافئة وأشار إلى الغرفة قائلًا:

ـ ارتاح الآن. وأغلق الباب من الداخل.

ابتسم وشعر بحاجة ماسة للتدخين، ونظر إلى صاحب البيت وسأل:

ـ هل لديك سجائر؟

ـ لا. لكنَّك ستجد سجائرك على السرير داخل الغرفة.

الفصل الثاني
دمشق

هتفت غير مُصدقة:

ـ حسين.

واقفًا بملابس ضابط سوداء أمام باب الشقة المُنفتح، لاهثًا من صعوده سريعا على السلالم، زائغًا بعينين قلقتين تخوفًا من صاعد أو هابط. هكذا رأته سناء بعد أن توقعت ألف طارق وطارق لباب شقتها سواه.

ـ هل أدخل؟

سألها، فأسرعت لتفتح الباب وهي تهتف:

ـ تفضَّل.

دلف بخطوات مُتعبة مُتذكرًا نصيحة صديقه «سعد كامل» الذي التقاه مُتخفيًا ألا يجلس في مكان أكثر من نصف ساعة على الأكثر، خاصة أنَّ عيون «إبراهيم إمام» تبحث عنه في كل شبر يتوقع مروره به. منحها نظرات إعجاب طاغية مُتمنيا اعتصار جسدها النحيل بين ذراعيه. قالت له:

ـ قرأت خبر هروبك، وتوقعت أن تذهب إلى أي مكان إلا أن تأتي هُنا؟

جلس مُتفرسًا في وجهها الأرق لاثمًا بخياله تلك الشفتين الرقيقتين، متذكرًا أنف زميله «محمود مراد» المُشابهة لهذه الأنف، ثُم سألها:

ـ لِمَ؟

قالت:

ـ لأنك لم تزرنا من قبل، خاصة بعد أن انقطع والدك عن السؤال علينا بعد وفاة ماما.

ابتسم وهو يرمقها، ثُم قال:

ــ كُنت مُخطئًا.

ــ والدتك كانت دائمًا لا تحب زيارة خالي توفيق لنا.

واصل التحديق في عينيها وقال:

ــ هي مُخطئة. دائمًا مُخطئة. المهم يا سناء الخطأ يمكن تصحيحه، وهذا هو دورنا. أن نصحح أخطاء آبائنا.

هزَّت رأسها مبدية التفهم، ثُم قالت:

ــ لكن لا يُمكن تصحيح خطأ بأخطاء أكبر.

ــ لا أفهم.

وقفت وسألته:

ــ ماذا تشرب أولًا؟

ــ لا وقت يسمح بشراب. أمامي خمس وعشرون دقيقة، بعدها ستكون السيارة مُنتظرة للمغادرة.

ــ إلى أين يا حسين؟

ــ خارج مصر. لكن لا عليك لقد جئت لأمر آخر. قُولي لي أولًا ماذا تقصدين؟

جلست مرة أخرى، وقالت بهدوء:

ــ أنا لا أجد وصفًا لما فعلتموه أنت ومحمود ومَن معكم سوى الجريمة. لقد قتلتم روحًا.

ــ قتلنا خائنًا. خان بلده وناسه و...

ــ ليس من حقكم. القتل لا يعني سوى القتل. لقد تألمت عندما رأيت صورة عائشة ابنة أمين عثمان في الصُحف وهي تبكي والدها.

أخرج سيجارة وأشعلها وقال لـ«سناء»:

ــ اسمعي يا سناء. كُل الأعداء بشر لهم أبناء وزوجات وعائلات، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّهم ليسوا أعداء. في بعض الأحيان فإنَّ القتل

ضروري لخدمـة الأوطـان.

ــ أنـا أكـره الـدم عمومًـا، والعنـف لا يحقـق اسـتقلالًا، والقتـل لا يُحـرر بلـدًا.

نفثّ خيطًا طويلًا من الدُخان في الهواء وقال لها:

ــ أنـتِ مازلـت صغـيرة لا تعرفـين مـاذا يفعـل الإنجلـيز وأعوانهـم بالمصريـين الغلابـة. إنَّهـم يروننـا جميعًـا حـشرات وأغبيـاء وكسـالى، ولا يتصورونـا سـوى خـدم لهـم. لـو لـم نقتلهـم سـيقتلوننا.

ــ غـير صحيـح يـا حسـين. والدليـل أنَّ كثـيرا مـن المصريـين الناجحـين وصلـوا لأعـلى المراتـب ولـم يتعرضـوا لقتـل أو اضطهـاد أو تعذيـب.

تذكَّـر حديـث الصحفـي «إحسـان» الـذي اسـتضافه في بيتـه، عندمـا قـال إنَّـه لا يقـرّ مـا فعلـه، لكنَّـه يـرى أنَّ الواجـب يدفعـه دفعًـا لحمايتـه وإنقـاذه لأنَّـه لا يسـتطيع رد مَـن يسـتجير بـه، وقـد اسـتجار بـه «سـعد كامـل» المحامـي الـذي يعمـل ضمـن شـبكة مهمتهـا تهريبـه. كـرر «إحسـان» أنَّـه لا يجـد بطولـة في قتـل مـصري، وأن الأولى قتـال اليهـود الذيـن سـحقوا شـعبًا وسرقـوا أرضـه.

قال «حسين» لـ«سناء»:

ــ هـل تتصوريـن أنـي حملـت روحـي بـين كفـي وخاطـرت بنفسـي لأجـل وهـم. إنَّـا نعـرف جيـدًا أننـا مُعرضـون للمـوت والسـجن والتعذيـب، لكننـا نؤمـن بمـا نفعـل ونعتقـد أنَّ الخـلاص لا يتحقـق دون رصـاص. اسـمعي يـا سـناء. يـا ابنـة عمـتي. لقـد جئـت مـن أجـل شيء آخـر، أنتظـر إجابـة سريعـة عليـه قبـل أن أغـادر.

صمت قليلًا وهو يلحظ آثار كلماته في عينيها، ثُم قال:

ــ إنـي أودُّ أن تكـوني لي. أشـعر بانجـذاب حقيقـي ناحيتـك، وأتمـنى لـو تقبلـين الـزواج مـني. سأسـافر غـدًا مسـاءً، ولـو وافقـتِ سـتكونين معـى. سـنبني بيتًـا ونـ..

قاطعته بسرعة:

ـ سافر.

طعنة مُباغتة قبلها على مضض، قبل أن تستكمل ذبح فريستها:

ـ ألا تعلم يا حسين أنني مُرتبطة؟

ـ ماذا؟

ـ نعم أنا مرتبطة بابن خالتك نجيب، وهو شخص طموح ومُثقف وأحبه ويحبني وقد تورّط في مغامراتك رغمًا عنه.

لاح له وجه «نجيب» وهُما صغيرين وهو يؤدي دور التركي ويتلقى لكماته، ثُم تذكر حديثه معه عن أول فتاة، وأول قُبلة، فقام مُستئذنًا، لكنَّها قالت له:

ـ حسين. أنت تعرف يقينًا أن مصر والغلابة الذين تتحدث عنهم لا يستفيدون مما تفعل بأي صورة. أنت تدعي التضحية، وتبحث عن مجد شخصي.

ورفعت إحدى الصُحف المُلقاة على الأريكة لتُكرر:

ـ أنت سعيد بصورك في الجرائد، وبالمكافآت المُجزية التي تُرصد للوصول إليك. أنت بطل كاذب يا حسين.

ـ لا.

صرخ فيها، وقام من فوره بعد أن شعر بالدم يتدفق في رأسه، ثُم فتح باب الشقة ليهبط مُسرعًا دون أن ينطق بكلمة. كان يشعر أنَّ الحسناء التي أحبها عزَّته، وأسقطته أرضًا قبل أن تطلق عليه رصاص سخريتها. تلك الجبانة المُطأطئة الباحثة عن زوج مُثقف، طموح في زمن قاهر ووطن مقهور. تذكر كلمات «إحسان» له بأنَّ النساء هُنَّ السؤال الذي لا يستطيع بشر أن يُحدد له إجابة واحدة. ظل يمشي ببطء حتى اقتربت سيارة سوداء منه، ثُم وقفت، ففتح بابها ليجد اليوزباشي «محمود موسى»، فاستغرب خاصة أنَّ «سعد كامل» هو

مَن قام بتوصيله، لكنَّ الضابط أوضح بهدوء:

ــ التأمين يتطلب تغيير السيارة والسائق. تصوّر، لقد استدعى إبراهيم إمام صديقنا إحسان ويبدو أنَّه يشُك فيه. ستبات اليوم في بيت في العباسية وفي الصباح سأقلك إلى السويس، ومنها ستسافر إلى العقبة، وستجد في انتظارك ضابطًا صديقًا سيعتني بشئونك.

هزَّ رأسه وقال:

ــ خسارة. حسبت أنَّ إبراهيم إمام يعمل لصالح الملك.

ــ للأسف لا.

***

أفلت ذو الوجه الصارم من ثُقب إبرة. في الميناء تسلل مساءً ليرقُد مع الحقائب في المخزن ذاته الذي لا يُشم منه سوى رائحة الجلد. مضى «حسين» مُستسلمًا لمسار رسمه له آخرون لا يعرفهم ولا يعلم دوافعهم الحقيقية. فكّر. كيف يُمكن لملك مُنسحق الشخصية يغلُب عليه طيش الأطفال مثل «فاروق» أن يُسخر رجالًا وشرطيين وبيوتًا وسيارات وأموالًا ليُساعدوه على الفرار من المُحاكمة! ما السبب المُباشر في أن يتحول حاكم يُفترض أنه له سُلطات إلى العمل السري بعيدًا عن القانون؟ هل هو يرى في قتل «أمين عثمان» عملًا بطوليًا بالفعل؟ ولو كانت الضحية «أحمد ماهر» أو «النقراشي» أو غيرهما، هل كان سيفعل الأمر نفسه؟

إنَّ جميع الساسة في تصور «حسين» ملوثون، ضالون، يُقدّرون الإنجليز وينحنون أمام طلابهم، وحتى المليك الكاره للإنجليز، هو في حقيقة الأمر مجرد شخص خاضع وذليل أمام إرادة السفير الإنجليزي الذي يتدخل في حياته نفسها دون أن يشعره ذلك بشيء

مـن الخجـل. أي مليـك تافـه هـذا؟ وأيـة شرذمـة جاهلـة تتبعـه دون وعي؟ سـأل نفسـه، مُجيبًـا أنَّ الأوضـاع المقلوبـة في بعـض الأحيـان تفيـد، وإلا لمـا خلُـص عُنقـه مـن حبـل عشـماوي.

أشـعل سـيجارة، واسـتعاد نـص الخطـاب الـذي كتبـه للصحفـي إحسـان لينـشره في مجلـة روزاليوسـف وقـال فيـه إنَّـه قـرر التطـوع للقتـال في فلسـطين أمـام عصابـات الصهيونيـة واهبًـا حياتـه لنـصرة الشـعب الفلسـطيني العـربي.

تذكـر «حسـين» لـوم «سـناء» الموجـع، وردهـا القـاسي عليـه، وفكَّـر أنَّهـا أنـثى قبـل أي شيء، ترغـب في الاسـتقرار، وتحلـم بالبيـت السـعيد، والـزوج العـصري. هـي فتـاة رقيقـة نعـم، لكنَّهـا لا تنظـر لمجتمـع محيـط، ولا تهتـم بوطـن مسـلوب. إن «نجيـب» سـيكون مناسـبًا لهـا، بهدوئـه واتزانـه وانفتاحـه عـلى الحيـاة، وبثقافتـه ومرحـه وحُبـه للفنـون. أمـا مَـن تختارهـم الأقـدار ليغـيروا التاريـخ ويبدلـوا مسـارات الأمـم فـلا حـظَّ لهـا في مثلهـم، ولهـؤلاء ـ بـلا شـك ـ نوعيـة خاصـة مـن النسـاء، تتحمـل الشـدائد، ولا تعبـأ بالمحـن، وتؤمـن بالفـداء والتضحيـة. قـال لنفسـه إنَّـه لا يحنـق عليهـا، ولا يغـار مـن «نجيـب» فكلاهمـا خُلـق لغـير النضـال، وهـذا قدرهمـا.

فكَّـر في «أنـور السـادات» وشـعر أنَّـه يُخفـي عنـه أمـورًا كثـيرة، متصـورًا أنَّـه لا يمكـن أن يكـون مـا جـرى في القضيـة مُجـرد صُدفـة. أن يُـسرق ملـف القضيـة، ويُطلـق النارعـلى الشـاهد الرئيـس، ويُتهـم «إبراهيـم إمـام» بالتلفيـق، ثُـم يُسـمح للمتهمـين بزيـارة الأطبـاء ليهـرب بسـهولة ويُـسر قبـل أيـام مـن النطـق بالحُكـم، ثُـم يجـد يـد المُسـاعدة تمتـد إليـه مـن داخـل البوليـس السـياسي نفسـه، وبعيـدًا عـن إرادة ثعلبـه الداهيـة «إبراهيـم إمـام». رنـا عـبر قُمـرة صغـيرة بمخـزن الحقائـب لليـل البحـر المُظلـم، مُتذكـرًا مـا قالـه لـه اليوزبـاشي «محمـود مـوسى» بـأنَّ أحـد رجـال الأمـن في العقبـة سـيلتقيه وسـيصاحبه حـتى عمّـان، وهُنـاك سـيرتب

نقلـه إلى الحـدود السـورية بعـد أن يمنحـه هويـة جديـدة.

ليلتـان قضاهمـا مُسـتيقظًا بـلا صُحبـة سـوى السـجائر والذكريـات، حـتى سـمع صفـارات الرسـو، وجلبـة انتهـاء الرحلـة. التحـف بالصمـت حـين فُتـح مخـزن البضائـع كحقيبـة سـفر انتظـارًا ليـد المُسـاعدة، ثُـم شـعر بالطمأنينـة عندمـا سـمع صوتًـا في الظـلام يُهنئـه بسـلامة الوصـول. صافحـه رجـل قصـير القامـة قـدم لـه نفسـه باسـم مـروان، ودعـاه أن يتبعـه بهـدوء، فسـارا معًـا عـبر ممـرات ضيقـة خـارج القاعـة الرئيسـية بالمحطـة، واجتازاهـا بعـد تعرجـات يمينًـا ويسـارًا حـتى وصـلا إلى دائـرة الجمـارك حيـث منحـه هُنـاك أوراق هويـة وعلبـتي سـجائر وتذكـرة قطـار ومفتـاح شـقة وورقـة مدوّنًـا فيهـا أحـد العناويـن في عمّـان. نظـر لاسـمه الجديـد فوجـده «حسـين الـراوي»، فحمـد اللـه أن أبقـوا لـه «حُسـين» حـتى لا يضطـر عـلى طمـس ماضيـه ومحـو ذاكرتـه. سـأل رفيقه مُسـتفسرًا:

ـ وماذا بعد؟

قال «مروان»:

ـــ ستذهب إلى العنـوان المـدوّن أمامـك، وسـتعيش كلاجـئ فلسـطيني مـن خـان يونـس حـتى ينسـاك المطـاردون أو يتوقـف البحـث عنـك مثلمـا اتفقـت مـع «محمـود بـك مـوسى». وهُنـا، فـإن مُهمـتي انتهـت، لكـن نصيحـتي الوحيـدة لـك هـي أنـك في بلادنـا تسـتطيع دائمًـا الفـرار مـتى أردت ذلـك، مـا دمـت قـادرًا عـلى أن تدفـع.

شـكره «حسـين»، ومـضى ليبـدأ حيـاة جديـدة كغريـب فـرّ مـن مذابـح اليهـود في أرض فلسـطين.

***

عمّـان بـلا قلـب. لا أصدقـاء ولا رفـاق يُخففـون وحشـة المنفـى وكآبـة العُزلـة. عـبر التليفـون طمـأن أُمـه بوصولـه إلى بـر أمـان بعيـدًا عـن مُلاحقـات البوليـس والخونـة وصائـدي المُكافـآت. علِـم منهـا أنَّ ثمنـه لـدى الحكومـة ارتفـع لــ10 آلاف جنيـه بعـد أن صـدرت الأحـكام مُخففـة عـلى جميـع المُتهمـين. كان نصيبـه حُكمًـا غيابيًـا بعـشر سـنوات مـع الشـغل، بينمـا كان نصيـب «محمـود مـراد» و«محمـود الجوهـري» و«عمـر أبـو يعـلى» و«سـيد خميـس» خمـس سـنوات، وحُكـم عـلى «مدحـت» و«سـعيد» و«محجـوب» بثـلاث سـنوات فقـط، بينمـا أفلـت «السـادات» و«محمـد إبراهيـم كامـل» و«نجيـب» تمامًـا مـن أي عقوبـة.

قالـت لـه أمـه إنَّ عليـه مـتى اسـتقر في مـكان مـا أن يُخبرهـا بعنوانـه حـتى يتسـنى لهـا أن تُرسـل لـه مـا يكفيـه مـن أمـوال. وأخبرتـه أنَّ والـده فخـور بـه، وأنَّـه يُكـرر في كُل مجلـس أن «حسـين» يشـبهه تمامًـا عندمـا كان صبيًـا. لقـد منحـوه يـوم هروبـه نحـو ألـف جنيـه مـصري وصُرة مـن الجنيهـات الذهـب الـتي ربطهـا في تجويفـين صغيريـن بكعـبي حذائـه.

جلـس «حسـين» عـلى أحـد المقاهـى وأمامـه حزمـة مـن الصُحـف مُسـتهلكًا سـاعات الصبـاح في مُطالعـة العناويـن ومُتابعـة آخـر أخبـار الهُدنـة مُلاحظًـا اسـتمرار تدفـق الأسـلحة نحـو العصابـات اليهوديـة في تل أبيـب وحيفـا والفالوجـة. كان الجـنرال «جلـوب باشـا» هـو قائـد الجيـش الأردني يُـصرح بـأن قواتـه أحـرزت انتصـارات مُذهلـة عـلى العـدو، بينمـا كانـت حكايـات المقاهـي تُكـرر أنَّ الجيـش الـذي يقـوده ضبـاط إنجلـيز ينسـحب مـن أي موقـع يتوقـع فيـه نشـوب معـارك حقيقيـة حـتى أنـه تـرك كثـيرا مـن المواقـع الحيويـة دون حراسـة لتسـقط في أيـدي اليهـود تباعًـا. سـمع «حسـين» مـن رواد المقاهـي حكايـة مـا جـرى في قريـة ديـر ياسـين، عندمـا هاجمـت مجموعـة مـن المقاتلـين اليهـود القريـة فجـرًا للاسـتيلاء عليهـا واتخاذهـا نقطـة انطـلاق لقطـع الطريـق عـلى جيـش الفدائيـين العـرب، وفوجـئ المهاجمـون برصـاص ينهمـر عليهـم مـن

أحـد بيـوت القريـة ليـصرع 4 مـن مقاتليهـم، فمـا كان منهـم سـوى أن حشـدوا أكـبر قـدر مـن القـوات المُنظمـة، وحـاصروا القريـة مـن مختلـف الجهـات، ثُـم ذبحـوا نصـف رجالهـا أمـام ذويهـم، واغتصبـوا عـددًا مـن الفتيـات قبـل أن يذبحوهـنَّ في مشـاهد بثـت الرعـب والفـزع في قلـوب الجميـع، حـتى أن صحفيًـا أمريكيًـا كان يُتابـع الحـرب كتـب أنَّ مـا جـرى في ديـر ياسـين مـن وحشـية يُمثـل عـارًا عـلى البشريـة كُلهـا.

شـعر «حسـين» بالجـزع الشـديد وهـو يسـتمع لحـوار بـين فلسـطينيين جلسـا عـلى المقهـى مفـاده أنَّ الجيـوش العربيـة المُحاربـة تشـارك في الحـرب اسـتعراضًا فقـط، وأنـه لا يوجـد قتـال حقيقـي إلا بـين عصابـات اليهـود والفدائيـين المتطوعـين الذيـن يقودهـم الضابـط المـصري أحمـد عبدالعزيـز. قـال في نفسـه سـاخرًا: كيـف يكـون «النقـراشي باشـا» جـادًا في قتـال اليهـود، وهـو يُكـرر كُل يـوم دعـوات الانبطـاح والتزلـف للإنجليـز؟ وكيـف يقاتـل الجيـش الأردني الصهيونيـين وجميـع قادتـه مـن ضبـاط الإنجليـز؟ ثُـم كيـف تجتمـع سـت دول عربيـة لتحشـد معًـا أقـل مـن ربـع عـدد المقاتلـين اليهـود؟ وخلـص إلى أن مـا يجـري مُجـرد تمثيليـة مثـل مـا يصـدر مـن ساسـة العـار في مـصر المحروسـة.

لـو كانـت الأردن بـلاده لمـا نـام ليلـة واحـدة وذلـك الملـك المتـوج بأمـر بريطانيـا والمُدعـي أنَّـه عبـدٌ للـه قابـع عـلى عرشـه. شـعر بكراهيـة شـديدة تجـاه تلـك العينـين الطافحتـين بالمكـر والخديعـة في صـورة الملـك بالجريـدة، ليقـول لنفسـه إنَّ الخونـة دائمًـا يتشـابهون في نظراتهـم، لكنـه عـاد وتذكـر أنَّ عيـني «النحـاس باشـا» تبثـان نظـرات مختلفـة. قـرأ خـبرًا حـول زيـارة الملـك للقـدس بعـد سـقوطها في أيـدي القـوات الأردنيـة وتحتـه كُتـب باللـون الأسـود «جلالـة الملـك عبداللـه ابـن البيـت النبـوي الشريـف». ضحـك «حسـين» مُسـتنكرًا، وهـو يتذكـر حملـة مُشـابهة نشرتهـا الصُحـف والمجـلات المصريـة قبـل عـام زعمـت فيهـا أنَّ نقابـة الأشراف أثبتـت انتسـاب الملـك «فـاروق» لسـلالة النـبي محمـد. كُلهـم

كاذبـون، مُحتالـون، ويتاجـرون بـكُل شيء. الديـن والأخـلاق ومصلحـة الوطـن، أمـا الأبطـال الحقيقيـون فمنفيـون، ومطـاردون، وممنوعـون مـن الحُـب. هكـذا فكَّـر وهـو يُدخّـن سـجائره بنهـم شـديد مُفكـرًا في ضرورة مواصلـة النضـال بـلا هـوادة.

سـمع صوتًـا أمامـه، فـأزاح الجريـدة ليجـد أمامـه شـابًا طويـلًا بملابـس عسـكرية يسـأله في بـرود عـن اسـمه. واصـل رسـم اللامُبـالاة ناظـرًا نحـو جريدتـه دون أن ينبـس محـاولًا قـراءة مـا يـدور بـرأس الرجـل الـذي كـرر سؤاله مـرة أخـرى قبـل أن يُخـبره بأنَّـه مـن نقطـة الأمـن العمومـي بعمّـان وأن السـيد «الليـث» مفتـش الأمـن يطلبـه. مـدَّ «حسـين» يـده ببضعـة وريقـات ماليـة وضعهـا في جيـب العسـكري، ثُـم سـأله:

ــ ماذا يريد؟

ــ إجراء طبيعي للاستفسار عن اللاجئين. أنت تعرف ظروف الحرب.

ــ نعم. اجلس.

قالهـا «حسـين» الـذي اشـتَم رائحـة الخطـر، وتذكَّـر كيـف نصحـه مُسـتقبله في العقبـة، بـأن يدفـع مقابـل الأمـان. هُنـا كُل شيء لـه ثمـن: المعلومـة، والخـبر، والطريـق. مـدَّ يـده في جيبـه، وأخـرج جنيهًـا ذهبيًـا وضعـه أمـام العسـكري سـائلًا إيـاه:

ــ هل أستطيع أن أثق فيك؟

حملـق العسـكري في الجنيـه الذهـبي مشـدوهًا، ونظـر يمينًـا ويسـارًا قبـل أن يـرُد بحـزم:

ــ بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارة جديدة، نفثَّ منها في الهواء، وسأل مُكررًا:

ــ إذن قُل لي بصراحة. لماذا يريدني السيد الليث مفتش الأمن؟

فكَّر العسكري قليلًا، وعاود النظر حوله ثُم قال:

ــ لقـد سـألني عنـك وتحريـت سريعًـا وعلمـت أنَّـك لاجـئ مـن خـان

يونـس، لكنَّـه يظـن أنَّـك تشـبه أحـد المصريـين المطلوبـين في القاهـرة، والمرصـود لهـم مكافـأة سـخية، لـذا فإنَّـه يأمـل أن يُسـلّمك للسـلطات المصريـة ويقبـض الجائـزة.

مـدَّ العسـكري يـده نحـو الجنيـه الذهـبي، لكـن كـف «حسـين» أمسـكت بهـا قبـل أن يقـول وعينـاه تلتمعـان بالغضـب:

ــ اسمع. أنـا الشـخص الـذي يبحـث عنه رئيسـك. سـتأخذ هـذه القطعة ومثلهـا ثـلاث قطـع إن أخرجتـني مـن بلادكم.

ــ إلى أين؟

سأل العسكري، فأجاب «حسين» قائلًا:

ــ سوريا الُحرة.

ابتسم العسكري، وقال:

ــ ليسـت حُـرة تمامًـا كمـا تتصـور. لكـن لا عليـك. السـفر إلى هُناك سـهل للغايـة، جهّـز نفسـك، وسأشـغل عنـك مفتـش الأمـن حـتى تُغادر.

ــ اتفقنا.

***

ثـلاث ليـال قضاهـا «حسـين» في فنـدق الإخـوة بالمارجة بعـد وصوله إلى العاصمـة دمشـق، تلـك المُفعمـة بالحركـة، الصاخبـة بالحديـث، قريبـة الشـبه بالقاهـرة بأزقَّتهـا ومبانيهـا وسـمتها الـشرقي الأصيـل. بعـد ذلـك وجـد دون جُهـد شـقة صغـيرة بحـي الصالحيـة ذي البنايـات القديمـة، والقُبـب الحمـراء، والبوابـات المملوكيـة. شـعر «حسـين» سريعًـا بالألفـة في الشـقة الـتي احتضنتـه بعـد رحلـة هـروب جـبري فـرّ فيهـا مـن عمّـان بمسـاعدة شرطيـين. قـال لنفسـه إنَّ الشرطـة الـتي تمسـك هـي ذاتهـا الـتي

تُفلت وتُهـرِب.

أحـسَّ الشـاب المُطـارد أنَّ دمشـق أقـرب لقلبـه مـن عمّـان، وفكـر أنَّ تلـك الجُـدران تضُـم حنقًـا وغِـلًا ضـد الاسـتعمار ودُعـاة الاستسـلام، وهـؤلاء النـاس يمتلكـون كبريـاءً وأنفـة تجاه كُل مسـتغرب. وذلك المسـجد المجـاور لمسـكنه يضـم رفـات الشـيخ الصـوفي محـي الديـن بـن عـربي الـذي يـذوب دراويـش مـصر في حُبـه. زار «حسـين» حـي السـيدة زينـب، وقـرأ الفاتحـة لهـا في المقـام الكبـير المُقـام لهـا مُندهشًـا كيـف يجـد ضريحًـا لهـا وللحسـين في قلـب العاصمـة السـورية مثلمـا هـو الحـال في القاهـرة.

ومـن مقهـى لمقهـى، ومـن بـار لآخـر اسـتعذب «حسـين» اللهجـة السـورية، وشـعر خـلال أسـابيع قليلـة بأنـه قـادر عـلى التأقلـم معهـا والتحـدث بهـا، وهـو مـا قالـه لـه عـم نظيـم المـصري صاحـب المقهـى الكبـير بالمارجـة، الـذي صـار مـلاذًا مُحببًـا للاجـئ الفلسـطيني المُزيـف.

وذات صبـاح كان «حسـين» يجلـس بالمقهـى عندمـا اقـترب منـه رجـل أنيـق يحمـل حقيبـة صغـيرة مُقدمًـا نفسـه بأنَّـه صحفـي مـصري اسـمه يوسـف عبـاس. كان مـن الواضـح أنَّ الصحفـي المُتطفـل يحـاول مقارنـة هيئـة وملامـح «حسـين» عـلى صـورة لديـه في سـجل الذاكـرة رغـم وجـود شـارب كـث انـزرع بالوجـه المُسـتقبل لنظـرات الشـك. كانـت الضحكـة المُجلجلـة واللهجـة الشـامية الـتي حـرص «حسـين» عـلى الحديـث بهـا تدفـع الصحفـي إلى التراجـع عـن تصـور الشـبه مـع قاتـل «أمـين عثمـان». إنَّ آخـر مشـاهدة لـ«حسـين توفيـق» في مـصر كانـت يـوم هروبـه مـن مسـكنه وهـو بصحبـة ضابـط الشرطـة المُكلـف بحراسـته، وبعدهـا لـم يعلـم أحـد أيـن اختفـى، حيـث ردَّد البعـض أنَّـه ذهـب إلى الصعيـد حيـث أخفـاه بعـض أقاربـه، بينمـا زعـم آخـرون أنَّـه صعـد إلى جبـال الصحـراء مـع المطاريـد مـن المجرمـين وقطـاع الطريـق، وادّعـى آخـرون أنَّ أفـراد بتنظيمـه الـسري قتلـوه وأخفـوا جثتـه ليتحـول إلى أسـطورة.

حاول الصحفي فتح باب للحوار مع «حسين توفيق» حول قضايا الاغتيالات في مصر، فقال له إنه كان شاهد عيان على اغتيال القاضي «أحمد الخازندار» عندما كان خارجًا من المحكمة وفي يديه أوراق قضية، فأطلق عليه اثنان من الشباب النار. ركز الصحفي كلامه إلى مُحدِّثه بأن ذلك كان بعد أسابيع قليلة من الحادث المأساوي لاغتيال أمين باشا عثمان. وردَّ «حسين» مُكررًا حكايات سمعها في عمّان عن مذابح اليهود في فلسطين وضرورة توحد كُل الشعوب العربية لإنقاذها من توحش الصهيونية. ظلّ الصحفي يُحملِق في مُحدثه، ويُكرر بأنَّ حوادث العُنف في مصر اتسعت وتكررت بعد اغتيال «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان، بينما ظلَّ «حسين» يحكي مآسي اقتلاع الأرض من أصحابها في فلسطين ومنحها لليهود تحت حماية المستعمر البريطاني.

بعد ساعات من الكرّ والفرّ لم يجد الصحفي بُدًا من المغادرة، بعد أن يئس في إيجاد خيط واحد يربط اللاجئ الفلسطيني بـ«حسين توفيق» سوى الشبه. دقائق لم تمض على اللقاء حتى وجد «حسين» كفًا تربُت على كتفه في مودة، ليُبصر خلفها رجلًا طويلًا أسمر ذا جبهة عريضة وعينين جاحظتين يقول له:

ـ أحسنت يا أستاذ. أنت دائمًا حاذق.

بلع «حسين» ريقه، مُتفرسًا في المصري الآخر الذي يسعى للإيقاع به، فابتسم وردَّد بلهجة شامية بأنَّ الحرب في فلسطين لم تترك سوى الآلام والحكايا.

ابتسم الواقف، ثُم سحب كُرسيًا وجلس، وهمس:

ـ لا داعي لذلك. حسين أنا أعرفك جيدًا. لا تخف. هُنا أنت في أمان.

ـ أنا فعلًا حسين، لكن أنا من خان يونس ومن عائلة الراوي.

هزّ الرجل رأسه وغمز بعينه اليُمنى وكرر الهمس:

ـ حسين توفيق من مصر.

ثُم قال مُقدمًا نفسه:

ـ أنا عبدالقادر عامر. هل سمعت عني؟

سكت «حسين» محاولًا استلهام ذاكرته دون جدوى، ففكَّر أنَّ عيون المُخبرين وصائدي المكافآت تتبعه من العقبة إلى عمّان ومن عمّان إلى دمشق. تذكّر أنَّ ما لديه من مال قارب على النفاد، وأنَّه لن يصبح قادرًا على دفع المزيد من الرشاوى لهؤلاء المُتطفلين.

نادى «عبدالقادر» النادل وطلب قهوة ثانية، وقال:

ـ هل سمعت عن حوادث تفجيرات الإسكندرية؟

هزَّ «حسين» رأسه بالإيجاب، فقال «عبدالقادر»:

ـ أنا المُتهم الأول فيها، لقد اضطررت للهرب، أنا واثنان من زملائي في العام الماضي، ونحن نعيش هُنا بقليل من المال الذي يُرسله لنا أخي الأكبر.

تذكر «حسين» أنَّه قرأ أخبارًا عن القضية وهو في السجن، ثُم رنَت برأسه كلمات لـ«أنور السادات» بأنَّ هناك مجموعات عديدة تُحارب وتقاوم الإنجليز. شعر بالطمأنينة تفيض من عيني جليسه، الذي صار أكثر ودًا وهو يتحدث بصراحة شديدة مُقررًا أنَّهم يبحثون عن قائد، قوي، وصلب، وماكر.

قال «عبدالقادر»:

ـ اسمع يا حسين. أنا وزميلاي مُصطفى كمال ومحمد المرصفاوي هربنا بحرًا إلى سوريا، وحاولنا الانضمام لجيش الإنقاذ الذي يُحارب في فلسطين، لكنَّ عيون المُخابرات هُنا تتبعنا، وقد حذرونا مرارًا من أنَّ المشاركة في أي عمل ستدفعهم لترحيلنا إلى مصر.

أذّن أذان الظهر بصوتٍ جميل عذب أثار الذكرى في نفس حسين، مُسترجعًا ليالي صيد الجنود في شوارع القاهرة، ولقاءات جروبي،

واجتماعـات حجـرة عثمـان الجنايـني، وقُبـلات ميمـي المحمومـة عـلى كورنيـش النيـل. طـاف برأسـه وجـه السـادات وهـو يتحـدث عـن الفـداء، وعـين إبراهيـم إمـام وهـي تُخفـي خُبثًـا وخداعًـا، وطربـوش النحـاس وهـو يتراقـص فـوق رأسـه عندمـا وقـف غاضبًـا يُـدلي بشـهادته في قضيـة أمـين عثمـان.

نظر بامتنان إلى «عبدالقادر» وسأله:

ـــ لِـمَ تـراني مُناسـبًا لقيـادة مجموعتكـم رغـم أنَّـك أدرى مـني بمَـن معـك؟

ردَ «عبدالقادر» بنظرة طمأنة وقال سريعًا:

ـــ أنـت اسـم وتاريـخ وعمـل حقيقـي. لقـد كُنـا نتابـع قضيتـك بتعاطـف ومحبـة، وأنـت والسـادات كُنتمـا لنـا القـدوة. هـل تعـرف. سـيفرح مصطفـى ومحمـد بشـدة لـو علمـا أنـني وجدتـك هُنـا في سـوريا. سـنضم أعضـاء جُـددا ونوجـه نضالنـا ضـد الصهاينـة. هُـم أشـد خطـرًا عـلى الأمـة.

شـعر «حسـين» أنَّـه وُلـد مـن جديـد. أبـصر سـلالم المجـد تقـترب مـن حذائـه، وشـاهد «أنـور السـادات» يبتسـم مُشـجعًا. قـال:

ـــ القـدر يرسـم لنـا الطريـق. سنُحقق هُنـا مـا لـم نُحققـه في القاهـرة والإسـكندرية.

تابعـا صـوت الراديـو يُذيـع أُغنيـة لأسـمهان وهـي تشـدو «فـرّق مـا بينـا ليـه الزمـان. دا العمـر كلـه بعـدك هـوان»، قبـل أن يسـأل «عبدالقـادر» «حسـين» عـن مـكان سـكنه، فأشـار إلى آخـر الشـارع قائـلًا:

ـــ هُنا.

ـــ إذن. هيا بنا. اعزمني على الشاي عندك في البيت.

قاما سعيدين، بعد أن دفع «حسين» الحساب.

***

عقـدوا الاجتمـاع الأول يــوم مظاهــرات دمشــق الكُـبرى المُطالبـة بإنصاف الفقـراء، الـتي وصلـت لحـد إشـعال النـيران في مبـاني البلديـة في كثـير مـن أحيـاء العاصمـة الخـضراء. كان النـاس مُسـتنفرين ضـد حُكومـة شـكري القوتـلي بسـبب غـلاء الأسـعار، وعـدم وجـود وظائـف لجيـش مـن الشـباب الآمـل في حيـاة هانئـة بعـد سـنوات مـن الكفـاح لنيـل الاسـتقلال. في مـنزل «حسـين» البسـيط بحـي الصالحيـة جلسـوا معـا عـلى مائـدة مُسـتطيلة يرتشـفون الشـاي الأسـود ويُدخنـون السـجائر اللـف، راسـمين طريـق نضالهـم القـادم. كان «عبدالقادرعامـر» يبـدو رغـم قـوة تأثـيره في زميليـه مُحبـذًا وضـع كُل شيء تحـت تـصرف «حسـين»، رُبمـا تقديـرًا لكونـه ذا إسـهامات عظيمـة في مجـال القتـل والعمـل الـسري، فضـلا عـن إيمانـه التـام بـأنَّ أي عمـل فـدائي يسـتلزم تمويـلًا، وأن الوحيـد القـادر عـلى تدبـير المـال هـو «حسـين» ابـن العائلـة الثريـة، الـتي مازالـت تُرسـل لـه كُل شـهر أمـوالًا كافيـة للعيـش دون عمـل. أمـا «مصطفـى كمـال» فبـدا رغـم ملامحـه الصارمـة قليـل الـكلام، أقـرب للخجـل، وظهـر «محمـد المرصفـاوي» كرجـل بوهيمـي سـاخر يعشـق المُتـع الحسـية ويُبالـغ في مُديـح الخمـر والنسـاء.

لقـد رأوا حُسـين مُغامـرًا فريـدًا، بـاردًا إلى أقـسى درجـة، لا يكـترث لـدم، ولا يشـعر بخـوف، لـذا فقـد اعتـبروه جديـرًا بتـولي القيـادة بعـد أن سـجنتهم البطالـة النضاليـة وملّـوا مـن حالـة الـلا حركـة.

حملّـق «حسـين» في وجـوه الثلاثـة المُسـتمعين لـه، ليتذكـر مجموعتـه الأولى المكونـة مـن «سـعيد» و«مدحـت» و«سـيد» و«جـول»، وقـال:

ــ إنَّ أكـبر خطـر يواجـه بلادنـا اليـوم هـو خطـر الصهيونيـة، وهـي العـدو الأول لنـا جميعًـا، لـذا فـإنَّ علينـا أن نُحـدد أهدافنـا بوضـوح في إرهـاب وقتـل اليهـود في أي مـكان، إلى جانـب تصفيـة كُل مَـن ينـادي بالسـلام والتسـوية مـع الصهاينـة، وإلحـاق الأذى بـأي مؤسسـة أو جهـة أجنبيـة تسـاند دولـة إسرائيـل.

ـ مُتفقون.

قالها «عبدالقادر»، فواصل «حسين»:

ـ سنرصد ما يجري حولنا، وسنبحث عن الخونة والجواسيس ونتصدَّى لهم تاركين لجيش الإنقاذ مهمة القتال المباشر.

بدت من «محمد» نظرات استفهام قال على إثرها:

ـ أهم شيء السلاح. كيف سُندبّر المال لشراء السلاح؟

ـ لا عليك. أنا كفيل به.

أجاب «حسين» ببرود، وكأنهم يتوقعون الإجابة فهزوا رؤوسهم في تسليم.

واصل «حسين» شرح الأهداف قبل أن يسمع طرقًا خفيفًا على الباب انخلعت له قلوب المُجتمعين، لكنَّه طمأنهم، ثُم قام بهدوئه المُعتاد ليفتح الباب قليلًا ليسمح لوجهه فقط بالخروج. وجد «حسين» أمامه فتاة طويلة الشعر، كثيفة الحاجبين، لها عينان زرقاوان تفيضان عذوبة، ترتدي تنورة قصيرة سوداء فوق قميص لبني رقيق بأزرار كُحلية. بدا خداها متوردين خجلًا لتزداد جمالًا على جمال، مما دفع هرمونات الذكورة في داخله أن تنتفض بعد خمول دام شهورًا، حملق فيها مستفسرًا، قبل أن تنطق في رقة:

ـ آسفة على إزعاجك. والدتي مُصابة بنوبة قلبية ووالدي في بيروت وليس معي أحد. هل يُمكن أن تساعدني في نقلها إلى المُستشفى.

هزَّ رأسه في اهتمام، ورمى ضيوفه بنظرة طمأنة ثُم قال لها:

ـ طبعًا طبعًا.

أغلق الباب على أفراد تنظيمه الجديد، وجرى معها ليدخل الشقة المُقابلة، حيث وجد سيدة ضئيلة الجسد تجلس على كنبة صغيرة تتوسط الصالة، وإلى جوارها فتاة أخرى قمحية البشرة ترتدي جلبابا بُني اللون وتحتضن كفها بقلق ظاهر.

ـ الأستاذ جارنا الجديد، يُريد أن يطمئن عليكِ.

قالـت الفتـاة لأمهـا، الـتي ردَّت بنظـرة اسـتجداء نحـو وجـه الغريـب، قبـل أن يصيـح:

ـ ألف سلامة عليك يا خالة. ستكونين بخير.

حملهـا بشـعور طـاغٍ بالقـوة والصلابـة، وهبـط السـلالم في بُـطء وإلى جـواره ذات القميـص اللبـني. سـارا معًـا عـبر الزقـاق ليسـمعها تُشـير إلى مستشـفى صغـير آخـر الشـارع. كـررت الفتـاة أسـفها لحامـل أمهـا الشـهم، بينمـا رددت الأم الدعـاء لـه بصـوتٍ مُتقطـع حـتى وصلـوا جميعًـا، حيـث وضـع «حسـين» حملـه فـوق أحـد الأسرَّة ثُـم انتظـر خارج الغرفـة بعـد أن وصـل الطبيـب. تذكـر اجتماعـه المُنقطـع، لكنَّـه قـال في نفسـه إن نـصرة النسـاء واجـب قومـي، وأن الشـهامة لصيقـة بالمناضلـين. ثُـم تذكّـر رقـة الفتـاة وجمالهـا، فقـال أيضًـا إنَّ الجمـال دائمًـا يسـتحق كُل تقديـر.

خرجت الفتاة بعد دقائق لتشكُره. قالت:

ـ لقد طمأننا الدكتور. شُكرًا على نبلك.

ابتسم مُبحرًا كملاح عظيم في عينيها:

ـ لا شُكر على واجب.

ثُم مدَّ يده مُصافحًا، وهو يقول:

ـ تحت أمرك.

منحته ابتسامة امتنان وهي تُكرر الشكر قائلة:

ـ شُكرًا مرة أخرى يا أستاذ...

ـ حسين.

كررت:

ـ شُكرا يـا أسـتاذ حسـين. أنـا سُـعاد، وأخـتي الـتي في البيـت اسـمها

فاطمـة.

ــ تشرَّفنا.

لاحظت أنَّ يدها مُختبئة بين أصابعه، فسحبتها باضطراب، وسألته:

ــ هل أنت مصري؟

ابتسم وسأل:

ــ ألا أبدو فلسطينيًا؟

هزَّت رأسها بالنفي، فقال:

ــ إذن أنا مصري.

ودَّعتـه بابتسـامة، وشـعر باعـتزاز غريـب، وهـو يعـود مـرة أخـرى إلى شـقته ليجـد ضيوفـه مُنهمكـين في التدخـين والثرثـرة. وقـف «عبدالقـادر» فـور دخولـه مـن البـاب، واقـترب منـه ثُـم احتضنـه في محبـة وقـال:

ــ أنت شهم جدًا يا حسين. نحنُ محظوظون أننا وجدناك.

***

«أخي العزيز «حسين»..

أشـتاق إليـك بشـدة. أشـعر بأنـني وحيـد، مُنعـزل، غريـب عـن أقـاربي وأصدقـائي وجـيراني. كثـيرون في الجامعـة يتحاشـونني بعـد أن حصلـت على الـبراءة، وخرجـت منصـورًا مـن قضيـة «أمـين عُثمـان». لا عليـك. أخـبرني أنـت: كيـف حالـك؟ مـا أخبـارك؟ ومـاذا تفعـل؟ وهـل أنـت في مأمـن مـن البوليـس السـياسي وأذرعـه الطويلـة؟ لقـد كانـت المحنـة صعبـة علينـا جميعًـا، لكـن عنايـة اللـه كانـت دائمًـا ترعانـا وإلا لمـا صـدرت الأحـكام مخفَّفـة بهـذا الشـكل.

علمـت مـن طنـط «سـميرة» أنَّـك مُسـتقر، وأنَّ ظروفـك تتحسـن بعـد

التأقلم مع المُحيطين بك. أنا واثق من ذلك. أنت مخلوق استثنائي، قادرعلى فك طلاسم الناس، والتعايش مع الآخرين، واستيعاب الناس بسرعة، وهي صفات لا أزال أرى أنَّها مؤهلة لقيادة البلدان. إنَّني أتصور أنك مُنخرط في أعمال نضال جديدة، ضد أعداء جُدد، وخونة آخرين، وكُل أملي أن أكون إلى جوارك مساندًا ومُعضدًا ومُعينًا.

أعيش فترة اكتئاب طارئ بعد دخول مُعظم الرفاق إلى السجن، حتى أنَّه لم يبق لي سوى «نجيب» المُنصرف عن الكفاح، الرافض للعمل السري، لذا فإنني أقضي ساعات طويلة في قراءة التاريخ ومُتابعة سير الأبطال والزعماء في العالم.

في الأسبوع الماضي تلقيت عرضًا من زميل بكلية الحقوق للانضمام إلى جماعة الإخوان، وزاد الإغراء عندما فاتحني مُباشرة في أن أصبح عضوًا في الجهاز الخاص. بالطبع، رفضت بشدة، ذلك لأنني لا أرى في جماعة الإخوان سوى مجموعة من البُلهاء العميان الذين يسيرون دون تفكير خلف رجُل مهووس يُتاجر بالدين اسمه حسن البنا. لقد عرفت أنَّ الجهاز الخاص للجماعة يحاول عسكرة أعضائه والتغلغل في الجيش، لكن أنا على ثقة أنَّه سيفشل بسبب استهجان الناس لأي ربط بين الدين والسياسة، وهذا هو سر مباركة الناس لقرار حل الجماعة الذي أصدره النقراشي بعد القبض على عدد كبير من أعضاء الجهاز. لقد كان أعضاء ذلك الجهاز من السذاجة لدرجة أنَّهم أعادوا استثمار أفكارنا وخططنا وكرروها بنفس الشكل، حتى ظن البعض أنَّ التفجيرات التي قاموا بها مؤخرًا ضد بعض المُنشآت والمصالح اليهودية من تنفيذنا. هل تتصور أنَّ أحد الصحفيين نقل لي أنَّ الضابط «إبراهيم إمام» قال لأحدهم لولا أنَّه مُتأكد أنَّ حسين توفيق خارج البلاد لتصور أنَّه وراء الحوادث الأخيرة. إنَّ هذا يُشعرني بالفخر، ويؤكد لي كم كُنا مؤثرين فيمَن حولنا.

الحياة السياسية في مصر مازالت أقرب لبار كرياكو، فالسادة الزُعماء

الأفاضـل غائبـون عـن الوعـي ومـازال بعضهـم يتحـدث عـن اليهـود المصريـين باعتبارهـم مواطنـين صالحـين. يرفـع «النقـراشي» باشـا شـعار التفـاوض السـلمي، ويُهـدد الوفـد بإعـلان الجهـاد، ويخطُـب رئيسـه كُل يـوم مُطالبًـا بالجـلاء، وبـاقي الأحـزاب تتفـرج وتنـاور لتكسـب رضـا الملـك أو الإنجلـيز أو كلاهمـا معًـا. ومُعظـم الشـباب في وادٍ آخـر، يكـررون أفكارنـا وكلماتنـا حـول الكفـاح المسـلح، والمقاومـة بالـدم، ويعتبرونـك مثـالًا عظيمًـا للفـداء.

ستسـألني عـن «أنـور السـادات». لا علـم لي بمـا يفعـل الآن، فبعـد براءتنـا غـاب تمامًـا عـن الظهـور، لكنـني علمـت مـن صديـق خـاص أنَّـه يعمـل بالتجـارة، لكـنَّ هنـاك أقاويـل عـن علاقتـه بتنظيـم الحـرس الحديـدي التابـع للسراي، وهـو تنظيـم فـدائي جديـد دبّـر عـدة عمليـات لاغتيـال ضبـاط إنجلـيز، وحـاول اغتيـال «مصطفـى باشـا النحـاس» مرتـين وفشـل. وفي اعتقـادي فـإنَّ «السـادات» رجُـل مُحنّـك، صعـب الفهـم، وأتصـور أنَّـه يعـرف طريقـه جيـدًا، وهـو الأقـدر عـلى قـراءة مـا يُحيـط بنـا.

أنـت تعـرف أنـي أعشـق هـذه الأجـواء، وأحـب المغامـرات، وعـلى اسـتعداد تـام للتضحيـة في سـبيل الوطـن، لكنـني عاهـدت والـدي العزيز بعـد بـراءتي ألا أشـارك في أي عمـل فـدائي حـتى أتخـرج في الجامعـة، وأتصـور أنـي مُرغـم عـلى ذلـك، خاصـة مـا دمـت أنـت بعيـدًا، فـلا السـادات ولا الإخـوان ولا غيرهـم أسـتطيع التأقلـم معهـم.

زُرت زُملاءنـا في السـجن، وآلمـني أن أجـد «محمـود مُـراد» بتلـك الحالـة الغريبـة مـن الانكسـار. إنَّـه مُحبـط وموجـوع بشـدة رغـم تأكيـدات البعـض بـأنَّ أمـرًا ملكيًـا سـيصدر بالعفـو عـن المحبوسـين في القضيـة. قـال لي «محمـود مُـراد» إنَّـه يُريـد أن يُهاجـر مـن مـصر فـور خروجـه، فهـو يتصـور أنَّ البلـد لـم يعُـد مُناسـبًا لطموحاتـه. أمـا سـيد فهـو الأكـثر سُـخرية ممـا جـرى، ومـازال قـادرًا عـلى ترديـد النـكات وتقليـد الزُعمـاء،

والأدهـى أنَّـه يُقلـد الآن السـادات باعتبـاره خطيبًـا مفوهًـا. «سـعيد» و«مدحـت» و«محجـوب» و«عُمـر» كمـا هُـم أقويـاء وسُـعداء بالسـجن، ويسـألون عـن أخبـارك كُلمـا سـنح لهـم لقـاء والدتـك.

أثـق أنَّنـا سـنلتقي بـإذن اللـه، وأنَّ الأمـور سـتتغير، وسيُصبح الأبطـال في مكانهـم الطبيعـي، عندمـا نـدوس معًـا بأحذيتنـا عـلى جثـث الخونـة والعمـلاء.

دمت طيبًا وآمنًا ليوم لقاء عسى أن يكون قريبًا.

أخوك

محمد إبراهيم كامل.

القاهرة في ديسمبر 1948».

طـوى «حسـين» الخطـاب، مُسـتبشرًا بـكلام ابـن خالتـه ورفيقـه في الكفـاح قبـل أن يسـمع طرقًـا هادئًـا عـلى بـاب الشـقة. قـام مُطفئًـا سـيجارته العشريـن في منفضـدة بلوريـة ترقُـد فـوق الطاولـة، وفتـح البـاب ليجـد كهـلًا قصـير القامـة يرتـدي حُلَّـة داكنـة، وفـوق عينيـه نظارتـان سـميكتان. حملّـق في وجـه الطـارق ليلمـح حُمـرة مُشـابهة لحُمـرة الفتـاة الـتي اسـتغاثت بـه قبـل أيـام لنقـل أمهـا إلى المستشـفى، فقـدّر أنَّـه والدهـا.

ــ مساء الخير يا بُني.

لا يحـب مناداتـه بصيغـة الابـن، لكنَّـه رسـم الابتسـامة المُعتـادة وردّ التحيـة، قبـل أن يسـتأذن الرجـل في الدخـول، فسـمح لـه.

قال الرجل بعد أن جلس:

ــ أنـا شـاكر الحميـدي جـارك في الشـقة المُقابلـة، وجئـت أشـكرك عـلى المسـاعدة في نقـل أم سُـعاد إلى المُستشـفى.

ــ لا شُكرعلى واجب أستاذ شاكر.

عرض عليه سيجارة وهو يسأل:

ـ كيف حالها الآن؟

ــ بخـير وسـلام. أنـا أعمـل في السـكة الحديـد العموميـة، لـذا فإنَّـني أتغيَّـب في بعـض الأحيـان لأكـثر مـن يـوم، وكمـا تـرى فإنَّـه لا يوجـد في البيـت سـوى نسـوة، لأن ابـني مُجنّـد في الجيـش وهـو ضمـن الفرقـة المُرسـلة إلى فلسـطين.

ـ عظيم. هذا شرف لي.

قالهـا «حسـين» وهـو يحافـظ عـلى ابتسـامة الترحيـب، ثُـم مـد قداحتـه ليُشـعل للرجـل سـيجارته، الـتي سـعل منهـا ثُـم قـال:

ــ إنَّ زوجـتي أصرت أن أدعـوك عـلى الغـداء غـدًا عندنـا في البيـت، هـل يسـمح وقتـك بذلـك؟

فكر حسين قليلًا قبل أن يُجيب:

ـ بالطبع يسمح.

وتذكـر موعـدًا ضربـه لـ«عبدالقـادر» في أحـد مقاهـي سـوق الحميديـة، فقـال:

ـ أوووه. تذكرت موعدًا في الغد بوسط المدينة.

عقد الضيف حاجبيه وقال مُستنكرًا:

ــ غـدًا في وسـط المدينـة. هـذا خطـر يـا بُـني. أنـت تـرى المُظاهـرات في الشـوارع، والنـاس غاضبـون بعـد اسـتقالة حكومـة مـردم، وأنـت مهمـا كُنـت غريبـا، والصالـح ألا تخـرُج حـتى تهـدأ الأمـور.

ـ لكنني على موعد مُهم مع صديق.

قاطعه الرجل:

ـ أرجوك أن تتصل به لتدعوه ليُشرفنا. أصدقاؤك هُم أصدقاؤنا.

فكَّر قليلًا ثُم هزَّ رأسه موافقًا، وسأل الرجل:

ـ ماذا تتوقع أن يحدُث حال استمرار غضب الناس؟

اعتدل الرجل للخلف مُعتزًا باعتباره أهلًا للرأي، وقال:

ـ اسمع يا بُني. الناس في بلادنا تبحث عن الأمن والاستقرار، لذا فإنَّهم يُحبون حُسني الزعيم، الذي نشر قواته في شرق البلاد وعرضها. وأعتقد أنَّه سيُمسك بالسُلطة، لأنَّه الأقوى.

ثُم قال بحكمة الواعظ:

ـ السُلطة تذهب دائمًا للأقوياء وليس للأتقياء.

ابتسم «حسين» للمقولة وردَّدها في خياله.

***

كانت المائدة عامرة بأشهى المأكولات السورية، وحولها جلس «حسين» و«عبدالقادر» و«الحاج شاكر الحميدي» وزوجته وابنتاه. شعر «حسين» بالأُلفة والرضا مُستعيدًا التفاف عائلته حول مائدة الغداء أيام الجُمع، حين كان والده حريصًا على الجلوس مع أسرته. سرت في شرايينه غبطة تذوق الطعام البيتي بعد شهور طويلة من سدّ الجوع بما تيسر من طعام المطاعم والفنادق والأكلات الجاهزة، واشتم رائحة أمه الحنون في الأبخرة المُتصاعدة من الدواجن المشوية، والخضروات الساخنة. قرأت عيناه ملامح اهتمام على وجه «سُعاد» كُلما رنا نحو عينيها الساحرتين. شعر بالإثارة وهو يرمق ضفيرتها الطويلة حالكة السواد، وهي تتدلى خلف ظهرها المُعتدل، ثُم نظر بتلصص نحو شقيقتها الصُغرى فلاحظ سكون ملامحها وتركُز نظرتها نحو الأرض، بينما كان وجه «عم شاكر» مُتهللًا ومُنبسطًا وهو يحكي عن مشاغبات ابنه الوحيد.

قالت الأُم إنَّها تُحب المصريين وتأمل أن يطيل الله عُمرها كي تفلح يومًا في زيارة القاهرة ورؤية نهر النيل والأهرامات.

بدا عبدالقادر ساكنًا كعادته عندما فاجأه سؤال الأم عن عملهما

ليحمـر وجهـه شـاعرًا بارتبـاك شـديد لـم يطـل حيـث بـدده قـول «حسـين»:

ـ نحن نعمل بالتجارة.

هزَّ الرجل رأسه، وبدا أنَّه غير مُقتنع بذلك، فقال:

ـ الأجواء الحالية في مصر وسوريا لا تصلح للتجارة.

وأضاف وهو ينظر نحو ابنته الكُبرى:

ــ ظـروف الحـرب في فلسـطين، وأعمـال الشـغب الجاريـة هُنـا دفعـت سُـعاد أن تـترك التعليـم، مُكتفيـة بالوصـول لأولى ثانـوي. أمـا فاطمـة فقـد قـررت مـن البدايـة أن تتفـرغ لمهنـة الخياطـة، إنهـا ماهـرة للغايـة.

ـ عظيم.

قالها «حسين» رامقًا «سُعاد» بنظرة استكشاف.

بـدت «سُـعاد» مُبتسـمة، رائقـة المـزاج، وهـي تـرُد نظـرات حسـين الفاحصـة. قالـت في سرّهـا إن الشـاب المـصري يبـدو خجـولًا، ونبيـلًا، وميسـور الحـال. أمـا صاحبـه فأشـد خجـلًا منـه، لكنَّهمـا يخفيـان وراءهما الكثـير.

قال صاحب البيت موجهًا حديثه إلى «حسين»:

ــ كمـا قلـت لـك أسـتاذ حسـين. لـن تهـدأ الأمـور في دمشـق إلا إذا تـولى حُسـني الزعيـم السُـلطة بشـكل مباشر. لا تُصدق أن تشـكيل خالـد العظـم للحكومـة سـيُهدئ مـن حالـة الغضـب العـارم بـين النـاس.

ـ لكنَّه أعلن أن أحد أولوياته تحرير فلسطين.

قالها «عبدالقادر» باهتمام، فردَّ «شاكر» ساخرًا:

ـ كُلهم يدّعون ذلك ليسكت الناس عن فسادهم وفشلهم.

وافقه «حسين» قائلًا:

ـ صحيح الكُل يُتاجر بفلسطين.

ـ سينصرُنا الله على اليهود.

تمتمت «سُعاد»، فرمقتها أمها بنظرة عتاب، ثُم سألت «حسين»:

ـ قُل يا بُني: أين تسكن في مصر؟

ـ في القاهرة.

ثُم أشار لصاحبه قائلًا:

ـ وعبدالقادر من الاسكندرية.

وعلا صوت شاكر قليلًا:

ـ أنتم لا تأكلون.

ـ لا، لقد أكلنا أكثر من المُعتاد. نحن نقول في القاهرة «دايمًا عامر».

شكراه، وقاموا ليجلسوا معًا في غرفة الصالون بينما غابت النسوة لإعداد الشاي والحلويات، وانتهز ربُّ البيت الفرصة ليقول لضيفيه:

ـ اسمعا. أنا أعرف أنَّكما لا تعملان بالتجارة، لكن يبدو أيضا أنكما أولاد ناس. بالتأكيد لستما لصين أو مُجرمين.

استغربا، فواصل قائلًا:

ـ الواضح والمؤكد أنَّكما هاربان سياسيًا أو أتيتما هُنا للتطوع للحرب في فلسطين.

أشعل «حسين» سيجارة وبدا عقله يدور بأفكار شتى، قبل أن يهزَّ رأسه مُكررًا:

ـ صحيح عم شاكر. أنت رجل صالح.

انبسطت ملامح الرجل قليلًا وسأل:

ـ هل تأمناني على سركما؟

تبادل «حسين» وصاحبه النظر قبل أن يُقرر «حسين» بهدوء أن يقُص على الرجل حكايته كهارب من مطاردة المُحتلين والخونة، ثُم قرر أنَّ «عبدالقادر» مثله تمامًا، لكنه كان يُجاهد في الإسكندرية. نظر

الرجـل نحوهمـا بامتنـان، ثُـم قبّلهمـا بحنـوٍ قائـلًا:

ــ أنا أعرف ذلك.

استغرب «حسين» وسأل:

ــ كيف عرفت؟

ـــ قـرأت عــن قضيتـك بالأهـرام، ومُنـذ سـكنت هُنـا انتابـني الشـك، وقـد رأيـت يومًـا أحـد المُخبريـن يسـير وراءك، فعلمـت أنَّـك الهـارب في قضيـة أمـين عُثمـان.

ــ يااه. أنا تحت المُراقبة؟

ـــ بالطبـع. لكـن. لا عليـك. كُلنـا تحـت المُراقبـة، والمُخابـرات هُنـا تُتابـع برضـا كُل مَـن يُجاهـد ضـد الاسـتعمار أو إسرائيـل.

وأخـذ الرجـل مـن ابنتـه صينيـة الشـاي وأطبـاق الحلويـات، ثُـم قـال لـ«حسين»:

ـــ يـا بُـني أريـد أن تعتـبرني مثـل والـدك تمامًـا. لقـد كُنـت في شـبابي أحـد المُجاهديـن ضـد الاحتـلال الفرنـسي، وبعـد التحريـر تفرّغـت لأسرتي.

ــ سنواصل العمل الفدائي، لكنَّ هذه المرة ضد إسرائيل.

قالهـا «حسـين» وهـو يُمسـك بكـوب الشـاي، قبـل أن يسـتمع لحكايـات شـتى حـول بطـولات الرجـل في العمـل الفـدائي قبـل سـنوات.

***

«السياسـة تُفسـد الأمـن». قالهـا لنفسـه وهـو يُعيـد قـراءة ملـف طالـب الطـب البيطـري أحمـد عبدالمجيـد. حـدّق الضابـط «إبراهيـم إمـام» في الملـف المُتخـم بـالأوراق الموضـوع أمامـه، وهـو يسـترجع نجاحاتـه في حـلّ الألغـاز وقـراءة وجـوه القتلـة مُبكـرًا. تذكّـر «حسـين توفيـق»

وصُحبتـه، وقـال لنفسـه إنَّ مُهمتـه انتهـت عنـد تقديمـه للمحاكمـة، لكـن تدخـل الملـك ورجالـه والتنظيمـات السريـة الموالية لـه سـاعده عـلى الهـرب مـن وجـه العدالـة. إنَّـه عـلى يقـين مـن ضلـوع زميلـه اليوزبـاشي «محمـود مـوسى» في تهريـب الولـد الخطـير. نظـر مـرة أخـرى لملـف «أحمـد عبدالمجيـد»، وقـال في سرّه: هـذه المـرة أفلـت الجـاني قبـل ارتكابـه الجريمـة بفضـل سـذاجة أكـبر رأس في هـذا البلـد بعـد الملـك، ثُـم بهـدوء وبـدمٍ بـارد حطّـم ذلـك الـرأس.

«كُنـت دائمًـا عـلى صـواب، وكانـوا عـلى خطـأ» قالهـا «إبراهيـم إمـام» لـ«عبدالرحمـن عمّـار» وكيـل وزارة الداخليـة عندمـا سـأله كيـف تمكّـن طالـب صغـير مـن الوصـول لـوزارة الداخليـة، وإطـلاق الرصـاص عـلى رئيـس الـوزراء ليُلحقـه بصديـق عمـره «أحمـد باشـا ماهـر». قبـل الحـادث بثلاثـة أيـام بالضبـط، عـرض الضابـط الثعلـب عـلى رئيـس الـوزراء تفاصيـل مؤامـرة قـال إنَّ عـددا مـن شـباب الإخـوان يدِّبرونهـا لاغتيالـه وكان عـلى رأس المُتآمريـن الطالـب «أحمـد عبدالمجيـد»، لكـنَّ «النقـراشي باشـا» هـوّن مـن الأمـر، ورفـض إصـدار أمـر باعتقـال أحمـد عبدالمجيـد، وقـال لإمـام ناصحًـا:

ـــ هـؤلاء الأولاد مازالـوا صُغـارًا.. طلبـة. حاول أن تسـتوعبهم يـا إبراهيـم لا تعتقلهم.

قـدره. قالهـا أكـثر مـن صديـق مُعلقًـا عـلى الحكايـة، لكـن الضابـط المُخـضرم الـذي قفـزت بـه كفاءتـه بُسرعـة مـن يوزبـاشي إلى بكبـاشي، ثُـم قائمقـام، كان يعـي أن الصُغـار أكـثر خطـرًا مـن الكبـار، وأنَّ اسـتيعاب الطلبـة السـاعين نحـو الـدم مُسـتحيل. إنَّـه مؤمـن أنَّ السـاسـة لا يفهمـون في الأمـن، وأنَّهـم بعيـدون كُل البُعـد عـن فهـم أدمغـة القتلـة والمُجرمـين. لقـد حقـق مـن قبـل عـشرات القضايـا، وتابـع كيـف تحـوَّل شـاب مهـووس مثـل «حسـين توفيـق» مـن قاتـل إلى رمـز، ومـن مُجـرم إلى بطـل. فكَّـر أنَّ الإرهـاب تجـاوز كُل حـدوده، تـارة تحـت لافتـة الوطنيـة

ومقاومة الإنجليز، وتارة أخرى تحت لافتة نصرة الإسلام. مُنذ قتلوا «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان والعُنف يطغى ودوارق الدم لا تكف عن تلطيخ المشهد، فبعده قُتل أمين عثمان، ثُم قُتل القاضي «أحمد الخازندار»، وتوالت عمليات التفجير ليتم نسف سينما مترو، ثُم شركة الإعلانات الشرقية، ومحلات بنزايون، وحارة اليهود، وغيرها، كما قُتل «سليم زكي» حكمدار القاهرة نفسه بُقنبلة في وسط القاهرة.

وهاهُم طلبة الإخوان يُكملون المشهد بقتل رئيس الوزراء بواسطة طالب لم يتجاوز الواحدة والعشرين ارتدى بذلة ضابط شُرطة ودخل إلى وزارة الداخلية ليُطلق أربع رصاصات على ظهر الرجل. قال «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّ عدد التنظيمات المُسلحة في مصر يزيد على عدد الأحزاب، وما دام الكبير يؤمن بسياسة التصفية ويُنشئ الميليشيات السرية الموالية له، فإنَّ الحركات والتنظيمات الأخرى ستحذو حذوه، وما الإخوان منهم ببعيد. ورنا بذاكرته لسنوات مضت كان يخرُج فيها طلبة الإخوان مُنددين بالوفد وبُدعاة الديمقراطية لإرضاء الملك، متوقعًا انقضاء شهر العسل قريبًا بعد أن طال الخطر أقرب المُقربين من الملك نفسه.

فكّر كثيرًا وهو يُراجع تقريرًا وضعه «إبراهيم باشا عبدالهادي» حول الإجراءات الأمنية الموصى بها لكبح جماح الجهاز الخاص للإخوان، ثُم لفتت نظره عبارة مدوّنة من ضابط البوليس السياسي الموالي للسراي «محمود موسى»، التي أوصت باعتقال كُل أنصار «حسن البنا» والمُحيطين به، وتركه وحيدًا. قلّب «إبراهيم إمام» الورقة أمامه وقال وهو يُمصمص شفتيه «سيُقتلونه بكُل تأكيد. يا له من ساذج». نظر إلى ساعته فوجدها تجاوزت الحادية عشرة، وقرر أنَّ عليه المُغادرة، فهو في حاجة للراحة، ومضى إلى بيته في برود اللا مُهتم.

***

رسم «حسين» خطة العملية الأولى. اشترى الأدوات والأسلحة وجهّز المسرح كما اعتاد في القاهرة. سيكون يوم السبت مُناسبًا لوأد أي أنفاس تستعر في ذلك المعبد القديم بالحي الغربي من العاصمة السورية، والذي يعود للقرن الأول بعد ميلاد المسيح. كان مشهد تجمع العائلات اليهودية أمام المعبد الكبير في حي جوبر مُستفزًا لـ«حسين» وزُملائه مثلما كان مُستفزًا للسوريين أنفسهم الذين دبَّروا أكثر من واقعة اعتداء على محلات ومُنشآت يهودية. في الصباح سيدفع «مُصطفى كمال» عربة توت مُحمّلة بالقنابل ليمُر أمام المعبد، وسيرابط «عبدالقادرعامر» فوق سطح إحدى البنايات العالية المجاورة ليطلق رصاصه نحو العربة لتنفجر، في الوقت الذي سيقف فيه حسين أمام بوابة المعبد لقنص كُل هارب من رواد المعبد بعد حدوث الانفجار. أما «محمد» فستكون مُهمته تأمين هروب «حسين» بعد قتل أكبر عدد من الزوار اليهود.

فى الصباح غادر «حسين « حاملًا مُسدسه الجديد الذي اشتراه من أحد تُجار دمشق ووصل إلى المقهى المُجاور للمعبد لينتظر بهدوء موعد التنفيذ. طلب شايًا وأشعل سيجارة ولاحت على وجهه ابتسامة رضا، وهو يتذكر القُبلة المطبوعة على خدّه من جارته «سُعاد» التي أصرت أن تغسل له ملابسه. فكَّر كم هي رقيقة بلهجتها الشامية، وصوتها الهادئ، وعينيها الناعستين. قال لنفسه إنَّها نموذج جميل للفتاة الصلبة، الجريئة التي تقف أمام الأزمات غير عابئة أو خائفة. لقد كان صديقه «عبدالقادر» مُصيبًا عندما أخبره بأنَّ هذه الفتاة تُحبه، مُدللًا على ما يقول بأنَّ عينيها لم تُفارق طلعته مُذ جلسا معًا على مائدة الطعام قبل أسبوعين، وفيما بعد أخبرته هي بنفسها أنَّها مُعجبة بأناقته وشخصيته، قبل أن تؤكد ذلك بالأمس عندما طبعت قُبلة على وجهه. فكر أنَّها أرق وأجمل وألطف من «سناء» و«ميمي» وفتيات جروبي والنادي والعائلات المصرية المُتكلفة.

رشـف شـايه، مُحفـزًا عقـارب السـاعة عـلى التحـرك ليحـين الموعـد المُحـدد في الثانيـة ظهـرا. تذكَّـر مـا قالـه الليلـة الفائتـة لزملائـه بـأنَّ قتـل اليهـود هـو أفضـل انتقـام يُمكـن الـرد بـه عـلى المذابـح الداميـة لعصاباتهـم في فلسـطين. السـكوت جريمـة، والصفـح عـار سـيُلاحقنا إلى الأبـد. هكـذا قـال لأصحابـه وهـو يرسـم لهـم خطـة التنفيـذ. عـرض عليـه «عبدالقـادر» التعـاون مـع أي مـن المجموعـات السـورية المُسـلحة لتنفيـذ العمليـة في إشـارة منـه لتعرفـه عـلى أفـراد بتنظيـم يحمـل اسـم «كتيبـة الفـداء» تمكـن مـن ذبـح 20 يهوديًـا في حلـب، لكنَّـه أبى مؤكـدًا أنَّ المجموعـة يجـب أن تبقـى مصريـة خالصـة، حـتى يُصبـح لهـا شـأنها عندمـا تعـود إلى مـصر.

سـمع حـوارًا دائـرًا بـين رجلـين يجلسـان عـلى المقهـى حـول سـيطرة حُسـني الزعيـم عـلى مقاليـد الأمـور في البـلاد. «إنَّـه كُل شيء الآن، ولا أحـد يتحـرك دون إذنـه، ولـم يبـق أمامـه سـوى الإعـلان رسـميًا عـن رئاسـته لسـوريا»، قـال أحـد الرجلـين. فكَّـر «حسـين» في كلام جـاره «شـاكر الحميـدي» حـول علـم المُخابـرات بوجـوده وتحركاتـه، وصمتهـا عليـه باعتبـاره يُنفـذ مطالـب ورغبـات الشـارع السـوري في الانتقـام مـن الصهاينـة المُعتديـن. لاحـظ باعـة جائلـين يمـرون أمامـه وتذكـر شـوارع وسـط القاهـرة بصخبهـا وحيويتهـا وفكَّـر أنَّـه لا يشـعر بالغُربـة في دمشـق قريبـة الشـبه بالقاهـرة.

نظـر في ساعته فوجدهـا تقـترب مـن الثانيـة، فقام مُغـادرًا بعـد أن دفع الحسـاب، ووقـف بمدخـل أحـد البيـوت المُقابلـة للبـاب الرئيـس للمعبـد مُنتظـرًا حـدوث الانفجـار، في الوقـت الـذي لمـح فيـه «مُصطفـى كمـال» يسـير بسُرعـة تـاركًا خلفـه عربـة التـوت. انتظـر دقائـق متوقعًـا أن تُصيـب رصاصـات «عبدالقـادر» القنابـل المُخبـأة بالعربـة لتنفجـر مُعلنـة بـدء معركـة المعبـد اليهـودي، لكـنَّ أملـه خـاب عندمـا فوجـئ بصـبي صغـير مـن المـارة في العـاشرة مـن عمـره يقـترب مـن العربـة ليلتقـط بكفـه بعـض

التوت الموضوع في عُلبة من الصفيح ليُخبئه في جيبه، وشعر بالخوف أن يظل الصبي واقفًا لفترة لسرقة التوت. قال لنفسه إنَّ «عبدالقادر» قد يتراجع عن إطلاق الرصاص على العربة خوفًا على الصبي، وهو ما يُهدد بفشل العملية بالكامل. مرّت الدقائق بطيئة مُزعجة دون انفجار وقدّر أن استمرار وقوف الصبى يُهدد بكشف العربة التي تركها صاحبها واختفى عن الأنظار. فكر للحظات قبل أن يتخذ قراره، وقام على الفور بتجاوز بوابة المعبد اليهودي بسرعة دفعت الحارس الواقف أن يصيح به طالبًا التوقف، لكنَّه واصل طريقه ببرود مُعتاد، ولم تمُر لحظات حتى سمع دوي انفجار كبير رُجت الأرض على إثره، وجرى الناس يمينًا ويسارًا في حالة فزع شديد، بينما غطى الدُخان سماء حرم المعبد لتسود حالة من الفوضى العامة. أخرج مُسدسه ليُبصر «عبدالقادر» و«محمد المرصفاوي» إلى جواره يُطلقان رصاصهما على الأجساد الهاربة. ولم تمُر لحظات أخرى حتى لمح ثلاثة شباب مُلثمين يقفون داخل حرم المعبد ويُطلقون رصاصهم على الرواد من الرجال والنساء، فواصل قنص الهاربين، حتى فرغت خزنته، ثُم أخرج مُسدسًا آخر، ليصطاد به كهلًا سمينًا خرج مفزوعًا، ثُمَّ لاحت أمامه سيدة عجوز هدّها الوهن، وبدت هدفًا سهلًا في ظلّ الدُخان المُتصاعد، فضغط على الزناد مُقررًا أن زمن التفرقة بين النساء والرجال انتهى، وأنَّ إسرائيل تُجنّد النساء اليهوديات، لتسقط بلا حراك.

بدأ الانسحاب رويدًا وهو يستعذب أزيز الرصاص، مُستمتعًا بصرخات الهلع من رواد المعبد من اليهود، شاعرًا أنَّه يستمع لسيمفونية رائعة لبيتهوفن. ما أجمل السماء المُغطاة بدُخان الانفجارات. قالها لنفسه قبل أن يعود إلى بيته بذات الخُطى الباردة دون مُطارد أو تابع.

***

في الصبـاح تصـدَّر خـبر انفجـار المعبـد اليهـودي صُحـف دمشـق. اكتشـف «حسـين» ورفاقـه أنَّ حصيلـة العمليـة بلغـت 12 قتيـلًا مـن بينهـم امرأتـان وطفـل صغـير وأكـثر مـن ثلاثـين مُصابًـا. التقـوا في ضريـح صـلاح الديـن الأيـوبي إلى جـوار المسـجد الأمـوي يتحدثـون عـن نتائـج العمليـة. سـأل «حسـين» زُمـلاءه عـن أولئـك المُلثمـين الذيـن وقفـوا إلى جوارهـم يُطلقـون معهـم الرصـاص لكنَّـه لـم يتلـق إجابـة شـافية. لا أحـد يعرفهـم، ولا يعـرف كيـف جـاءوا، ولا مـن أيـن، والغريـب أنَّهـم لـم يحاولـوا التعـرض لهـم بتاتًـا خـلال العمليـة أو بعدهـا.

قال «عبدالقادر» بنبرة صدق حاول فيها تحليل ما جرى:

ــ إنَّ هُنـاك مجموعـات أخـرى عديـدة محسـوبة عـلى الفدائيـين السـوريين والفلسـطينيين تعمـل بشـكل سري في قتـل اليهـود والأجانـب وتتواجـد في عـدة مُـدن سـورية، وإحـدى هـذه المجموعـات تُسـمى كتيبـة الفـداء، وأنـا شـخصيًا أعـرف اثنـين مـن أعضائهـا يقطنـان في المارجـة.

رفـع «حسـين» كفيـه مُظهـرًا قـراءة الفاتحـة داخـل الضريـح، قبـل أن يقـول بغضـب:

ــ لا يُمكـن أن تكـون مُصادفـة. لـو سـلمنا أنَّ هـؤلاء الذيـن وقفـوا معنـا يُطلقـون الرصـاص يحملـون نفـس أفكارنـا ويعملـون مثلنـا عـلى ضرب اليهـود في كُل مـكان، فكيـف لهـم أن يعرفـوا بتوقيـت المُهمـة؟ هـل أنتـم متأكـدون أنَّ أحـدًا لـم يُحـدّث أي شـخص حـول مـا سـيتم تنفيـذه؟

ثُم نظر إلى «عبدالقادر» سائلًا:

ــ ألـم تقـترح أن نتشـارك في العمليـة مـع كتيبـة الفـداء الـتي تتحـدث عنهـا؟

همس «عبدالقادر» قائلًا:

ــ أُقسـم باللـه العظيـم أنَّ توقيـت المهمـة لـم يخـرُج إلى أي شـخص في أي تنظيـم، ومـا اقترحتـه قبـل العمليـة مـن التعـاون مـع كتيبـة الفـداء

كان مُجـرد اقـتراح، ونسـيته تمامًـا عندمـا رفضـت أنـت.

نظر «مصطفى كمال» إلى «عبدالقادر»، وقال:

ــ أتمنى ألا أكون مُتهمًا بإفشاء سر العملية.

ــ وأنا كذلك.

ردَّد «محمد المرصفاوي» ليُعلق «عبدالقادر» سريعًا:

ــ يا رفقاء أنا على ثقة تامة منكما.

ونظر إلى «حسين» وقال:

ـــ مصطفـى ومحمـد لا يكذبـان أبـدًا. أتصـور أنَّ المجموعـة التي شـاركتنا العمليـة كانـت تُراقـب المعبـد اليهـودي مُنـذ فـترة، ثُـم انتهـزت فرصـة هجومنـا عليـه لينتهـز المراقبـون الفرصـة ويقاتلـوا إلى جوارنـا، وليـس أدلّ عـلى ذلـك مـن كوننـا انسحبنا بهـدوء دون أي كلام مـن هـؤلاء، بـل أعتقـد أنَّهـم مهَّـدوا لنـا طريـق الخـروج مـن هُنـاك.

خرجـوا ليجلسـوا معًـا عـلى أحـد المقاهـي، أشـعلوا سـجائرهم قبـل أن يتركهـم «محمـد» لـشراء ساندوتشـات شـاورمة، ليعـود إليهـم شـاحبًا وفي يديـه إحـدى الصُحـف الفرنسـية. بـدا الامتعـاض مطبوعًـا عـلى وجهـه قبـل أن يرفـع الصحيفـة أمـام «حسـين» قائـلًا:

ـــ تصـوروا. لقـد مـات صـبي صغـير كان يمُـرّ خـارج المعبـد مـن جـراء الانفجـار. هـذه الصحيفـة نـشرت صورتـه.

ثُم قال:

ــ هو طالب بالإعدادي اسمه إلياس حسان، وهو ليس يهوديًا.

ــ مُسلم؟

سأل «مصطفى»، فأجاب «محمد» قائلًا:

ــ نعم.

هز «حسين» رأسه وقال:

ــ هـذا الولـد لـص. كان يـسرق التوت، وتسـبب في تأخـير موعـد العملية لعــدة دقائق.

ــ نعم.

قالها «عبدالقادر»، وأضاف:

ــ ترددت كثـيرًا قبـل إطلاق الرصـاص بسـببه، لكـن في النهايـة كان لابـد مـن حسـم الأمـر.

فـكَّ «حسـين» لفـة الطعـام ليتنـاول ساندوتشًـا قبـل أن يقـول موجهًـا حديثـه إلى «محمـد»:

ــ اسـمع يـا محمـد. في بعـض الأحيـان، تضعـك الظـروف في مواقـف صعبــة، لا تختارهــا لكنَّهــا تُفــرض عليــك فرضًــا. ومــا حــدث للصــبي حرامي التـوت وارد التكـرار في عمليـات أخـرى، ولابـد مـن عـدم الالتفـات لأي شيء يُهــدد بفشـل العمليـة أو سـقوط مُنفذيهـا.

ثُم قال بثقة الخبير:

ــ في عمليـات بطوليـة عديـدة فقـد الفدائيـون أرواحهـم بسـبب النُبـل الزائـد والشـهامة.

هزَّ «محمد» رأسه تسليمًا، وقال «عبدالقادر»:

ــ أوافقك الرأي.

ــ وأنا أيضًا.

قالها «مصطفى كمال»، وهو يلتهم ساندوتش الشاورمة الساخن.

***

فتـح «حسـين» بـاب شـقته بعـد أن عـاد مـن احتفـال بنجـاح العمليـة في أحـد البـارات القديمـة بصُحبـة «عبدالقـادر»، والـذي أخـبره بنبـأ اغتيـال الشـيخ «حسـن البنـا» في القاهـرة. دلـف إلى الداخـل مُسـتعيدًا قـول صاحبـه بـأنَّ فلـول الإخـوان في سـوريا يقولـون إنَّ الشـيخ البنـا قُتـل بواسـطة أحـد الأجهـزة السريـة الـتي يُديرهـا الملـك فـاروق، وفكّـر للحظـات أنَّـه ربمـا نفـذَ عمليـة اغتيـال «أمـين عُثمـان» لصالـح الملـك دون أن يـدري. حـدّث نفسـه بـأن قتـل زعيـم الإخـوان المُسـلمين بهـذا الشـكل يؤكـد أنَّـه لا أمـان للملـك أو رجالـه أو المُتصلـين بالـسراي، وأنـه ربمـا يُضحـي بـأي شـخص في سـبيل تحقيـق آمالـه. أضـاء نـور الصالـة فلاحـظ مظروفًـا تـم دفعـه مـن تحـت البـاب، فسـارع لفضِّـه متوجسًـا خيفـة. قـرأ خطابًـا بـدون توقيـع مـن مناضـل عـربي إلى المناضـل «حسـين توفيـق» يُثمّـن بطولتـه وشـجاعته ويُحـيي فيـه إقدامـه عـلى الانتقـام لدمـاء الفلسـطينيين في ديـر ياسـين. وقـال مُرسـل الخطـاب إنَّ طريـق العمليـة القادمـة مرسـوم بعنايـة، وأنَّـه يـترك تحديـد موعـد التنفيـذ لـه، موضحًـا أنَّ هُنـاك جاسوسـا بريطانيـا يقطُـن في الناحيـة الشرقيـة مـن جبـل قاسـيون في مـنزل فخـم، واسـمه سـترلينج، يعمـل مراسـلًا لجريـدة «التايمـز». وذكـر الخطـاب أنَّ الرجـل يسـتيقظ في السـابعة صباحًـا ويذهـب إلى مكتـب الجريـدة في الثامنـة ويظـلَّ مُتنقـلًا بينـه وبـين الهيئات الحكوميـة والسـفارة البريطانيـة حـتى السادسـة مسـاء حيـث يعـود إلى البيـت. أضـاف الخطـاب أنَّـه لا يوجـد لـدى الجاسـوس أي حُـراس، وكُل مَـن يعيشـون معـه هُـم سـائق وخادمـة وسُـفرجي، وأنَّ لديـه بُندقيـة سريعـة الطلقـات في منزلـه، فضـلا عـن مُسدسـات متنوعـة.

واعتـبر «حسـين» الخطـاب دليـلا عـلى صحـة اسـتنتاج «عبدالقـادر» بشـأن وجـود تنظيـم مُشـابه ومُقـارب في التوجهـات، لكنَّـه شـعر بالحـيرة عـن السـبب الـذي دفـع ذلـك التنظيـم إلى إهـداء المعلومـات حـول سـترلينج لـه بـدلًا مـن القيـام مبـاشرة بالاغتيـال مبـاشرة.

في الصبـاح وعـلى مقهـى الصالحيـة الأكـبر جلـس «حسـين» مـع «عبدالقـادر» يُناقـش مكاسـب العمليـة الجديـدة، مؤكـدًا أنَّ الهجـوم على الجاسـوس البريطـاني سـيحقق ردعًـا للمخابـرات البريطانيـة، وسيُسـعد الشـارع الرافـض للتدخـل الأجنـبي في شـئون البـلاد، وسـيوفر للتنظيـم أسـلحة عديـدة ومتطـورة يمتلكهـا سـترلينج. إنَّهـم في حاجـة أيضًـا للمـال، ومثـل هـذا البيـت سـيكون غنيًـا بالذهـب والأمـوال اللازمـة لتمويـل المزيـد مـن العمليـات. ودعـا «حسـين» صديقـه إلى أن يحـاول التحقـق مـن صحـة المعلومـات الخاصـة بالصحفـي البريطـاني وفي حـال ثبوتهـا، سـيتم التنفيـذ في أقـرب وقـت ممكـن.

في اليـوم ذاتـه لـم يرفـض «حسـين» طلـب «سُـعاد» أن يصحبهـا في نُزهـة نحـو حديقـة الحيوانـات، ليتلقـى سـيلًا مـن الأسـئلة السـاذجة عـن أهلـه، ووالدتـه، ومدرسـته، وأصدقائـه، وملابـس الفتيـات في القاهـرة، والمطاعـم والمتنزهـات. سـألته إن كان أحـب، فـروى لهـا قصصًـا عديـدة عـن مغامـرات وهميـة، ونسـاء جميـلات، وأحـلام طوتهـا الغُربـة، وأمـانٍ خنقهـا القلـق.

ـ ما آمالك؟

ردّ بأنَّـه موجـوع بتحريـر الشـعوب العربيـة مـن الحُـكام الخونـة، والمُحتلـين.

قالت له:

ـ ألا تخاف؟

صارحهـا بمـا يشـعر بـه، وكان مُحقًّـا بأنـه لـم يخـف قـط. قـال إنَّـه كان مُنـذ الصغـر يشـعر بأنـه مُختلـف، لا تسـتهويه لعـب الأطفـال السـاذجة، ولا يخـاف مـن حكايـات الغـول الخـارق للطبيعـة، يُنكـر وجـود العفاريت، ولا يأبـه بتهديـد الكبـار لـه. دار بخلـده أنـه أقـسى ممـا تتصـور، وقـال لنفسـه دون أن يُطلعهـا عـلى ذلـك أن الشـفقة كلمـة لـم يحملهـا تجـاه إنسـان. إنَّـه صلـب كالصخـر، بـارد كالثلـج، خـاوٍ مـن أي مشـاعر حُـب إلا

للأوطـان والأبطـال.

لامســت كفــه يدهــا الدافئــة ليتســلل شــعور صــارخ بالإثــارة نحــو جســده، مُتذكــرًا أنَّــه مــا لامــس أُنــثى مُــذ فــارق بجســده بلــده الأم. فكَّــر أنَّ الأبطــال والزعمــاء التاريخيــين في حاجــة لكبــت أحاسيســهم ومحــو ملامــح الضعــف الإنســاني عــن أجســادهم. ســحب يــده بــبرود، وســأل فتاتــه في اســتعلاء عــن حقيقــة مشــاعرها تجاهــه. بــدت مُرتبكــة وهــي تتلعثــم مؤكــدة أنَّــه أول رجُــل في حياتهــا تخــرج إلى جــواره. قالــت لــه إنَّ شــعورًا مُتعاظمًــا بالأمــان ينتابهــا كُلمــا وقفــت إلى جــواره. أفضــت إليــه بأنَّهــا تشــعر بالحيــاة تبتســم كُلمــا نظــرت نحــو وجهــه، إنَّــه رجُــل كمــا ينبغــي للرجولــة أن تكــون، فيــه ســمات الشــهامة، وكبريــاء القــوة، وصرامــة الشُــجعان. امــتن لمديحهــا وســألها في بــرود:

ـ هل تتزوجينني؟

بدون تردد أجابت:

ـ طبعًا.

مــرَّت الأيــام رتيبــة في انتظــار رد «عبدالقــادر» قبــل أن يُقــرر بصحــة المعلومــات حــول عنــوان مُراســل التايمــز. في الليلــة الموعــودة، كــسر «عبدالقــادر» نافــذة ســترلينج ليدلــف «حســين» ومــن معــه إلى غرفــة النــوم الهادئــة، لــم يُبــد الصحفــي المُتهــم بالتجســس أي مقاومــة، إذ طعنــه «حســين» بســكين حــاد في جانبــه الأيمــن، قبــل أن يُفتــش دولابــه بحثًــا عــن الأســلحة والأمــوال، دون طائــل. نضــح الــدم غزيــرًا فــوق الفــراش، وغــادر «حســين» وزُمــلاؤه بعــد أن أحســوا بالقلــق بعــد ســماع صــوت ســيارات قادمــة.

***

فاتـح «حسـين»، «شـاكر الحميـدي» في طلـب ابنتـه للـزواج، فلـم تُفاجئـه ابتسـامته ولا ردّه السريـع بمُعانقتـه وتقبيلـه، وكأنَّ الرجـل ينتظـر أمـرًا كهـذا، فيما أطلقت الأُم زغاريـد قالـت إنهـا تعلمتهـا مـن مشـاهدة الأفـلام المصريـة. بكـت «سُـعاد» فرحًـا وهـي ترنـو لكـف والدهـا محتضنـة كـف «حسـين» يقـرآن معًـا الفاتحـة، مُحدديـن الجُمعـة الأولى مـن شـهر مـارس موعـدًا للـزواج.

سُر «عبدالقـادر» بالنبـأ، وقـال لـ«حسـين» إنَّ إقدامـه عـلى الـزواج في الشـام يعـني بأنَّـه يُخطـط للاسـتقرار فيهـا وتأسـيس أسرة بهـا. وأخـبره بأنَّـه علـم أنَّ مُراسـل التايمـز لـم يمُـت، وأنَّـه قـرر مُغـادرة البـلاد لعـدم شـعوره بالأمـن، في الوقـت الـذي ألمـح فيـه «عبدالقـادر» لـضرورة التريُـث والحـذر في تنفيـذ عمليـات جديـدة لأن هُنـاك اختراقـا واضحـا لعملياتهـم. شـعر «حسـين» بـضرورة التشـاور مـع كتيبـة الفـداء للتأكـد إن كانـت عـلى علـم بعملياتـه أم لا، والتعـرف عـلى كيفيـة كشـف الاختراق لمجموعتـه، وبالفعـل «رتـب عبدالقـادر» لقـاءً بـين «حسـين» وطالـب سـوري بالجامعـة الأمريكيـة اسـمه «هـاني الهنـدي» في أحـد المطاعـم النائيـة بأطـراف العاصمـة. كان «هـاني» طويـل القامـة، أبيـض البـشرة، مُسترسـل الشـعر، هـادئ الملامـح، كثـير التلفُـت، رخيـم الصـوت، وهـو مـا جـدَّد في ذهـن «حسـين» لقـاءه الأول بـ«أنـور السـادات». سـأله «حسـين» عمـا فعلـه تنظيمـه فأجـاب بـأنَّ مـا فعلتـه كتيبـة الفـداء يبقـى سرًا مـن أسرارهـا لا يجـوز الحديـث عنـه، ثُـم أضـاف إنَّـه لـولا معرفتـه بـ«عبدالقـادر عامـر» مـا وافـق عـلى لقائـه خاصـة أنَّـه يعـرف جيـدًا أنَّـه مرصـود مـن أجهـزة الأمـن. بـدا «هـاني» مُدققًـا في وجـه «حسـين»، مُسـتقرئا لـه قبـل أن يسـتمع منـه لملخـص عملياتـه في دمشـق. ابتسـم «هـاني» ابتسـامة سـاخرة قبـل أن يصـدم «حسـين» بقولـه:

ـ لقد كُنت من البداية أعمل في خدمة الأمن السوري.

ـ الأمن؟

سأل «حسين»، مُستنكرًا، فأجاب «هاني» بهدوء:

ـ نعم. الأمن. وتحديدا في خدمة مدير الأمن العام حُسني الزعيم.

انعقد حاجبا «حسين»، فواصل مُحدِّثه شارحًا:

ـ حُسني الزعيم من أذكى ضباط الجيش السوري، وهو رجل عمل مع الأتراك، والفرنسيين، وحارب في الحربين، وحقق أموالًا طائلة، وله أتباع ومُخبرون في كل مكان، وهو من أولئك الذين يُنفّذون عملياتهم بأيدي غيرهم، وقد استفاد بقوة من حادث الاعتداء على المعبد اليهودي بنشر قواته في جوبر، واستفاد أيضا من حادث الاعتداء على الصحفي البريطاني سترلينج لأنه كان أحد الذين يفضحون أفعاله وعملياته القذرة، لذا فقد قدمت له خدمة عظيمة بما فعلت.

انزعج «حسين» وقال:

ـ هل يعني ذلك أنَّ رجال حُسني الزعيم هُم مَن قاتلوا إلى جوارنا يوم المعبد.

ابتسم «هاني الهندي» ابتسامة ثقة وقال:

ـ نعم، هم بلا شك. واضح أنَّه كان يُراقب تحركاتك مُنذ دخلت دمشق، وسينقلب عليك إن شعر أنك خارج سيطرته. رُبما تنفجر قُنبلة تحت منزلك فتكون نهايتك، أو يدُس عليك مَن يقنصك عن بُعد، أو يُلقي القبض عليك اشتباهًا ويُسلمك لشرطة بلادك أو أي شيء آخر.

صمت سائلًا نفسه إن كان موعودًا بالاستغلاليين القادرين على توجيهه عن بُعد، واعتبر نفسه ساذجًا بين ثعالب وذئاب. سأل طالبًا النصيحة، فقال له «هاني»:

ـ لا تُفكر بمجابهته أو تحديه. هو أصعب من أن يتحول إلى هدف. إنَّه شخص ماكر وحريص وواسع النفوذ. أفضل شيء أن تحاول مُلاطفته. قدّم له نفسك باعتبارك صديقا، وابحث عن نقاط التقاء

مـع توجهاتـه. امنحـه شـعورًا بالثقـة إن كُنـت ترغـب في اسـتمرار العمـل بسـوريا، وأتصـور أنَّـه يمكـن عقـد اتفـاق معـه.

مزيـد مـن الخـوض في الوحـل. مـا لأحـلام البطولـة والنضـال تتحطـم عـلى صخـور الانتهازيـين؟ «محمـود مـوسى» سـاعدك لأنَّـك قتلـت غريـم الملـك، و«السـادات» بـنى مجـده وشـهرته عـلى مغامراتـك وخـرج مـن القضيـة كالشـعر مـن العجـين.

ـ وفلسطين؟

سأل «حسين» بحماس، فقال «هاني»:

ـ سـتواصل عملـك مـا دمـت بعيـدًا عـن مصالحـه. سـيُخبرك بأنَّـه يُدعمـك ويؤيـدك، لكـن في حقيقـة الأمـر فـإنَّ الأمـر لا يعنيـه كثـيرًا.

ـ شُكرًا على النصيحة.

غـادر «حسـين» مُسرعًـا بعـد أن أخفـى مُسدسـه في بنطالـه. لـم يُهـدر وقتًـا، إذ أوقـف تاكسـيًا وطلـب منـه أن يوصلـه لمركـز الأمـن العـام في قلـب العاصمـة. طـرق البـاب، ففتـح أحـد الحـرس المُتجهمـين الـذي سـأله بغلظـة عمـا يُريـد، فقـدَّم نفسـه بهويتـه الفلسـطينية مُطالبـا بلقـاء العقيـد «حُسـني الزعيـم»، مُكـررًا أنَّ لديـه معلومـات مهمـة جـدًا يجـب عرضهـا عليـه. سـلَّمهم مُسدسـه بعـد عمليـة تفتيـش دقيقـة، ودخـل إلى غُرفـة صغـيرة ظـلَّ فيهـا ثـلاث سـاعات اسـتجاب خلالهـا أحـد الحـراس لنداءاتـه المُتكـررة لتقديـم المـاء لـه، قبـل أن يدخـل إليـه رجـل ضخـم الجُثـة ليعيـد تفتيشـه مـرة ثانيـة، ثُـم قـاده إلى بهـو مُتسـع مؤثـث بأثـاث فخيـم، ومـزدان بصـور طبيعيـة لقلعـة حلـب وسـور دمشـق القديـم والمسجد الأمـوي. نظـر أمامـه فوجـد رجـلا أبيض سـمينا مُتسـع العينـين، يحمـل ابتسـامة بـاردة، ولـه عينـان صاحيتـان، فوجـئ بـه يمـد يـدُه بالمُصافحـة.

ـ أهلا وسهلًا أخ حسين.

قالهـا بصـوتٍ أجـش، ضاغطًـا بيـدٍ قويـة عـلى كـف «حسـين»، الـذي ابتسـم وجلـس مُضطربًـا.

ــ أنا لاجئ مصري ولست فلسطينيًا.

هزَّ حُسني الزعيم رأسه وقال:

ــ نعم. أعرف ذلك.

ــ أنا المُتهم الهارب في قضية قتل أمين عثمان.

ـــ هـاااا. عظيـم. كان هـذا الرجـل مـن أعـداء الملـك. لقـد أحسـنت بمـا فعلـت.

احتفظ «حسين» ببروده وقال:

ــ أطمع في رعايتك وتأمينك.

ــ لك ذلك. نحن نعلم بوجودك، ومع ذلك لم يتعرض لك أحد.

غمز الرجل بطرف عينٍ سائلًا:

ــ قُل لي لماذا قتلت أمين عُثمان؟

ــ لأنه خائن.

ــ تمام.

ــ الساسة مُخادعون وليس سوى رجال الحرب من أبطال.

ــ صحيح.

ـــ أنـا أمقتهـم وآمـل أن تنجـح في إيقـاف مهـازل الأفاقـين مـن رجـال الأحـزاب ونـواب البرلمـان وتُعيـد لهـذا البلـد أمنـه وقوتـه، خاصـة أنَّـه أول حائـط صـد ضـد الصهيونيـة.

ـــ سـأفعل إن شاء الله. الشـباب هُـم الأمـل، وسـأعمل لهـم مـن أجـل سـوريا عظيمـة قويـة ومُتقدمـة.

ـــ عنـدي معلومـات عـن صحفـي بريطـاني أظـن أنَّـه جاسـوس عـلى بلادكـم.

ــ هاااااااااا، لقد أحسنت صُنعًا.

ــ لقد حاولت إنقاذ البلاد من شره، لكن...

ــ لا عليك. لقد خرج خائفًا يترقب.. ها ها ها. قُل لي يا حسين: ماذا تشرب؟

ابتسم «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

ــ قهوة.

أخرج الرجل سيجارًا غليظًا منحه لحسين الذي سارع بإشعاله، مُنصتًا للرجل:

ــ وصلت رسالتك يا حسين. لا تخش شيئًا. امض وسنؤمنك. لكن لا تأخذ مُسدسك من الحارس. لا سلاح لك بعد اليوم.

هزَّ «حسين» رأسه، فكرر الرجل:

ــ مفهوم؟

ــ مفهوم.

وخرج مذهولًا من سطوة الرجل وقوة شخصيته.

***

اسم على مُسمى. خُلق ليحكُم. مع الخطر عاش، مُقدّرًا أنَّ المُغامرين ينالون ما يحلمون به، وأنَّ الخائفين لا يصنعون مجدًا. عبر بسيارته غير المسقوفة صفوف جُنوده المُحاصرين لقصر الرئاسة، رافعًا يمينه بالتحية، كبطل أسطوري، مُنطلقًا نحو ممر قاعة الاستقبال ليُبلغ سيده السابق، والرئيس كسير الأجنحة شُكري القوتلي نبأ عزله. تذكر «حُسني الزعيم» ما تعلمه في الجيش الفرنسي الذي وصل فيه لرُتبة العقيد بأنَّ مَن يملك القوة يملك كُل شيء ومَن

يعـرف اللحظـة المواتيـة للتحـرك يكسـب المعـارك. كان كُل أملـه أن يحكُم سـوريا، أرض الكـرز والمُشـمش، سـاحرة الألبـاب، وحصـن بـني أميـة، بيـت الثقافـات ومُلتقـى العقائـد والأفـكار والمواهـب. قـال يومًـا لوالـده الـذي كان مُفتيًـا دينيًـا إنَّ السـلطة هـي أجمـل مـا في الوجـود، لكـن والـده كان فظًـا وهـو يُقـرر أنَّهـا تقـود إلى التهلُكـة، ممـا دفعـه للـرد عليـه بأنـه عـلى اسـتعداد أن يقتـل بـشرط أن يحكـم سـوريا ولـو ليـومٍ واحـد. لـم تُحبطـه نظـرات الانكسـار والخضـوع الباديـة مـن عيـني «شـكري القوتـلي» الـذي كان يهـز رأسـه خوفًـا وهـو يسـتمع لبيـان الانقـلاب، وتذكـر أنَّـه لـم يجـبُن يومًـا أو ينكـسر حـتى في أقـسى المحـن الـتي واجههـا في حياتـه سـواء مُعتقـلًا مـن خـلال البريطانيـين في الحـرب العالميـة الأولى، أو مُعتقـلًا مـن جانـب الفرنسـيين في الحـرب الثانيـة.

أمـر «حُسـني الزعيـم» بسـجن رئيـس الجمهوريـة، ورئيـس الـوزراء في مُستشـفى المُـزة، كمـا قـام باعتقـال كبـار الضبـاط المواليـن لهمـا، فضـلًا عـن الصحفيـين المُنتمـين لحـركات اليسـار والقوميـين. كمـا قـام بالقبـض عـلى «ميشـيل عفلـق» مُنظّـر حـزب البعـث العـربي وبـدأ حملـة تشـويه وملاحقــة واسـعة للمسـئولين الحكوميـين واحـدًا وراء الآخـر، قبـل أن يُعلـن حـلَّ البرلمـان رسـميًا. في الوقـت نفسـه نظَّـم مـن خـلال عمـلاء للمخابـرات مُظاهـرات عارمـة جابـت شـوارع دمشـق للمُطالبـة بترشـحه لرئاسـة الجمهوريـة وتعطيـل العمـل بالدسـتور، وإعـلان حظـر التجـوال.

كان السـوريون حائريـن بـين الخـوف والأمـل، يُقدمـون قدمًـا ويؤخـرون أخـرى، ولا يـدرون إن كان مـا جـرى خـيرًا أم شرًا. البعـض مثـل هـاني الهنـدي كان واضحًـا بـأنّ مـا جـرى هـو انقـلاب مـن ديكتاتـور صغـير عـلى ديكتاتـور أكـبر منـه، بينمـا كان «شـاكر الحميـدي» يـرى أنَّ سـوريا في حاجـة لرجـل قـوي قبـل أي شيء، وأنَّ الصرامـة ضروريـة لبنـاء دولـة قويـة، وتحقيـق نتائـج طيبـة.

في تلـك الأجـواء تـزوَّج «حسـين» في حفـل بهيـج ضـم عـددا محـدودا

مـن الأصدقـاء وأقـارب العـروس، الـتي بـدت كالبـدر يـوم اكتمالـه. اسـتغلَّ «حسـين» أمـوالًا بعثتهـا إليـه والدتـه في شراء أثـاث حديـث حرصـت «سُعاد» أن تختـاره بنفسـها، بينمـا أهـدت إليهـا والدتهـا ملاءات أسرّة وشراشـف ملونـة وملابـس نـوم رجـالي وحريمـي، ومزهريـات، وعـددا مـن قواريـر العطـر. حـرص «عبدالقـادر» عـلى المشـاركة في جميـع الأمـور ليظهـر بمثابـة الشـقيق لحسـين، مُهديًـا إيـاه أكيـاس سُـكر وشـايا أسـود، أمـا «محمـد» و«مصطفـى» فقـد دخـلا إلى الحفـل ومعهمـا عـدد لا بـأس بـه مـن صناديـق الويسـكي الفاخـر، وعُلـب السـجائر الكِنـت. جلـس المدعـوون في شـقة «شـاكر الحميـدي» الـتي تزينـت باللمبـات والـورود، وغـنَّى أحـد المُطربـين أغنيـة «يـا أم العبايـة» لسـهام رفقـي، ثُـم غـنَّى بعـد ذلـك أغنيـة محمـد عبدالوهـاب «ولمـا قالـوا لي غايـب». طبخـت السـيدة أُم «سُـعاد» صينيـة مكمـورة وملوخيـة وعـددا لا بـأس بـه مـن المحـاشي ثُـم قدمـت للمدعويـن بقـلاوة وكُنافـة نابلسـية اسـتطابها أصدقـاء حسـين. في نهايـة الحفـل دخـل هـاني الهنـدي ببذلـة سـوداء أنيقـة يحمـل بوكيهًـا مـن الـورد، ثُـم قـدَّم للعريـس ولاعـة مـن الفضـة منحوتـا عليهـا رسـم لقلعـة حلـب.

عندمـا اختـلى بزوجتـه نهـل «حسـين» مـن سـحرها مؤكـدا أنَّ عطشـه للنسـاء لا آخـر لـه، وقوتـه بـلا حـدود، حـتى سـمت «سـعاد» بروحهـا ومشـاعرها فـوق السـحاب، لتُكـرر القـول لـه أكـثر مـن مـرة بأنَّـه أجمـل شيء حـدث لهـا في حياتهـا. قالـت إنَّ سـبعة عـشر عامـا مـن الحيـاة لـم تعـرف فيهـا سـعادة كمـا عرفتهـا بزواجهـا، وأنَّهـا تشـعر أنَّ اللـه يُكافئهـا بحنانـه ودفئـه وإخلاصـه.

مـرَّت الأيـام الأولى للـزواج هانئـة وسـعيدة رغـم انقبـاض ألـمَّ بالنـاس تخوفًـا مـن إرهاصـات الانقـلاب العسـكري لـ«حُسـني الزعيـم»، الـذي بـات أكـثر حـدَّة في التعامـل مـع خصومـه. كانـت الشـوارع تزخـر بلافتـات التأييـد الـتي أعدَّهـا تُجـار وأعيـان الشـام للرجـل، كمـا كانـت الصُحـف

مُمتلئة بقصائد المديح ومقالات التفخيم، حتى أنَّ «هاني الهندي» قرأ بكل غيظ على «حسين» في إحدى زياراته له قصيدة مديح في الرجل للشاعر إلياس طرابيه تقول: «بشخصك ساد العرب وافتخر القطر/ فقدرك فينا لا يعادله قدر./ بلغت مقامًا دونه الشمس رفعة/ ومنزلة عن مثلها قصر البدر». أما «حسين» فكان لا يعبأ كثيرًا بأفاعيل الرجل، فكل ما كان يهمه هو الشعور بالأمان والاستقرار، خاصة عندما أبلغته زوجته بحملها.

***

ركبت أحلامها قبل الطائرة. كانت تنتظر بشوق شديد اليوم الذي تحتضن فيه صغيرها بدفء وحنان وراحة بال. كانت تراه صغيرًا رغم أنَّ عمره اقترب من الخامسة والعشرين. مازال «حسين» في عينيها الوليد الزاحف الذي يتحرك كثيرًا، وينظر باستغراب لكُل مَن يُناديه، مازال الطفل الشقي المُعتز بأبناء بلده، الكاره لتكبر وغطرسة الأتراك، يلعب مع أقرانه فيختار دور الفلاح لا السيد، وينتصر له من ظُلم يراه مغموسًا فيه. مازالت تراه الصبي الخجول المُعتزل للرقص والرافض للهو، والباحث عن دور حقيقي يخدم به بلاده، حتى لو كان ذلك الدور يحمل خطرًا على حياته.

زارت السيدة «سميرة» ابنها المسجون «سعيد»، فسألها عن «حسين»، وزارتها ابنة خالتها، فسألتها عن حُسين، وقابلت في النادي إحدى الفتيات اللاتي تعرفنَّ به فسألتها عن «حُسين»، وكانت كُلما رأت «محمد إبرهيم كامل» يسألها كأنَّها تراه كُل يوم، تُحادثه، وتحتضنه، وتشعر بأمومتها تجاهه. قبل أيام قال لها زوجها إنه يشعُر باعتلال صحته، وأنَّه يخشى أن يموت قبل أن يطمئن على حال «حسين»، وأنَّه لولا علمه بأن خصومه في الوزارة يتتبعون حركته لسافر إلى

دمشـق لرؤيتـه. دعاهـا أن تُسـافر سرًا إلى هُنـاك لتلتقـي بـه، وتمكـث معـه شـهرًا أو اثنـين لتطمـئن عـلى أحوالـه وتطمئنـه.

سـجائر عـدة قتلتهـا خـلال رحلـة الطائـرة مـن القاهرة إلى دمشـق تنفيسًـا عـن أشـواق مُسـتعرة للقـاء صغيرهـا، الـذي مهمـا كـبُر سـيبقى صغـيرًا. فتحـت الورقـة المُـدون بهـا العُنـوان لتُعيـد قراءتهـا مـرة واثنتـين، وهـي تسـتمع لصـوت الطيـار مُخـبرًا السـادة الـرُكاب بقـرب الهبـوط. فكَّـرت في رباطـة جـأش «سـعيد» المحبوس بالسـجن، وقالـت إنَّ «حسـين» المُطارد أكـثر صلابـة، وأنَّ مـن حقهـا أن تفخـر بابنيهـا الرجلـين. تذكـرت أنَّ عائلتها في تركيـا ضربـت المثـل في القـوة والصلابـة وتحـدي الخطـر، وخمَّنـت أنَّ السـمات الموروثـة في العائلـة تظهـر بوضـوح في «حسـين» و«سـعيد».

خرجـت مـن المطـار بسرعـة بسـبب قلـة أعـداد المسـافرين، لتسـتقل تاكسـيًا أعطتـه عنـوان ابنهـا في الصالحيـة وطلبـت توصيلهـا إليـه. فكَّـرت في وقـع المُفاجـأة عـلى وجـه «حُسـين»، وتصـورت أن يحملهـا ويـدور بهـا فرحًـا، أو يحتضـن كفهـا لاثمًـا، أو يبـكي مـن شـدة الفـرح، ثُـم تذكـرت أنـه قليـلًا مـا يبـكي، بـل نـادرًا أو مُسـتحيلًا، وقالـت لنفسـها أنَّهـا لـم تضبُطـه يومًـا يـذرف دمعـة. سـألت السـائق عـن الأحـوال في سـوريا فرمقهـا بنظـرة توجـس قبـل أن يـرُد قائـلًا:

ـ ستعود سوريا مملكة قريبًا بإذن الله.

استغربت كلامه فسألت:

ـ كيف؟

ـ إنَّهم يتحدثون عن تتويج حُسني الزعيم ملكًا.

مصمصـت شـفتيها، وشـعرت أنَّ الرجـل يسـخر مـن الأحـوال، ولاذت بالصمـت.

كانـت الشـوارع مُزدانـة بلافتـات مـن القمـاش تحمـل عبـارات التأييـد للزعيـم المحبـوب مـن النـاس، مـع صـور لا حـصر لهـا ملصقـة عـلى

معظـم الحوانيـت. لاحـظ السـائق نظراتهـا المُسـتغربة فقـال:

ــ النـاس حـزانى عـلى سـوء الأحـوال وغـلاء الأسـعار، وهزيمـة العـرب في فلسـطين، وحسـني الزعيـم قبـض عـلى نصـف السياسـيين وأودعهـم السـجن، ومـع ذلـك فالجميـع يؤيـده ويُهلـل لـه.

ــ تصورت أنَّ الحال لديكم أفضل من القاهرة.

مصمص شفتيه وقال:

ــ لديكـم ملـك شـاب، وزُعمـاء طيبـون، لـو كان لدينـا رجـل مثـل النحـاس باشـا لمـا وصـل بنـا الحـال لمـا نحـن فيـه.

هزَّت رأسها وتمتمت:

ــ الجميع لا يعجبه حاله، ولو كُنت لدينا للعنت كُل شيء.

وصـل الصالحيـة، الحـي القديـم مُبهـر بعمائـره ومآذنـه الُعثُمانيـة. أوقـف السـيارة إلى جانـب ضريـح محـيي الديـن بـن عـربي ليسـأل عـن البنايـة رقـم 334، ثُـم تحـرّك مُجـددا بضعـة أمتار قبـل أن يتوقـف تمامًا ويهبـط ليحمـل حقيبـة السـيدة ذات الشـال الأسـود. سـألت «سـميرة» طفـلًا صغـيرًا يقـف أمـام البنايـة عـن «حسـين المـصري»، فأشـار إلى الـدور الثـاني قائـلًا:

ــ هُنا. عم حسين.

صعـدت «سـميرة» لتطـرُق البـاب طرقـات خفيفـة رغـم بحـار الشـوق المتلاطمـة في قلبهـا مُنـذ تسـعة شـهور مـن الغيـاب. انتظـرت لحظـات، ثُـم طرقـت البـاب مـرة أخـرى دون مُجيـب، ثُـم لامـت نفسـها أنَّهـا لـم تتصـل بحسـين لتُخـبره بوصولهـا. وقفـت حائـرة قبـل أن تُقـرر أن تطـرق بـاب الشـقة المقابلـة لتفتـح لهـا سـيدة نحيلـة، بـدت شـبه ناعسـة، لكنَّها رمقتهـا بتركـيز شـديد، قبـل أن تحتضنهـا بشـدة.

ــ أنت أُم حُسين؟

سألت سيدة الشقة المقابلة، فأجابت «سميرة» مُبتسمة:

ـ نعم. كيف عرفتِ؟

ـ الدم واحد، ونفس لون الشعر.

ـ شُكرًا لك.

ابتسمت أم «سُعاد»، ودعت الضيفة للدخول إلى الصالون لحين عودة «حسين»، ولم تكد قدما «سميرة» تخطو قليلًا داخل الشقة حتى شهقت عندما لمحت صورة ابنها وإلى جواره عروس بفستان الزفاف مُعلقة على الجدار المواجه للباب.

جلست مُستغربة، وشعرت بالدم يغلي في رأسها. كيف فعلها؟ تزوَّج دون إذن؟ ومن أين؟ من دمشق؟

انتشلها من دهشتها صوت أم «سُعاد» تقول:

ـ هذه سُعاد. ابنتي. تزوجت حسين الشهر الماضى، وهُما الآن عند الطبيب.

ثُم قالت بسعادة حقيقية:

ـ إنَّها حامل، ستُنجب لك أول حفيد إن شاء الله.

صدمتان مُتتاليتان. اختطاف مُفاجئ. حُضن جديد. امرأة أخرى تقتنصه. ستجعله أبًا. طفل يحمل طفلًا. ستسحبه بعيدًا بعيدا مُستغلة ظروف الهروب ليبتعد عن أمه الحنون.

ـ ماذا تشربين؟

ردَّت باشمئزاز:

ـ لا شيء. سأُدخن.

ومضت تستمع بحنق مكتوم لحكايات السيدة عن ابنتها والمحبة الغامرة التي يغمرون بها ابنها، وواصلت التدخين بعصبية زائدة مُنتظرة قدوم الولد المُنفلت.

***

ـ لا أستسيغ طعامكم ولولا الجوع ما ذُقته.

قالـت السـيدة «سـميرة» لـ«سُـعاد» عـلى مائـدة الغـداء بمشـاركة «حسـين» الـذي لـم يتفاجـأ كثـيرًا بزيـارة أمـه. قبـل سـاعات لـم تنجـح الأُم في منـع حُضنهـا مـن احتـواء ابنهـا رغـم غضبهـا مـن زواجـه دون إذن، واكتفـت بمنـح الزوجـة نظـرة اسـتعلاء. قُبـلات مُتتاليـة منحتهـا السـيدة لابنهـا فـور رؤيتـه داخـلًا برفقـة امرأتـه قبـل أن تـصر عـلى أن ينـام تلـك الليلـة إلى جوارهـا حـتى الصبـاح لتحـرم الزوجـة مـن شريكهـا في الفـراش.

قالت «سُعاد» التي بدت مُزدهرة الوجه:

ـ حسين اعتاد أن يأكل من يدي، وصار لا يتناول غداءً دون زعتر.

عقدت «سميرة» حاجبيها، وبدا وجهها مُتجهمًا وهي ترُد:

ـ عندما يعود إلى مصر سينسى الزعتر وسيرجع لأكلات بلده.

ابتسمت «سُعاد» في برود قبل أن تقول:

ـ نحن نقول عندنا إن بلد المرء هي مَن فيها امرأته.

ردَّت «سميرة» في عصبية:

ــ هـااا... ونحـن عندنـا نقـول إنَّ المـرأة تتبـع الرجـل إلى أي مـكان، ووطنهـا هـو مـا يختـاره هـو وطنًـا لـه.

وأضافت في فخر:

ــ أنـا في الأصـل تُركيـة، لكـن بعـد أن تزوجـت توفيـق باشـا صرت مثلـه مصريـة.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، ونظر إلى أمه سائلًا:

ـ هل حصل الوالد على الباشوية؟

ردَّت بغيظ:

ـ هو على وشك ذلك، ثُم لا تتحدث عن والدك إلا بُكل احترام.

ـ حاضر.

مدَّت «سُعاد» يدها بقطعة دجاج قائلة:

ـ جربي يا خالة أكلي.

هزَّت «سميرة» رأسها، وقالت:

ـ شبعت.

ثُمَّ قامت من المائدة، وجلست على الأريكة، ونظرت إلى «سُعاد» وقالت آمرة:

ـ اعملي لي شايا.

جلس «حسين» إلى جوار أمه يسألها عن أحوال القاهرة، والأصدقاء، والأقارب، والنادي، وابن خالته «إبراهيم كامل»، و«سعيد» و«مدحت» و«محمود مراد» و«سيد» وباقي المحبوسين. أنبأته أنَّ المُحامي بشّر والده بأنَّ قرارًا ملكيًا من مولانا سيصدر بالعفو عن المُدانين في القضية، وسيسقط الحُكم الصادر بالحبس ضده ليعود إلى أرض مصر مرة أخرى. قالت له إنَّ مُستقبله محفوظ في إدارة أملاكها الزراعية المُمتدة في محافظتي الشرقية، والبحيرة، وأنَّه سيكون رجل أعمال ناجحًا.

وأخبرته أمه أيضًا أنَّه صار عقب هروبه فتى أحلام مُعظم فتيات العائلات الراقية، حتى أنَّها قرأت في إحدى المجلات أنَّ كثيرات منهُن يُخبئن صوره تحت مخداتهن. أسعده النبأ وشعر بالراحة أنَّ «سُعاد» غابت في المطبخ لإعداد الشاي. ثُم سأل أُمه هامسًا:

ـ هل سمعت أخبارًا عن ميمي؟

حاولت التذكُر، ثُم أخرجت سجائرها يُشعل لها «حسين» واحدة، قبل أن تسأل:

ـ ميمي. مَن؟

لاحظ «حسين» قدوم زوجته، فهمسَ ثانية:

ــ ميمي صديقة إحسان. ألا تذكرينها؟ فتاة النادي التي كانت أمها صديقة خالتي.

ــ آه. آه. عرفتها. لقد أنجبت ولدًا. هي مُتزوجة الآن من البكباشي محمود موسى.

ــ يااه.

ــ نعم لقد زار والدك ليطمئن على أحوالك بعد صدور الحُكم، وكان لطيفًا.

مُفاجأة. قالها في سرّه، قبل أن يُشعل سيجارة استغراب، لتواصل أُمه الثرثرة في موضوعات شتى لم تدخل رأسه، والذي كان مشغولًا بتساؤلات جمة حول قانون الصدفة الذي يحكم كثيرا من الأمور حوله.

في الأيام التالية كرّرت أمه عبارات اللمز والمُكايدة «لسُعاد» التي بدت صبورة أكثر مما توقَّع، والتزمت الصمت. في إحدى المرات قالت لها إنَّ المصريين لا يحبون النساء النحيفات، وفي مرة أخرى قالت إنَّ خفة دم المصريات أكثر جاذبية للرجل من أي جمال، ومرة ثالثة حكت قصصًا وهمية عن صراع فتيات حي المعادي الراقي على «حسين». كانت «سُعاد» تبتسم وتهز رأسها دون رد مُنتظرة أن يتكلم زوجها لوضع حد للهجة التجريح التي تتحدث بها حماتها، لكنَّه لم يفعل، ورغم ذلك تظاهرت «سُعاد» أمام والديها بالسعادة لزيارة حماتها لهما، حتى انقضى شهران كاملان، امتلأ فيهما جسد «حسين» قليلًا، بينما انتفخ بطنها، وجهزت السيدة «سميرة» حقيبتها للمُغادرة.

***

ازدادت الأوضـاع توتـرًا مـع بـدء حركـة اعتقـالات شـملت كثـيرًا مـن القوميـين العـرب، في الوقـت الـذي وصلـت فيـه الأنبـاء عـن هـروب عـدد كبـير مـن أعضـاء جماعـة الإخـوان المسـلمين مـن مـصر إلى سـوريا بعـد ضربـات قاصمـة تعرضـت لهـا الجماعـة. وعـلى إثـر شـائعات حول اعـتزام «حُسـني الزعيـم» تسـليم حقـول النفـط السـورية لإحـدى الـشركات الأمريكيـة الكـبرى، وقبولـه عمـولات مـن شركات ومؤسسـات غربيـة، دعـت كتيبـة الفـداء العـربي إلى اجتمـاع شـامل يضُـم جميـع الفصائـل والتنظيمـات العاملـة ضـد المصالـح الصهيونيـة والغربيـة، واختـارت أحـد البيـوت القديمـة في مدينـة حمـص مكانـًا للاجتمـاع.

كان «حسـين» ممثـلًا للمجموعـة المصريـة قـد فوجـئ بوجـود مجموعـة أخـرى مـن مـصر يقودهـا ضابـط جيـش سـابق تابـع للإخـوان يُدعـى «مُصطفـى راغـب» حـاضرًا معـه، بينمـا حـضرت مجموعـة سـورية بقيـادة شـاب وسـيم يُدعـى «جهـاد ضاحـي»، وأخـرى بقيـادة صديقـه السـابق «هـاني الهنـدي»، ومجموعـة فلسـطينية يُمثلهـا رجـل كـث اللحيـة يُدعـى «أبـا عدنـان».

عـرض «هـاني» ضرورة اسـتكمال عمليـات الاعتـداء عـلى منشـآت يهوديـة في اللاذقيـة وحمـص وبـيروت، مُحبـذًا فكـرة الابتعـاد قليـلًا عـن العاصمة، حـتى لا يُثـير ذلـك «حسـني الزعيـم» ويعتـبره موجهًـا ضـده شـخصيًا، فيمـا طرحـت المجموعـة الفلسـطينية ضرورة تنفيـذ عمليـات اغتيـال ضـد الساسـة والمسـئولين العـرب الذيـن تقاعسـوا عـن نجـدة فلسـطين خاصـة الملـك عبداللـه ملـك الأردن، ونـوري السـعيد رئيـس الحكومـة العراقيـة. ورأى «مُصطفـى راغـب» أنَّ الإخـوان في مـصر نفـذوا اغتيـال النقـراشي باشـا باعتبـاره مسـئولًا عـن ضيـاع فلسـطين، ودفعـوا أغـلى ثمـن وهـو حيـاة «حسـن البنـا» المرشـد العـام للجماعـة، فضـلًا عـن تشريـد وملاحقـة أعضـاء الجهـاز فـردًا فـردًا، وهـو مـا يعـني أنَّـه ينبغـي عـلى بـاقي كتائـب الفـداء العـربي تنفيـذ عمليـات اغتيـال شـبيهة ضد الساسـة

العـرب.

ـ قدرُنا أن نحيا وسط حشود من الخونة.

قالهـا «حسـين توفيـق»، وهـو يقـرأ عـلى وجـوه زملائـه تعبـيرات مُحرضة ضـد جميـع الساسـة العرب.

ـ لقد باعوا فلسطين دون مقابل.

ردَّ «جهاد ضاحي» ساخرًا، ليُضيف «هاني الهندي» قائلًا:

ـــ إنَّ علينـا الـضرب بشـكل قـاسٍ وُمُتكـرر كُل المصالح اليهوديـة والغربية حولنا.

وفـرد «هـاني» خريطـة للقُطـر السـوري واللبنـاني أمامـه، ليُحـدد عليهـا أماكـن الأهـداف المُقـررة في المُـدن السـورية واللبنانيـة، موزعًـا المهـام عـلى كُل مجموعـة مـن المجموعـات المكونـة لكتائـب الفـداء العـربي.

ولاحـظ «حسـين» عـدم تكليفـه بـأي عمليـات فاسـتفسر غاضبًـا، فقـال لـه «هـاني»:

ـــ إنَّ نطـاق مجموعتـك هـو دمشـق، ومـن غـير الصـواب اسـتفزاز حُسـني الزعيـم خاصـة بعـد مـا فعلـه مـع القوميـين، ولا تنـس مـا فعلـه مـع انطـوان سـعادة، والـذي سـلمه بـدمٍ بـارد إلى الأمـن اللبنـاني ليقومـوا بإعدامـه.

ثُم أضاف قائلًا:

ـــ لا تتصـور أنَّ الزعيـم يعبـأ بأحـد، هـو خائـن، والخائـن يبيـع كُل مَـن حولـه في سـبيل اسـتقرار نظامـه.

ـ لكن أنا قادر على تنفيذ عمليات دون لفت نظره أو استفزازه.

قالها «حسين»، وملامح الضيق تعتري وجهه، فأجاب «هاني»:

ـــ مـا نعرفـه تمامًـا مـن مصادرنـا أنَّ مخابـرات الزعيـم تضـع جميـع اللاجئـين والفدائيـين تحـت الرقابـة المُشـددة، وقـد نقـل لنا ضابط شـهم اسـمه العقيـد أديـب الشيشـكلي معلومـات حـول قـرب اسـتهداف بعـض

مقرات الكتائب الفدائية لتقوم بتهريب أعضائها خارج البلاد سريعًا.

ــ أليس من المُمكن أن تكون تلك الفعلة مُجرد خدعة من الزعيم نفسه؟

سأل «حسين» ببرود، فقال «هاني»:

ــ مُستحيل. هذا ضابط حارب في فلسطين، وهو أحد ضباط كثيرين حول الزعيم يشعرون باستياء من خيانته لانطوان سعادة، وقبوله عمولات من الغرب، ودعوته لمُهادنة إسرائيل.

هزَّ «حسين» رأسه تسليمًا قبل أن يقول:

ــ كُل ما تقوله يدفعني في ناحية واحدة لا بديل عنها.

ــ ما هي؟

سأل «مصطفى راغب» في فضول، فأجاب «حسين» قائلًا:

ــ القتل.

وأضاف:

ــ يجب أن نُسرع بتخليص الأُمة من هذا الخائن.

ونظروا مُندهشين إلى الفدائي ذي القلب الميت، الذي طالما أدهشهم بجرأته. وربت «هاني» على كتفه وقال:

ــ آمل أن تنجح أيُها الرفيق. لكن كُن حذرًا. حُسني الزعيم ليس أمين عُثمان.

***

توالت التفجيرات. تحوَّلت مدرسة الأليسانس ببيروت إلى أنقاض بعد تفجير سيارة نصف نقل إلى جوار أسوارها العالية. لم يمُت أحدٌ، غير أنَّ رياح الفزع طالت العائلات الأجنبية في العاصمة اللبُنانية. في

اليـوم التـالي ألقـت سـيارة مُنطلقـة بسرعـة شـديدة قُنبلتـين عـلى مقـر القُنصليـة البريطانيـة في اللاذقيـة لتصيـب شـظايها حارسـين تابعـين للأمن السـوري، ثُـم تـم إلقـاء قُنبلـة شـبيهة عـلى مقـر المفوضيـة الأمريكيـة ببـيروت في اليـوم نفسـه، ثُـم ألقيـت أخـرى عـلى مقـر الشرطـة في طرطـوس بعـد يومـين، قبـل سـاعات مـن انفجـار مقـر وكالـة «غـوث» للاجئـين عـلى الحـدود السـورية لتنـشُر الصُحـف بيانًـا منسـوبًا لكتائـب الفـداء يُحـذر منظمـة الأمـم المتحـدة والحاضنـة للوكالـة مـن مـشروع توطـين الفلسـطينيين في الـدول العربيـة.

في تلـك الأثنـاء كان غيـاب «حسـين» عـن المـنزل يتكـرر كُل مسـاء تحـت دعـاوى مُتابعـة أعمـال تجاريـة يقـوم بهـا مـع «عبدالقـادر»، وكانـت «سُـعاد» عـلى يقـين بـأنَّ زوجهـا يُكـرر مغامراتـه الخطـرة، مُحبـذة الصمـت عمـلًا بنصيحـة أمهـا الطيبـة. قالـت لنفسـها إنَّ الإصرار عـلى التدخـل في أعمـال زوجهـا قـد يدفعـه دفعًـا إلى الانفصـال عنهـا خوفًـا من إفسـاد مهامـه. كانـت تؤمـن بـأنَّ زوجهـا بطـل حقيقـي وأنَّـه يُعـرّض حياتـه للخطـر مـن أجـل حريـة وكرامـة العـرب. في يـومٍ مـا سـمعت والدهـا يتحـدث مـع زوجهـا هامسًـا بـأنَّ السـلاح المطلـوب موجـود مـع تاجـر فلسـطيني يقطُـن في حـي السـيدة رقيـة، وعرفـت وقتهـا أنَّ والدهـا يُسـاعد «حسـين» بشـكل سري في أعمالـه الفدائيـة، مُقـدرة عظمـة تلـك الأعمـال الـتي لا تعـرف عنهـا شـيئًا سـوى أنَّهـا موجهـة ضـد اليهـود والخونـة.

قالـت لنفسـها إنَّـه لـولا أعمـال «حسـين» الفدائيـة لمـا سـافر إلى دمشـق، ومـا عرفتـه ومـا أحبتـه، واقترنـت بـه. لقـد سـاءتها زيـارة حماتهـا، ونظراتهـا المُشـمئزة تجاههـا، لكنَّهـا كانـت عـلى يقـين بـأنَّ تلـك الزيـارة مُجـرد حـدث عابـر، وأنَّ زوجهـا لـن يعـود إلى القاهـرة مـرة أخـرى.

بـدت «سُـعاد» مُبتهجـة بعـودة شـقيقها «عـاصي» مـن الأسر بعـد غيـاب عـام كامـل في حـرب فلسـطين. عوضهـا الولـد الضاحـك كثـيرًا عـن غيـاب «حسـين» المُتكـرر، حيـث كان يقـضي السـاعات تلـو السـاعات إلى جوارهـا

حاكيًا عن قصص غرام زُملائه من الجنود، الذين لم يُحاربوا بشكل مُباشر نتيجة تمركزهم بعيدًا عن نطاق الاشتباكات. كان «عاصي» ساخرًا، ومُغرمًا بترديد النكات عن المصريين، وكان كثيرًا ما يقول لشقيقته بأنَّ «حسين» يشبه «جوبلز» وزير الدعاية لدى «هتلر». بدا «عاصي» بعينيه الخضراوين وشعره المُسترسل أشبه بمُمثلي الكوميديا الشوام، وهو يُقلد حركات وتعبيرات «حسين» ساخرًا من عصبيته البادية وجديته الدائمة. سأل «عاصي» شقيقته يومًا، وهو يضحك إن كان وجه «حسين» يحمرّ حال جلوسه معها وحيدين؟ وكان أكثر سُخرية، وهو يسأل في تبجح كيف حملت منه؟

وصارح «عاصي» شقيقته بأنَّ أفضل ما يتمناه هو الهجرة لأوروبا، مُقدرًا أنَّ البلد وما فيه لا يُبشر بمستقبل يحمل أي سعادة، وأنَّه يحلُم بأن يُصبح مُمثلًا على أحد المسارح الأوروبية، لذا فقد كان حافظًا عشرات النصوص المسرحية باللغة الفرنسية التي أجادها إجادة تامة. كانت تراه رغم أنَّ فارق العُمر بينهما لم يتجاوز العامين، ذا عقل حالم، بريء، وكانت تتمنى أن يُفكر بجدية في البحث عن أي عمل مُناسب ليُساعد والدها في مصروفات البيت بعد أن رسمت عجلات الشيخوخة آثارها على وجهه.

كانت «سُعاد» تنظر باهتمام أكبر إلى شقيقتها الصامتة كثيرًا، مُقدرة أن تركها للدراسة، ونحول جسدها، وقلة جمالها يُقلل من فرص زواجها، خاصة في ظل الظروف المُضطربة بالبلاد. قالت يومًا لـ«حسين» أنَّها غير قلقة على أحد من عائلتها سوى «فاطمة» التي تشعر بأنَّها تُخفي في داخلها تلالًا من الحُزن، وكان من الواضح أنَّ زوجها غائب عنها في عالم آخر تتلاطم فيه موجات التفكير في أفضل وسيلة لتخليص البلاد من خائنها الأعظم. لم يرُد كعادته، وواصل وضع تصورات قتل الرجل الأحوط في دمشق. قال لنفسه إنَّ «حُسني الزعيم» لم يعُد يمر بسيارة مكشوفة كما كان يفعل في الماضي،

وتذكـر كيـف ناقـش مـع «عبدالقـادر» و«مصطفـى» عـادات الرجـل وتحركاتـه، وخلصـوا إلى صعوبـة الوصـول إليـه أو اسـتهدافه بقُنبلـة أو رصاص قنـاص مـن بعيـد، ثُـم تذكـر اقـتراح «مصطفـى» بـدس السـم للرجـل في بعـض زجاجـات الويسـكي المـوردة إلى القـصر الرئـاسي، لكـن «عبدالقـادر» اسـتبعد ذلـك بسـبب إجـراءات الكشـف والمتابعـة الـتي يقـوم بهـا حُـراس الزعيـم كل صبـاح. لقـد فكـروا في كُل سـيناريو لقتـل الرجـل، حـتى أنَّ ذهـن «حسـين» دفعـه إلى التفكـير في محاولـة مقابلتـه وقتلـه مُبـاشرة بـأي وسـيلة، لكنَّـه عـاد ورفـض أن يُضحـي بنفسـه مـن أجـل قتـل خائـن واحـد. فكَّـر «حسـين» بـأنَّ أمامـه طابـورا طويـلا مـن الخونـة، ولابـد أن يُخلـص العالـم العـربي منهـم، والقبـض عليـه مـرة أخـرى سـيُنهي حلمـه في أوطـان حُـرة بـلا خونـة وتابعـين.

في تلـك الجلسـة اسـتجابت أذنـاه لقـول زوجتـه بأنَّـه رجلهـم القـوي، وهـو القـادر عـلى فـك عُقـدة «فاطمـة»، وإيجـاد العريـس المُناسـب لهـا. فكـر سريعًـا في كلام «سُـعاد»، لتلمـع عينـاه ببريـق آخـاذ، وترتسـم ابتسـامة فخـر فـوق شـفتيه، قبـل أن يُقـرر في حسـم:

ــ أريـدك أن تسـألي أمـك إن كانـت فاطمـة تقبـل الـزواج مـن صديقـي عبدالقادرعامـر أم لا. أخبريهـا أنَّـه سيسـتأجر شـقة قريبـة مـن هُنـا، وسـيجهزها خـلال شـهرين، وهـو مـن أسرة ميسـورة تُرسـل لـه مـا يكفيـه تمامًـا.

غمـرت السـعادة قلـب «سُـعاد»، حـتى أنَّهـا أحسَّـت بتحـرك الجنـين ببطنهـا، كأنَّـه يرقـص فرحًـا. قبّلـت «حسـين» فـوق شـفتيه وقالـت لـه:

ــ سأسـألها، وسـتوافق بـكل تأكيد.عبدالقـادر رجـل شـهم، ومُهـذَّب، ويكفينـا أنَّـه صديقـك.

ابتسـم في غـرور، وغـاب مـرة أخـرى في التفكـير في هدفـه الصعـب. حُسـني الزعيـم.

***

مُفاجـأة لـم ينتظرهـا الشـباب الغاضـب عـلى القائـد المُسـتبد. في ساعات قليلـة سـمع النـاس بنبـأ محـاصرة المُقـدم «سـامي الحنـاوي» لقـصر الرئاسـة، قبـل أن تُذيـع إذاعـة دمشـق بيانـًا مُقتضبًـا عـن خلـع رئيـس الجمهوريـة وإصـدار حُكـم سريـع بإعـدام «حُسـني الزعيـم» ورئيـس وزرائـه «مُحسـن الـبرازي» وتنفيـذه. كانـت الحكايـات قـد تناثـرت أنَّ «الزعيـم» قُتـل بواسـطة ضابطـين قوميـين كانـا مُكلفـين بالقبـض عليـه، ثُـم اضطـرت السُـلطات إلى القـول بالحكـم سريعًـا بإعدامـه حـتى تُجنبهمـا أي محاكمـة.

حـكى «هـاني الهنـدي» لـ«حسـين» وجمـع مـن الأصدقـاء اجتمعـوا في مقهـى بإحـدى ضواحـي العاصمـة أنَّ «حسـني الزعيـم» كان يقهقـه بصـوتٍ عـالٍ وهُـم يطلقـون عليـه الرصـاص، وأنَّـه نظـر إلى «مُحسـن الـبرازي» ووجـده يبـكي خوفـًا فـصرخ فيـه بـأن يهـدأ ليمـوت كرجـل لا كسـيدة.

ونـشرت الصُحـف نـص بيـان المجلـس الحـربي الـذي ذكـر أنَّ «حسـني الزعيـم» اتُهـم بتبديـد ثـروة البـلاد وانتهـاك حرمـة قوانينهـا وحريـة أبنائهـا، وأنَّ حكمـه اتسـم بالفـوضى والتعسـف، وأنَّ المجلـس الحـربي الأعـلى وبعـد محاكمـة عادلـة ثبـت لـه أنَّ «الزعيـم» مجـرم، فنفّـذ فيـه وفي رئيـس وزرائـه حكـم الإعـدام.

هلَّـل النـاس فرحًـا بسـقوط «الزعيـم»، وعلّـق تُجارالأقمشـة والملبوسـات بسـوق الحميديـة لافتـات التأييـد للمقـدم سـامي الحنـاوي، فيمـا كتبـت الصُحـف عـن مخـازي الرئيـس الطاغيـة الـذي رحـل غـير مأسـوفٍ عليـه، وتـبرأ الشُـعراء مـن مدائحهـم السـابقة للرئيـس القتيـل، ذاكريـن أنَّهـا ولـدت تحـت سـيف الخـوف. وعـلى المقاهـي أطلـق النـاس في محاوراتهـم صفـات الخسَّـة والوضاعـة عـلى الرجـل المعـدوم، مؤكديـن أنَّـه نـال مـا يسـتحق، وأنَّ ربـك لا يظلـم أحـدًا.

عـرض «حسـين» عـلى «هـاني» اسـتئناف أنشـطة مجموعتـه، لكـنَّ «هـاني»

رفض طالبًا منح السُلطة الجديدة الفرصة لتصحيح الأوضاع، مُشيرًا إلى أنَّ أحد القادة العسكريين الكبار وهو «أديب الشيشكلي» على علاقة ود مع الأحزاب القومية.

ـــ من الضروري أن ننتظر قليلًا حتى لا يحسبوننا في الجانب المُضاد أو يظنوننا غاضبين على إعدام الزعيم.

قالها «هاني»، الذي كان من الواضح أنَّه الأكثر سيطرة على قادة الفصائل والتنظيمات العاملة في إطار مواجهة الصهيونية. وأضاف قائلًا:

ـــ إنَّ الدكتور جورج حبش طلب منَّا وقف تنفيذ أي عمليات جديدة، والتركيز على العمل السياسي.

ـــ سياسي؟

أجاب «حسين» ساخرًا، قبل أن يُقرر:

ـــ إنَّ السياسيين هُم سبب نكبتنا.

وأضاف:

ـــ إنَّ جورج حبش يحلُم بعيدًا عن الواقع.

ـــ كُل النجاحات بدأت كأحلام.

ـــ إنَّه يتصور أن الجماهير ستتحرك يومًا وستثور لتحقيق ما يُنادي به، وهذا أبعد ما يكون عن الواقع.

لم تلق كلمات «حسين» قبولًا لدى ممثلي التنظيمات المُجتمعة، مما دفعه للسكوت، والمُغادرة غاضبًا.

عاد «حسين» إلى أعضاء مجموعته، مُحبذا فكرة العودة للعمل السري بشكل مُنفرد وبدون تنسيق مع أحد. كان يرى أنَّ الوقت هو الأنسب لاستكمال الأعمال الفدائية، خاصة في ظل حالة الصراع على السُلطة في دمشق.

في غضون ثلاثة أيام حدد «حسين» الهدف، ورسم لزملائه خريطة

بالعمليـة الجديـدة، حيـث هاجمـت المجموعـة مركـزًا ثقافيًـا أمريكيًـا بالعاصمـة، وتـم إلقـاء قُنبلتـين داخـل المبـنى لتنفجـرا دون سـقوط أي ضحايـا. فيمـا بعـد نجـح «حسـين» في استقطاب شـاب فلسـطيني غامـض يُدعـى «نـوار» كان يعمـل مـع «هـاني الهنـدي»، ولـه علاقـة وثيقـة بصناعة الديناميـت مـن خـلال تحضـير النيتروجلسريـن في معمـل صغـير ببيته. كان «حسـين» يُريـد أن يُبرهـن لـ«هـاني الهنـدي» و«جهـاد ضاحـي» وقائدهما الروحـي «جـورج حبـش» أنَّـه قـادر عـلى العمـل دون مساندتهم.

ورغـم حالـة مـن القلـق انتابـت «سُـعاد» عندمـا اسـتمعت لحديـث بـين زوجهـا و«عبدالقـادر عامـر» عـن نجـاح عمليـة التفجـير، واتسـاع حالـة القلـق بـين الموظفـين الأمريكيـين في دمشـق، لكنَّهـا صمتـت تمامًـا، خاصـة عندمـا بـدأت عائلتهـا في إجـراء ترتيبـات زفـاف شـقيقتها «فاطمـة» إلى «عبدالقـادر». وقفـت «سُـعاد» إلى جـوار شـقيقتها مُسـاعدة، وناصحة، ورافضـة لاعتراضـات شـقيقها «عـاصي» غـير المُـبررة عـلى تلـك الزيجـة. كانـت تقـرأ بصيـص السـعادة عـلى وجـه «فاطمـة »، مثلمـا عرفتـه في وجهـي والديهـا. قالـت وقتهـا لشـقيقتها:

ــ إنَّ عـاصي دائمًـا لـه رأسـه وفكـره المُختلـف، ويكفـي أنَّـه لا يريـد العيـش في سـوريا، وليـس لنـا بعـد والدنـا مـن رجـال سـوى أزواجنـا.

في الوقـت نفسـه اعتـبر «حسـين» زواج «عبدالقـادر» مـن شـقيقة زوجتـه بمثابـة توطيـد لعلاقـة الـولاء المُبـاشر لـه. لقـد افتقـد بالحبـس والسـفر إخـوة مُخلصـين ورفقـاء أوفيـاء مثـل «محمـد إبراهيـم كامـل»، و«سـعيد»، و«مدحـت »، و«سـيد»، و«محمـود مـراد»، وهـا هـو القـدر يُقـدِّم لـه البديـل في شـخص عبدالقـادر. لقـد كان يـراه نقيًـا حالمًـا، يحمـل ذات أفـكاره، ويؤمـن بـضرورة التغيـير بالقـوة، ويكـن كُل كراهيـة وعـداء للأجانـب ويعتبرهـم وراء كُل بـلاء ابتليـت بـه الأمـة.

ــ سأُسمي ابني باسمك، وستُسمي ابنك باسمي.

قالهـا لـ«عبدالقـادر» وهـو يحـصي الأيـام المُتبقيـة عـلى دخـول زوجتـه

مرحلة الوضع. كان يُفكر في ابنه القادم باعتباره امتدادا لنضاله ضد الخونة والمُخادعين، مُقررًا أنَّه لن يُربيه مثلما تربى، بل سيُعلّمه الكفاح وسيزرع فيه الجرأة والإقدام. «لن تكون مُدللًا يا عزيزي. ستولد رجُلًا». قالها بصوتٍ هامس وهو يتحسَّس بطن «سُعاد» المُنتفخ.

***

دقَّق الرجل النحيل ذو العينين المسحوبتين، المُحاصرتين بسُحب داكنة تكَّونت بفضل النيكوتين والكحول والسهر الطويل، في ملف أحمر موضوع أمامه قبل أن يتصفَّح في صمت أوراقه الصفراء. وقفت عيناه عند صورة شخصية كُتب تحتها اسم «حسين توفيق أحمد» ليستنطق تفاصيلها مُكررًا تجربته السابقة في توقع تصرفات الإنسان طبقًا لملامحه. كان «عبدالرحمن ناصر» الرجل الخطير، الذي يُدير أهم جهاز أمني في العاصمة السورية، يقول دائمًا إنَّه قادر على رسم تحركات الناس، واستنباط سلوكهم الشخصي طبقًا لأوصافهم الشخصية، مُقررًا أنَّ هناك نظرية في علم الإجرام تربُط تصرفات معينة بأوصاف شكلية. وكثيرًا ما ذكر «عبدالرحمن» لتلامذته من ضباط الاستخبارات أنَّ القاتل إمّا أن يكون مُفرط الطول أو واضح القصر، وأنَّ الرجل قاسي القلب له في الأغلب جبهة عريضة، وذقن صغير. وزاد على ذلك أنَّ الإنسان الذي لا يعبأ بمشهد الدم وربما يُطرب له ويستعذبه، يعاني في الغالب من قصور ما في أحد حواسه مثل السمع أو النظر أو الكلام.

فكّر رجل المعلومات الأول في شخصية «حسين توفيق»، وأمامه تقرير بتحركاته ولقاءاته وأنشطته مُنذ دخل الأراضي السورية وحتى لحظة اطلاعه، وأعاد النظر في صورته المُلتقطة قبل أيام، ليخلُص

إلى أنَّـه شـخص مُناسـب لأعمـال الجهـاز غـير الرسـمية. رشـفَ رشـفات قليلـة مـن قنينـة ويسـكي أخرجهـا مـن أحـد أدراج مكتبـه الفخـم قبـل أن يطـرق البـاب أحـد حُراسـه ليُخـبره أنـه جلـب المدعـو «حسـين توفيـق»، وأنَّـه الآن ينتظـر في الخـارج.

ــ ماذا يفعل؟

ــ لا شيء. يجلس صامتًا.

ــ دعهُ ينتظر.

قالهـا وعـاد إلى أوراقـه، ثُـم قـال لنفسـه إنَّ السُـلطة لـم تسـتقر بعـد بانقـلاب «الحنـاوي»، وأنَّ الأيـام القادمـة ستشـهد صراعـات جديـدة خاصـة بـين مجموعـة الضبـاط الذيـن حاربـوا في فلسـطين، والذيـن يعتـبرون أنفسـهم الأحـق بالقيـادة. إنَّ «حسـين توفيـق» نمـوذج مثـالي لخـادم مُطيـع. مثـال جيـد لقاتـل مُحـترف، سـهل التوجيـه، والمُتابعة، لا يعـرف الخـوف، ولا ينتابـه القلـق، مُتبلّـد المشـاعر، مُنعـدم الأحاسـيس، يعشـق القتـل ويسـتمتع برؤيـة الأرواح وهـي تغـادر الحيـاة. عينـاه تشـعَّان بريقًـا مُفزعًـا، وجبهتـه تُدلـل عـلى قسـوة قلـب لامُتناهيـة، أمـا فمُـه فيفيـض لامبـالاة غـير محـدودة. هـو الشـخص المُناسـب في التوقيت المُناسـب، لأنَّ كل مُتصـارع عليـه أن يسـتعرض أدواتـه اليـوم.

نظر إلى حارسه وسأله:

ــ هل طاوعك هذا المصري في المجيء سريعًا؟

هزَّ الحارس رأسه، فسأل رجل المُخابرات مرة أخرى:

ــ هل سألك عن وجهته، وعمَّن يُريده؟

ــ نعـم، وقلـت لـه إنَّ ذلـك ليـس مـن شـأنه، وأن عليـه أن يـأتي معي دون كلمـة، ففعـل.

ــ عظيم. أدخله الآن.

وأخـرج قنينـة الويسـكي مـرة أخـرى ليدلـق بعضهـا في جوفـه، ثُـم تظاهر

بالنظـر في أوراق الملـف، عندمـا دلـفَ «حسـين» مُلقيًـا السـلام، ليشـير لـه بيـده ليجلـس عـلى أحـد كُرسـيين أمامـه، قبـل أن يقـول لحارسـه:

ـ لا داعي لأي إزعاج. لا أحد يدخُل علينا.

نظـر رجـل المخابـرات المُخـضرم لوجـه «حسـين»، مُراجعًـا أوصـاف «لومـبروز» للشـخص المُجـرم، جبهـة عريضـة، أذنـين كبيريـن، شـعر غـير مُتناسـق،عينين زائغتـين، وأنـف بـارز، ثُـم لاحـظ رباطًـا مـن الشـاش حـول كـف «حسـين» الضخـم، فسـأله مُبديًـا القلـق:

ـ قُل لي ما بك؟ ماذا أصاب يديك؟

ـ لا شيء. مجرد حادث بسيط.

رفع «عبدالرحمن» حاجبيه وقال:

ـ أي حادث؟

نظـر «حسين» في عينيـه وقـال إنَّهمـا تُذكرانـه بعيـني «إبراهيـم إمـام». ليـس كـ«حُسـني الزعيـم» في صرامتـه، هـو مُجرد مُبتـدئ في عالـم الخوف. ابتسـم قليـلًا وهـو يقـول:

ـ صينيـة بطاطـس. كانـت أم عبدالقـادر تُعـدّ لي صينيـة بطاطـس، وحملتهـا عنهـا فأحرقـت كفـي.

ـ ياااه. ألف سلامة عليك.

ثُم قال بنبرة غموض:

ـ كيف حالها؟

ـ مَن هي؟

ـ أم عبدالقادر.

هزَّ حسين رأسه وقال:

ـ هي بخير.

عـاد رجـل المُخابـرات إلى النظـر إلى الملـف الموضـوع أمامـه، وفتحـه

لتظهـر صـور عديـدة لـ«حسين توفيـق»، منهـا صـور لـه في مـصر، وصور في عمـان، وصـور في دمشـق. التقطـت أصابعـه صـورة «لحسـين» ومعـه «عبدالقـادر» و«مصطفـى صـدقي» و«محمـد المرصفـاوي» جالسـين عـلى أحـد المقاهـى، وضعهـا أمـام جليسـه، وقـال:

ــ لـم تُنجـب زوجتـك بعـد. لكنَّـك ستُسـمي ابنـك القـادم عبدالقـادر حُبًـا في صديقـك.

كرر حسين هز رأسه، وهو يقول:

ـ هذا صحيح.

أخـرج الرجـل الـذي يظُـنّ نفسـه دمـاغ السـلطة الجديـدة في دمشـق عقـب إسـقاط «حُسـني الزعيـم» قنينـة الويسـكي ليرشـف منهـا قليـلًا قبـل أن يقول لـ«حسـين»:

ـ وهل تعرف السيدة أم عبدالقادر أنَّ عبدالقادر هذا مُجرم؟

ـ مُجرم؟

كررها «حسين» مُستغربًا، ثُم قال:

ـ عبدالقادر ليس مُجرمًا حضرة المُقدم. إنَّه بطل.

ـ بطل؟

ـ نعم بطل. ألم تقرأ ملفه؟

ثُم قال وابتسامة ناعمة تتراقص على شفتيه:

ــ أنـا أعـرف أنَّـك تعـرف عـني كُل شيء. وتعلـم يقينًـا طبيعـة المُهمـة الـتي أصيبـت فيهـا يـدي. وأتوقـع أنـك تُلـم بـكُل شيء عـني وعـن زملائي، لأنَّـك ببسـاطة ورثـت ملفـاتي الموجـودة في خزائـن حُسـني الزعيـم.

قـام «عبدالرحمـن» واقفًـا، وصفَّـق بيديـه، ثُـم وضـع ذراعـه عـلى كتـف «حسـين»، وقـال له:

ـــ يـااه. لقـد قـصّرت عـليّ الطريـق. أنـا أُقـدّر التعامـل مـع الأبطـال

العظـام أمثالـك. أنـت واضـح وصريـح، ولا تعـرف لفًّـا أو دورانًـا.

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ إنَّني أعلم مُنذ اليوم الأول لي هُنا أنَّكم تراقبونني.

وأخرج علبة سجائره، قائلًا:

ـ هل تأذن لي بالتدخين؟

ـ بالطبع بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارته، وهو يقول:

ـــ تصوَّر أيهـا الضابـط النبيـل أنَّ ضابطًـا مصريًـا حرمـني مـن التدخـين وهـو يُحقـق معـي. قمـة التجـبر والوحشـية.

ـ ياأه. لابد أنَّه شخص موتور، ليس لديه أخلاق.

نفثّ «حسين» دُخانه وقال:

ـــ لا يـا حـضرة الضابـط لا تسبه. إنـني أحبُّـه وأحترمـه. كان ذكيًـا للغايـة، لكـن في النهايـة، فهنـاك ذكي وهنـاك أكـثر ذكاءً.

ربـت «عبدالرحمـن» عـلى كتِـف «حسـين»، ثـم عـاد مـرة أخـرى إلى مقعـده، قبـل أن يقـول:

ـ اسمع. أنت رجل عظيم. ويُشرفني أن تكون واحدًا من رجالي.

ـ أنا على استعداد للتعاون معك.

ـ عظيم.

ـــ ستسـمح لنـا بعملياتنـا الفدائيـة ضـد إسرائيـل والخونـة وسـتجد منـا كُل مسـاعدة.

ـــ طبعًـا. لكننـا يـا صديقـي سـنعمل ضـد الخونـة فقـط، أمـا إسرائيـل فسـنتركها للقـادة والزعمـاء والجيـوش المُنظمـة.

ابتسم «حسين» وقال:

ـ إننا في حاجة للمال.

ــ بالطبع.

ــ والسلاح.

ــ هذا ضروري.

ودلق رجل المخابرات بقية قنينة الويسكي في فمه، وقال:

ــ سأوفر لكم كُل ما تحتاجونه. العملية القادمة ستكون في طرطوس. ضابط سابق من أتباع الخائن حسني الزعيم هرب واختبأ هُناك، ونُريد إعدامه. تصوَّر كان هذا الضابط هو حلقة الوصل بين الزعيم وإسرائيل، وظنَّ أنَّه يُمكنه أن يُفلت بما فعل.

ومد يدُه بملف للضابط المذكور وصورة شخصية له. مدَّ «حسين» يده ثُم هزَّ رأسه موافقًا.

***

سُرَّ «حسين» بعمله الجديد كقائد لخلية مُحصنة أمنيًا من جانب المُخابرات، ووجد هو وزُملاؤه أنفسهم في العودة لاحتراف الخطر، وقنص الأهداف المُتحركة، وزرع الفزع في القلوب، ورسم الهلع على الوجوه. رصاصة هُنا وأخرى هُناك يتبعها شعور طاغٍ بالبطولة يدفعهم دفعًا للسهر والغياب في نُعاس الكحول، ليرى كُلّ منهم نفسه فارسًا مغوارًا. كان «حسين» يعود كُل مرة لزوجته منُتصب القامة كأحد قادة الحروب القروسطية، مُمارسًا حقوقه الزوجية في قوة واعتزاز وفخر.

وضعت زوجته، وهو في إحدى المُهمات خارج العاصمة، وعندما عاد شاهد ولدًا مُطابقًا في الشبه له، وفوجئ بحميه قد أسماه «خالد». فكَّر في وعده لـ»عبدالقادر»، فقرر أن يُغيّر الاسم في بطاقة الميلاد بعد العودة إلى القاهرة. نظر في عيني ابنه وقال له «ستكون

رجلًا صلبًا»، وتذكر والده ونظرته المُشفقة تجاهه والتي كان يكرهها للغاية. اشترى لِعب أطفال عديدة كان من بينها مُسدس صغير يرُش ماء، وهو ما أثار حالة من الضحك لدى «سُعاد» التي كانت في قمة جبل السعادة بالمولود الجديد. كما كانت سعيدة أن ترى «حسين» ذا مال وفير في الفترة الأخيرة إذ تعددت هداياه للبيت، والزوجة، والطفل الصغير.

فى يومٍ ما صحا الناس على موسيقى عسكرية في إذاعة دمشق، ليعرفوا سريعًا أنَّ انقلابًا عسكريًا جديدًا قد وقع، وأنَّ ضابطًا بارزًا يُدعى «أديب الشيشكلي» قبض على «سامي الحناوي» وأجبره على التنازل عن الحكم، وأصدر قرارًا بنفيه إلى بيروت. لم يُفاجأ «حسين» هذه المرة، وشعر ببعض التفاؤل لعلمه أنَّ المُنقلب الجديد على صلات جيدة بكتائب الفداء والحركات القومية، وهو ما قد يمنح النضال ضد الصهيونية دفعًا للأمام.

وردت الأخبار من مصر مُزعجة خاصة عندما عرف «حسين» بفوز حزب الوفد في الانتخابات التي جرت باكتساح، وقيام «مصطفى النحاس» بتشكيل الحكومة. ذلك الداهية العجوز مازال قادرًا على الاستحواذ على محبة الناس، والسير معهم في نفس الطريق مُدعيًا أنَّه يستمد منهم القوة. قالها لنفسه، وهو يُفكر كيف أفلت الرجل من موتٍ مُحقق نتيجة فارق لا يتعدى الثواني الثلاثة فقط. هو محظوظ لاشك في ذلك، هكذا حسب، وهو يشعر بصعوبة نجاح جهود أسرته للحصول على عفو ملكي في ظل وجود «النحاس» والوفديين على رأس الحُكم. لن يغفروا له أبدًا. هكذا كرر وهو يُفكِّر في أصدقاء الماضي الأوفياء. تذكر «السادات» واستغرب ما عرفه من «عبدالقادر» حول عودته إلى الجيش مرة أخرى. كيف عاد المُحرّض الأكبر، والقاتل في الظل إلى عمله في المؤسسة العسكرية؟ ألم يُحسب يومًا على الألمان؟ ألم يعمل مع الإخوان؟ ألم يُتهم بالعُنف

والإرهـاب؟ ألـم يُفجّـر ويُطلـق النـار ويسـتحل الدمـاء؟ لِـم تمـت تبرئتـه الآن، بينمـا صـار هـو طريـدًا للعدالـة، صيـدًا سـهلًا للمُسـتغلين مـن رجـال المُخابـرات وميليشـيات الحـركات السياسـية في كل مـكان؟

جلـس «حسـين» ليلعـب الشـطرنج مـع حميـه، عندمـا حـكى لـه الرجـل في هـدوء الزاهـد أنَّـه مُصـاب بمـرض خطـير قـد يُنهـي حياتـه خـلال شـهور قليلـة، وأنَّـه يُحمّلـه مسـئولية مُراعـاة «أم سـعاد» ، والاهتمـام بها وبابنتيهـا، وأن يكـون لهـم بمثابـة الراعـي، خاصـة بعـد سـفر «عـاصي» إلى لبنـان للعمـل هُنـاك لفـترة حـتى يتمكـن مـن إتمـام حلمـه بالهجـرة إلى الخـارج. قـال «شـاكر الحميـدي» لصهـره إنَّـه تـرك لابنـه مُكافـأة نهايـة الخدمـة، بينمـا أوصى بشـقته لابنتيـه سُـعاد وفاطمـة. لـم يشـعر الرجـل بجـزع صهـره ممـا حـكاه كأنَّـه يُحـدث نفسـه، وسـمعه بعـد فـترة يقـول في بـرود غريـب:

ـ كِش ملك.

كان «حسـين» وقتهـا يُفكـر في أمـر مُختلـف، فقـد رنّـت في أذنيـه كلمـات المُقـدم «عبدالرحمـن نـاصر» لـه قبـل أيـام بـضرورة التخلُّص مـن «أديب الشيشـكلي». لقـد حـكى رجـل المخابـرات لـ«حسـين» كيـف خـدع هـذا الرجـل الأحـزاب الوطنيـة والقوميـة، وادعـى المُشـاركة في حـرب فلسـطين، بينمـا لـم يُطلـق رصاصـة واحـدة، واسـتهدفت مشـاركته الحصـول عـلى أكـبر كـم مـن الأسـلحة لتخزينهـا لصالحـه واسـتخدامها وقـت الحاجـة. واسـتغرب «حسـين» حكايـات سردهـا مُحدثـه عـن اتفاقـات لـ«الشيشـكلي» مـع بعـض الساسـة خاصـة بعـد أن أعـاد «هاشـم الأتـاسي» رئيسًـا شـكليًا للجمهوريـة، بهـدف عمـل صلـح مـع إسرائيـل.

«لقـد حقـق الرجـل مـا يريـد مرحليًـا وهـو الوصـول لمنصـب رئيـس الأركان وسـيصبح خـلال شـهور قليلـة الحاكـم الأوحـد لسـوريا، ووقتهـا سـيأمرني بالقبـض عليـك وعلى أصحابـك المُناضلـين ليُسـلمكم للمخابرات البريطانيـة الـتي تطلـب رؤوسـكم». كررهـا «عبدالرحمـن» عـلى مسـامع

«حسين» حتى بات يُرددها مع نفسه.

ـ للأسف مات الملك.

قالها «شاكر الحميدي»، وهو يُمسك بأصابع مُرتعشة ملكه الخشبي، بينما سرح دماغ «حسين» في خطة اغتيال أديب الشيشكلي.

***

قال «حسين» وهو يشرح تفصيليًا على خريطة ورقية رسمها له «عبدالرحمن ناصر» أخطر وأهم عملية مُنذ لامست قدمه أرض الشام:

ــ سنقتل الطاغية. سنأكله غداءً قبل أن يتعشى بنا جميعًا. غدًا في المساء سيمُر الهدف من ميدان المارجة للاجتماع في مجلس الحكماء مع «أكرم الحوراني». سيتكون موكبه من ثلاث سيارات جيب في كُل منها أربعة جنود، فضلًا عن سيارته الكاديلاك. ستكون هناك سيارة حراسة في المقدمة وواحدة على اليمين وواحدة على اليسار. فور دخول الموكب إلى الميدان وقبيل التوقف بثانيتين سيُلقي نوار الفلسطيني قُنبلته على سيارة المُقدمة، بينما سيكون «مصطفى كمال» و«المرصفاوي» خلف الموكب ليلقيا قنبلتين على السيارتين المجاورتين، في اللحظة نفسها سأخرج أنا و«عبدالقادر» من العمارة المجاورة لمجلس الحُكماء لنطلق النار على الرجل فور انفجار القنابل. بعد إصابة الهدف سننسحب بهدوء نحو مبنى الفنادق الجديدة لنقفز من سطحه إلى المبنى المجاور، وهُناك سنُغيّر ملابسنا ونرتدي ملابس الشرطة لنبدو كباحثين عن القتلة، وستقلنا بعد ذلك سيارة عسكرية خاصة بعيدًا عن الموقع.

كانوا خمسة يتحلقون حول مائدة مُستديرة بشقة صغيرة استأجرها

«حسين» قبل شهور لتُصبح مقرًا لاجتماعاتهم. بدا «عبدالقادر عامر» مُقتنعًا بجدارة الخطة التي وضعها «حسين» أو وُضعت له. كان على يقين بأنَّ هُناك جهة ما أو حركة قوية وراء عمليات «حسين» ومكافآته السخية، لكنَّه رضي ألا يسأل ما دامت تلك العمليات تُحقق طموحاته في الفداء والمُغامرة، فضلا عن استقراره في دمشق وحياته الهانئة بعد الزواج من «فاطمة». وشعر «مصطفى كمال» بميل شديد نحو أعمال القتل وإطلاق الرصاص، مُكررًا فكرة عبثية الحياة الطبيعية، وضرورة العيش مع الأخطار. أما «محمد المرصفاوي»، فكان لا يُفكر إلا في الحصول على أموال وفيرة تكفيه شراء صناديق من الخمور المُتنوعة واستئجار أجساد الفاتنات من المومسات. وجاء انضمام «نوار» الفلسطيني إلى المجموعة نكاية في مجموعة «هاني الهندي» التي مالت إلى السلمية بأوامر من «جورج حبش».

قلب «حسين» كرتونة من الأسلحة المتنوعة فوق الطاولة، وقال لزملائه:

ـ سيكون مع كُل واحد منا مُسدسان محشوان في جيبيه، وثالث مربوط في ساقه وستوضع القنابل في حقيبة صغيرة يتم تعليقها فوق الكتف.

وأضاف:

ـ ساعة الصفر هي الواحدة ظُهرًا، حيث سنتحرك إلى مواقعنا وسنبقى فيها مُختبئين حتى السابعة مساء موعد وصول الهدف.

ـ ماذا نفعل لو تأخر وصوله أو ألغي اجتماعه؟

سأل «مصطفى» في اهتمام، فردَّ «حسين» قائلًا:

ـ لا تقلق. لو تأخر سننتظره، أما إذا ألغي الاجتماع وهذا احتمال مُستبعد، فسنضع له خطة أخرى.

نظر «حسين» مرة أخرى إلى أفراد جماعته واحدا تلو الآخر، وعلا

صوته قليلًا وهو يقول:

ـ خذوا بالكم. لو خرج أكرم الحوراني لاستقبال رئيس الأركان، علينا قتله هو الآخر، ووقتها ستتضاعف المُكافأة. ستصبحون جميعًا أثرياء إلى الأبد.

وتفحصهم بنظرات سريعة قبل أن يسأل مرة أخيرة:

ـ هل لدى أحد أي سؤال؟

هزُّوا رؤوسهم، وانصرفوا، فعاد «حسين» إلى البيت ليجد امرأته تُهدهد طفلها وهي تبكي، فاستفسر مُتظاهرا بالاهتمام، فأجابت بأنَّ حرارة الطفل مرتفعة مُنذ الصباح، وتشعر بالخوف الشديد عليه. طمأنها مُقبلًا، وأخبرها بأنَّ كل الأطفال يمرون بحالات مرض مشابهة، قبل أن يتركها ليجلس وحيدًا في شرفة بيته يُدخن في هدوء. كان يُفكر في العملية القادمة التي قيل له إنَّ دولًا كُبرى في المنطقة يهمها نجاحها، وأنَّه سينال ما لم ينله شخص من تكريم، خاصة أنَّه سيُنقذ العرب من عار جديد سيلحقه بهم الضابط الطاغية. تخيّل «حسين» جسد رئيس الأركان وهو يتراقص تحت زخات الرصاص المُنهمر، ثُم يسقط صريعًا لتسقي دماؤه أرض الميدان الأشهر بالمدينة القديمة. مرّ بخاطره مشهد «أمين عُثمان»، وهو يهوي على الأرض بعد أن غرس في جسده عدة رصاصات قاتلة. ابتسم، وهو يفكّر كيف تهرب الروح مُفارقة جسدًا يُحاول حبسها! ما أجملها مُهمة، تلك الموكولة لملك الموت، أن يسحب نفسًا من عالم الأكاذيب ليُلقي بها عارية في عالم الحقيقة. تصوَّر لو مات هو، لو اختاره القدر هدفًا بدلًا من صيده، لو تلقفه الملاك الحازم لينقله من مكان إلى لا مكان، ومن زمان إلى ما لا يعرف. لو رفرفت روحه مُفارقة، وعاصية لإرادته. لو أخطأ هدفه وأصابته أيدي الأوغاد الأشرار. ساعتها ستبكي «سُعاد»، رُبما أكثر من الآن، وسيكبُر ابنه مُدللًا رخوًا ناعمًا كما النساء، ضعيفًا مثل «عاصي»، ورُبما جبانًا مثل «نجيب». سيقف أمام ضحاياه دون

محـام. سـيقتصون منـه. سـتلعنه كُتـب التاريـخ، وسيشـوهون أعمالـه.

طـرد وساوسـه، وقـام ليغسـل وجهـه ويُغـيّر ملابسـه، ويتمـدد عـلى الفـراش بعـد أن منـح ابنـه قُبلـة نـادرة، دفعـت زوجتـه للدهشـة.

***

فى مقـرّ الشركـة العربيـة للتجـارة بحـي المارجـة جلـس «حسـين» و«عبدالقـادر» يتابعـان إجـراءات تحويـل بضائـع لمـصر عـبر البحـر. كانـا قـد ادعيـا أنَّهمـا تاجـران يرغبـان في بحـث تفاصيـل نقـل عـشرات الصناديـق مـن الأقمشـة والمنسـوجات إلى مينـاء الإسـكندرية، واسـتهلكا وقتًـا طويـلًا في أسـئلة بـلا مغـزى سـوى إطالـة الوقـت، حـتى موعـد اقـتراب سـاعة الصفـر. استئذنا بعـد مشـاورات طويلـة وظـلا عـدة دقائـق يُدخنـان عـلى السـلالم انتظـارا لصـوت الانفجـار موعـدا لبـدء العمليـة. تجـاوزت عقـارب السـاعة الموعـد المُحـدد، ولـم يجـرِ أي شيء، ممـا دفـع «حسـين» للخـروج إلى الشـارع، مُقتنعًـا أن سـوء الحـظ كثـيرًا مـا يُفلـت منـه ضحايـاه. نظـر خلفـه فوجـد «عبدالقـادر» قلقًـا وهـو يخطـو خـارج المبـنى، فرفـع كتفيـه بعلامـة عـدم معرفـة مـا دفـع «أديـب الشيشـكلي» إلى إلغـاء موعـده. سـار «حسـين» بضـع خطـوات إلى جـوار مجلـس الحُكمـاء ليتبعـه «عبدالقـادر» في تسـليم، لكـن لـم تمـض نصـف دقيقـة حـتى ظهـرت سـيارات الموكـب بادئـة عـلى غـير المُعتـاد بالسـيارة المُقلـة للهـدف، والـتي توقفـت سريعًـا ليهبـط منهـا بضعـة جنـود مُدججـين بالبنـادق صانعـين دائـرة شـبه مُكتملـة، ثُـم ترجّـل قائدهـم عابـرًا بخطـوات سريعـة نحـو المبـنى، ممـا دفـع «حسـين» للالتصـاق سريعًـا بحائـط المبـنى، قبـل أن تتقابـل عينـاه مـع عينى أحـد الحـراس المُتحفزين ليقـرأ فيهمـا الاسـتعداد التـام. رمـى «حسـين» بعينيـه إلى زميلـه سـائلًا عمـا أعـاق بقيـة الأفـراد عـن القيـام بمهامهـم، ثُـم غمـزه غمـزًا فهمـه

«عبدالقـادر» فاتخـذ موضـع الاسـتعداد، ليبـدآ معًـا في اللحظـة ذاتهـا إطـلاق ذخـيرة أربعـة مسدسـات نحـو «أديـب الشيشـكلي» الـذي توقـف مكانـه غـير عـابئ بالرصـاص، مُثبتًـا لنفسـه قبلهـم أنَّـه ذو قلـبٍ ميـت. عـشرات الرصاصـات انهمـرت عـلى موقـع وقـوف الهـدف، قبـل أن يبـدأ حُراسـه في الـرد بعصبيـة وتوتـر ممـا أصـاب القنّاصـين بالارتبـاك، وتقهقـرا رويـدًا وظـنَّ «حسـين» أنَّ بضـع رصاصـات أصابـت هدفـه وحارسـه الشـخصى. جريـا بظهريهمـا نحـو مبـنى الفنـادق، لكنَّهمـا فوجئـا أن بابـه مُغلـق مـن الداخـل بإحـكام، فواصـلا الركـض نحـو المبـنى المجـاور، لكنَّـه كان مُغلقًـا كذلـك، فتابعـا الهـرب والرصـاص يُـدوي فوقهمـا ليؤكـد إصرار الحـرس عـلى الإيقـاع بهمـا.

مـن حائـط إلى آخـر تنقـلا، وبحـث «حسـين» عـن شـقٍ في الأرض أو سـلمًا إلى السـماء دون فائـدة، في الوقـت الـذي سـمع فيـه عـواء مكتومًـا خلفـه عـرف منـه أنَّ «عبدالقـادر» أُصيـب. نظـر إليـه فـرآه رافعًـا ذراعيـه لأعـلى في وضـع الاستسـلام، فأيقـن أنَّـه مهمـا فـرّ فسـيصلون إليـه، وتذكـر يـوم القبـض عليـه بعـد سـاعات مـن قتـل «أمـين عُثمـان». فكَّـر للحظـات، قبـل أن يُقـرر أنَّـه ليـس مـن الحكمـة مواصلـة الركـض، ليُلقـي بمُسدسـيه عـلى الأرض، ويهبـط عـلى ركبتيـه رافعًـا يديـه مثـل زميلـه.

قُيّـدا، وضُربـا، وصُبـت عليهمـا الشـتائم، واقتيـدا نحـو إحـدى سـيارات الحراسـة لتنطلـق بهمـا بسرعـة جنونيـة مـرَّت خلالهـا عـبر شـوارع عديـدة، ثُـم توقفـت أمـام حاجـز عـدة دقائـق قبـل أن تنطلـق مـرة أخـرى في طريـق خـارج العاصمـة، في الوقـت الـذي سـمع فيـه «حسـين» أنـين صاحبـه، ثُـم بُـكاءه، فالتفـت إليـه مُعاتبًـا بنظراتـه لـيرى يُـسراه تكتـم دمًـا مُتدفقـا مـن جانبـه الأيمـن. هـزَّ رأسـه وقـال لنفسـه: إنَّهـا الخيانـة.

وقفـت السـيارة فجـأة ليجـد «حسـين» مَـن يلـف عصابـة حـول عينيـه، ثُـم يدفعـه لأسـفل، فسـقط عـلى الأرض، لكنـه تماسـك ووقـف مـرة أخـرى ومـضى أمـام يـد تدفعـه بقـوة، حـتى وجـد نفسـه في غرفـة مُظلمـة،

أيقـن أنَّهـا إحـدى زنزانـات رئيـس الأركان المتطلـع إلى الحُكـم. رفعـوا العصابـة ليشـعر بألـم حـاد في عينيـه أعـاد لذهنـه آلام مـا بعـد عملية إصلاح الشـبكية. تذكـر مـا سـمعه مـن حميـه يومًـا عـن كيفيـة تعامـل العسـكريين مـع بعضهمـا بعضـا. هُـم لا يعرفـون الرحمـة. رصاصـات سريعـة يتلـذذون بإطلاقهـا نحـو ضحاياهـم، وربُمـا شـاهدوا خصومهـم يتعذبـون أمامهـم طلبًـا للمـوت الرحيـم فأبـوا. لقـد قتلـوا «حُسـني الزعيـم» بـدمٍ بـارد، قبـل أن يدوسـوا جُثتـه بالأحذيـة يـوم غـدروا بـه، ثُـم قتلـوا «سـامي الحنـاوي» بعـد أيـام قليلـة مـن نفيـه لبـيروت دون أي مُـبرر سـوى الانتقـام. وهـا هـو «الشيشـكلي» ينجـو مـن رصـاص كاد أن يمحـو طموحاتـه نحـو الانفـراد بالسُـلطة.

فكَّـر «حسـين» إن كان عليـه أن يحـكي كُل شيء عـن رجـل المُخابـرات، الـذي حرَّضـه ورسـم لـه الطريـق، ودفـع، ومـوّل، وطمأنـه بالسـلامة مـا دام حيًـا. قـال إنـه سـيكون إلى جـواره دائمًـا، ولـن يسـمح لأحـد بايذائـه، وصـدَّق «حسـين» لأنَّـه كان يُريـد أن يُصـدق، أو لأنَّـه كان في حاجـة لمـال وفـير، بـل لأنَّـه كان في حاجـة لرصـاص يُطلـق، ودمٍ يسـيل، وروحٍ تُزهـق. هـل يعلـم «عبدالرحمـن نـاصر» أيـن هـو الآن؟ وهـل سـينقذه بالفعـل؟ أم يكـون هـو الـذي وشى بـه؟ لكـن لِـمَ؟ لـو أراد القضـاء عليـه لفعـل ببسـاطة وبـدون مثـل هـذه الأفـلام السـاذجة.

قـال لنفسـه، إنَّـه أقـوى مـن الخـوف، وأصلـب مـن التوتـر، وأشـدّ مـن أي تعذيـب. جلـس عـلى ركبتيـه، واضعًـا وجهـه بـين كفيـه، مُغمضًـا عينـين احمرتـا مـن أثـر الضربـات ودُخـان الرصـاص، لينـام. رأى «ميمـي» تُقبّلـه باهتمـام وهـي تُصارحـه بأنَّهـا لا تشـعر بـأي نشـوة مـع زوجهـا الضابـط. قالـت هامسـة بميوعـة: «إنَّـه يرتعـش كُلمـا نظـر نحـو نهـداي». احتضنتـه «سـناء»، وهـي دامعـة العينـين، لتطلـب منـه أن يُسـامحها. أوضحـت كـم كانـت عـلى خطـأ عندمـا فضّلـت عليـه «نجيـب» قـارئ الكُتـب وعاشـق الأفـلام: «إنَّنى أريـد رجـلًا قويًـا مثلـك. رجـلًا حقيقيًـا».

سمع «سعيد» يُناديه بصوتٍ عال: كم أفتقدك يا مُعلمي. اشتمت جيوبه الأنفية عطر «سُعاد» الهادئ، وشعر بجلدها الأبيض يُلامس جلده. كانت كما عرفها دومًا طائعة، ساكنة، توافقه على أي فعل، وتلتمس له ألف عُذر.

فتحت له ذاكرته نافذة على شوارع نظيفة هادئة، وعساكر لهم بشرة بيضاء يسيرون بأفخاذ عارية، وطلبة أشقياء يلقون عليهم الطوب ثُم يختبئون خلف أشجار سامقة. شاهد وجه أبيه مُحمّرًا وهو يُتابع مشهد إطلاق الرصاص على قاضي دُنشواي بسعادة غامرة، ثُم رآه باردًا بعد أن غمرته راحة المنصب وأسكتته سكينة النفوذ. أطلَّت أمه بسمتها المُتعالي وملامحها التُركية لتقول له إنَّه باشا لأنَّ والده باشا وخاله باشا وجده باشا وأنَّه لا يجب ألا يلعب مع «سيد» قريب «عثمان الجنايني».

ـ قُم.

أيقظه صوت ارتطام الباب الحديدي بجدار الزنزانة ليجد ماردًا مُخيفًا يرتدي ملابس عسكرية يأمره بالسير أمامه، ليقوده عبر دهليز مُعتم إلى حجرة مكتب فخم شديدة الشبه بتلك التي التقى فيها حُسني الزعيم في العام الماضي. دُفع داخل الغرفة ليجد هدفه جالسًا ببذلة عسكرية مُزدانة بالنياشين وفوق رأسه بيريه لائق برجل حرب. وقف «حسين» صامتًا وهو لا يكاد يُصدق أنه واقف أمام الرجل الذي بات يحلُم بقتله. كان ذا وجه نحيل تماما مثل «إبراهيم إمام»، وكانت عيناه تشعان بريقًا غامضًا. سأله بجدية:

ـ هااااا. لحساب مَن تعمل؟

صمت كثيرًا، وفكَّر في مُحرِّضه، لكنَّه خشى أن يخلع ثوب البطولة أمام زُملائه، وتذكر قول رجل المخابرات بأنَّه آمن. استجمع شجاعته، وقال بعد أن رسم على وجهه ملامح الثائر:

ـ لصالح فلسطين.

ـ فلسسطيييييييييييين.

كررها رئيس الاركان ساخرًا، قبل أن يصرُخ قائلًا:

ــ وهـل هُنـاك مـن أعطـى فلسـطين مثـلي؟ لقـد حاربـت، بينمـا كان القـادة يتصارعـون عـلى الحُكـم، ومـن أجلهـا خلعـت حُسـني الزعيـم، ثُـم مـن أجلهـا خلعـت الحنـاوي.

وخبّط بيمينه على المكتب، وواصل:

ــ أي مجنـون أنـت لتتصـور أنـني مـع أعـداء فلسـطين. لقـد غامـرت بحيـاتي مـن أجلهـا وسـأجعل سـوريا كُلهـا تنتفـض ضـد الصهاينـة لنطردهـم مـرة أخـرى.

نظر رئيس الأركان بغيظ شديد إلى «حسين»، وقال له:

ــ اسـمع أيهـا المعتـوه. لقـد أصبـت حـارسي المُخلـص برصاصـة في الـرأس، وهـو الآن في المستشـفى العسـكري يعالـج. لـو مـات، سـأقتلك بيـدي هـذه، ولـو لـم يمُـت سـأجعله يقتُلـك بمسدسـه. هـل تفهـم؟ في الحالتـين أنـت ميـت تتنفـس أنفاسـك الأخـيرة.

وأشار للحارس ليأخذه من أمامه.

***

مـن القاهـرة إلى دمشـق قطـع رحلتـه بالطائـرة في سـاعتين ليـؤدِّي واجبـه في الترافـع عـن «حسـين توفيـق» بعـد اتفاقـه مـع والـده عـلى ذلـك نظـير أتعـاب ألفـي جنيـه. كان «أحمـد الناحـي» المُحامـي أحـد الذيـن شـاركوا في انـتزاع رقـاب قتلـة أمـين عُثمـان مـن قبضـة عشـماوي بعـد أن قـدّم إلى المحكمـة شـهادات طبيـة تفيـد عـدم مسـئولية «حسـين» عـن أفعالـه نتيجـة اضطـراب نفـسي يُعـاني منـه.

قال له «توفيق بك»:

ـ إنَّ مُهمتك أن تُفلت حسين من الإعدام مثلما فعلت في السابق. أنت أفضل مَن يقوم بذلك.

ذهب إلى المحكمة العُليا بدمشق طالبًا الإذن بالترافع، قبل أن يبعث أحد أصدقائه من المحامين السوريين لجلب أوراق القضية. كانت القضية قد حوّلت للنيابة العسكرية التي أثبتت اعتراف «حسين توفيق» بإطلاقه الرصاص على رئيس الأركان أثناء هبوطه من سيارته مما تسبب في إصابة حارسه الشخصي بإصابات خطيرة. وقرأ المُحامي اعتراف عبدالقادرعامر بمشاركته في محاولة الاغتيال اعتقادًا منهما أنَّ رئيس الأركان يسعى لعمل صلح مع الدولة الصهيونية، فضلا عن اعتراف «مصطفى كمال» باعتزامه المشاركة في العملية، إلا أنَّه قُبض عليه قبل ساعة من تحركه نحو موقع التنفيذ. أما «محمد المرصفاوي» فأنكر تمامًا أي صلة له بالعملية، بل إنَّه أنكر أن يتورط صديقاه «حسين توفيق» و«عبدالقادرعامر» في إطلاق رصاص على أديب الشيشكلي لأنهما يعرفان وطنيته، ثُم أنكر «المرصفاوي» معرفته بـ«نوار» الفلسطيني الذي كان واضحًا أنه مَن وشى بهم جميعًا.

قدَّم المُحامي طلبًا للاجتماع برئيس الأركان قبل الترافع في القضية، خاصة أنَّه يعلم أنَّ القضاء العسكري بات وحاسم ويرفض ألاعيب المحامين وحيلهم. قال إنَّ إقناع الرجل بعدم سلامة المُتهم الأول كفيل باستدرار عطفه، وهو ما قد ينجح معه في الحصول على عفو عنه أو سجن مؤبد. فوجئ «أحمد الناحي» بسرعة تحديد الموعد ليجلس أمام رجل مهيب، تبدو عليه الحكمة رغم بعض العصبية البادية على ملامحه. في البداية حاول المُحامي كسب ود الرجل فقال له:

ـ تهانينا على الثورة ضد الحناوي. آمل أن تجد البلاد في ظل قيادتكم الاستقرار والرفعة.

لكنَّ «أديب الشيشكلي» ردَّ سريعًا:

ــ لا ثــورة ولا شيء. إنَّــه انقــلاب عســكري، ثُــم أنــا لســت القائــد كمــا تــرى. هنــاك رئيــس جمهوريــة.

ــ تمام. لكنَّك كُل شيء.

ــ ادخــل في الموضــوع أيهــا المُحامــي الكبــير. أنــا لا أســتطيع مجــاراة المصريــين في الحــوار. أنتــم ماهــرون في كُل شيء، وأنــا رجــل عســكري لا أعــرف اللــف والــدوران.

ابتسم المُحامي، وقال للقائد:

ــ إنَّ مــصر دولــة كبــيرة في المنطقــة، ومــن الــضروري لأي سُــلطة في دمشــق أن تعمــل عــلى تحســين علاقاتهــا مــع...

قاطعه الرجل سائلًا:

ــ هل أنت مبعوث جلالة الملك فاروق؟

هزَّ المُحامي رأسه نافيًا، فكرَّر مُحدّثه:

ــ هــل أنــت مــوكل مــن الســيد مُصطفــى باشــا النحــاس للتحــدث باســم الحكومــة المصريــة؟

هزَّ المُحامي رأسه مرة أخرى، فصاح «الشيشكلي»:

ــ إذن ادخل في الموضوع سريعًا.

ــ حسين توفيق.

ــ ما له؟

ــ إنَّه ولد مريض نفسيًا وهذه شهادات طبية تؤكد....

قاطعتــه إشــارة مــن كــف الرجــل، ورنَّ جرسًــا أمامــه ليطلــب مــن الحــارس أن يجلــس أمــام أحمــد الناحــي ثُــم قــال:

ــ هل ترى أذنه؟

وأشار إلى بقايا أذن مبتورة، فوق جرح مازال واضحًا، قبل أن يضيف:

ــ هـذا رجـل مـن أخلـص رجـالي. أطـار الولـد المريـض الـذي تدافـع عنـه أذنـه فلـم يعُـد يسـمع سـوى بواحـدة. ولـولا سـتر اللـه لقـضى نحبه.

هـزَّ المُحامـي رأسـه اقتناعًـا، قبـل أن يعـود الهـدوء إلى وجـه رئيـس الأركان ليسـأله عمـا يـشرب، ثُـم قـال لـه في أدب جـم:

ــ أنـا أقـدر موقفـك أيهـا المحامـي القديـر. أنـت تـؤدي واجبـك. لكـن، صدّقـني، لقـد قـررت المحكمـة بالأمـس أن يكـون حكمهـا بإعـدام حسـين وزميلـه الآخـر. أمـا الولـدان الآخـران فسـيتم سـجنهما عـشر سـنوات.

باتت خيبة الأمل مرسومة على وجه المحامي، الذي قال:

ــ هل لي أن أسألك سؤالا؟

ــ تفضل.

ــ لِمَ قبلت لقائي وأنت تعرف أنني سأتحدث إليك في هذا الموضوع؟

ابتسم «أديب الشيشكلي» قليلا قبل أن يقول:

ــ لقـد انتظـرت أن تُقنعـني بـأن حسـين توفيـق لا يسـتحق المـوت. لكـن هـذا لـم يحـدُث.

شـكره المُحامـي بدبلوماسـية قائـلًا لنفسـه إنَّ الرجـل يريـد أن يؤكـد لـه أنَّ الأبـواب لـم توصـد بعد.غـادر مُفكـرًا، ليلتقـي «سُـعاد» في منزلهـا، ناقـلًا لهـا رسـالة مـن «حسـين» بـأنَّ تأخـذ وليدهـا وتسـافر إلى القاهـرة. كانـت ذابلـة العينـين، وبـدا وجههـا شـاحبًا مـن طـول السـهر والبـكاء حُزنـا عـلى والدهـا الـذي رحـل بعـد ثلاثـة أيـام مـن سـقوط زوجهـا في أيـدي الشرطـة العسـكرية، فضـلًا عـن رفـض السـلطات العسـكرية رؤيتهـا لـ«حسـين»، والـذي تظـن أنَّـه صـار قريبًـا مـن نهايتـه. قالـت للمُحامـي:

ــ مـا الـذي يدفعـني لـترك الشـام؟ والـدي رحـل، لتبقـى أمـي وشـقيقتي وحدهمـا. وزوجـي ينتظـر الإعـدام في أي لحظـة. سـأبقى هُنـا.

انهمـرت دموعهـا لترسـم خطـين أسـمرين عـلى خديهـا الجميلـين. نظـر لهـا المحامـي بعطـف قبـل أن يقـول:

ـــ أنـتِ حُـرة بالطبـع. لكـني أرى أنَّـه ليـس لـك دخـل الآن، ومعـاش والـدك بسـيط جـدا، وهــو بالـكاد يكفـي احتياجـات أمـك. وشـقيقتك هـي الأخـرى بـلا عائـل. وأفضـل اختيـار في تصـوري هـو القـدوم معـي إلى القاهـرة. هُنـاك سـتجدين كُل مـا تحتاجينـه ويحتاجـه ابنـك. هُنـاك سـتجدين التربيـة المناسـبة لخالـد، والعائلـة الأصيلـة، والبيـت الكبـير. فكّـري جيـدا يـا بنـتي. وجـودك هُنـا بـلا فائـدة. وسـنحاول الضغـط سياسـيًا للإفـراج عـن حسـين.

لـم تـرُد، وشـكرته دامعـة، ثـم ودَّعتـه، وهـي تُفكِّـر في الانتقـال إلى القاهــرة.

***

وصلتـه الرسـالة واضحـة: لا تقلـق. صـدر الحُكـم بإعدامـه، فاسـتعاد مشـهد خـروج الـروح مـن أُنـاس وقّـع شـهادات النهايـة لهـم. كانـوا حينئذ يرتجفـون، وتجحـظ عيونهـم، ويُـرددون حـوارًا هامسًـا مـع لا أحـد. أمـا هـو فلـم يشـعر بـأي خـوف، لـم تهـتز لديـه شـعرة واحـدة، ولـم يخفـق قلبـه هلعًـا انتظـارًا لإنهـاء حياتـه. كان يشـعر بالسـكون التـام، واللامبـالاة المُعتـادة، وهـدوء الأعصـاب الغريـب.

ظـلَّ «حسـين» في محبسـه يرتـدي بذلـة الإعـدام، وإلى جـواره عبدالقادر ببذلـة شـبيهة، وقـد ربـط ذراعـه نحـو عُنقـه، تأثـرًا بإصابتـه بالرصـاص يـوم الحـادث. علمـا بـبراءة «مصطفـى كمـال» و«محمـد المرصفـاوي» وترحيلهمـا إلى القاهـرة قبـل سـاعات مـن علمهمـا بالحُكـم الـذي تُـلي غيابيًـا.

مـرَّت الأيـام دون عـد، واختفـى المُحامـي تمامـا بعـد أن انتهـى إلى لا جـدوى مـن نقـض الحُكـم باعتبـاره عسـكريًا باتًـا، حـتى فوجـئ «حسـين» ذات مسـاء باسـتدعائه إلى غرفـة مُديـر السـجن العسـكري ليتركـه المديـر

مـع رجـل المُخابـرات المُخـضرم «عبدالرحمـن نـاصر». اسـتعاد السـجين حيويتـه، وفتـح الأمـل نوافـذه مـرة أخـرى عـلى قلبـه، عندمـا قـال لـه الرجـل إنَّـه يُقـدر ثباتـه وصلابتـه، وأنَّـه لـن يُعـدم وسـيبقى طـي النسـيان حـتى يـأذن اللـه لـه بالخـروج. أخـبره الرجـل أيضًـا أنَّـه بعـث بمبلـغ مـن المـال لزوجتـه، قبـل أن تُسـافر إلى القاهـرة بصُحبـة ابنهـا، وأنَّـه فعـل الأمـر نفسـه مـع زوجـة «عبدالقـادر». حـكى الرجـل سريعًـا أنَّ أكـبر خطـأ ارتكبـه «حسـين» هـو ثقتـه الزائـدة في «نـوار» الفلسـطيني الـذي كان يعمـل لحسـاب جماعـة أخـرى عـلى صلـة ود بـ«أديـب الشيشـكلي» نفسـه. أخـبره «عبدالرحمـن» أنَّ القاهـرة تشـهد زخمًـا شـديدًا بعـد أعمـال شـغب عديـدة تـم خلالهـا حـرق المنشـآت العامـة والمبـاني الأجنبيـة، وتـم إقالـة الحكومـة بعـد تحميلهـا المسـئولية. سـأل حسـين مُحدثـه عـن الوقـت المتوقـع لبقائـه في السـجن، فـردّ «عبدالرحمـن» بأنَّـه رهـين بقـاء «الشيشـكلي» عـلى كـرسي الُحكـم، لكنَّـه أكـد مـرة أخـرى أنَّـه لـن يُعـدم لأنَّ رئيـس الأركان الـذي أطـاح برئيـس الجمهوريـة لينفـرد بالحكـم سـيبقيه ليتفـاوض بـه مـع القاهـرة بغيـة تحسـين العلاقـات. اقتنـع «حسـين» بحديـث الرجـل، وقـام بطمأنـة زميلـه في الزنزانـة، والـذي كان يعـاني مـن هُـزال شـديد واكتئـاب حـاد.

تلقـى «حسـين» رسـالة مـن زوجتـه أبلغتـه فيهـا بصـدور مرسـوم ملـكي بالعفـو عـن جميـع المحبوسـين في قضيـة مقتـل «أمـين عُثمـان» واسـتثنائه بسـبب هروبـه. أخبرتـه أنَّهـا التقـت زُمـلاءه «محمـد إبراهيـم كامـل»، و«مدحـت»، و«سـيد»، و«عُمـر»، و«محجـوب»، وأنَّهـم رأوا «خالـد» وقالـوا إنَّـه نسـخة مـن «حسـين»، وتوقـع «سـعيد» سـاخرًا أنَّ يصبـح «خالـد» ضابطًـا للشرطـة. حكـت لـه أنَّ خالتـه أصرَّت عـلى تعليـق خـرزة زرقـاء في سلسـلة مـن الفضـة في رقبـة الولـد الصغـير، لتقيـه شر الحسـد. وألمحـت الزوجـة بـأنَّ حماتهـا مازالـت تنظـر إليهـا نظـرات لـوم مُـرددة دائمًـا أمامهـا أن الزوجـات حظـوظ، وأنَّ هُنـاك زوجـات تجلـب الخـير وأخريـات تـأتي معهـا المصائـب. قالـت إنَّ حماهـا يبـدو أكـثر ودًا

رغـم غيابـه المتكـرر عـن البيـت، وإنَّـه ينظـر دائمًـا بمحبـة وعطـف إلى «خالـد»، قبـل أن تغلبـه دموعـه سريعًـا.

«محمـد إبراهيـم كامـل» بعـث برسـالة أخـرى إلى «حسـين» أكـد لـه فيهـا أنَّ جميـع الأصدقـاء فخـورون بـه، وبنضالـه ضـد الصهيونيـة، وأنَّـه قـرأ تحقيقًـا صحفيًـا في مجلـة روزاليوسـف سـألوا فيـه بعـض الشـباب عـن قدوتهـم، فنطـق أحدهـم باسـم «حسـين توفيـق»، ولمـا سُـئل عـن سـبب اختيـاره، أجـاب بأنَّـه أطلـق الرصـاص عـلى خـادم الاحتـلال، وطـارد جنـود الإنجليـز واعتـدى عليهـم، ثُـم سـافر للحـرب ضـد إسرائيل، وتتبـع الخونـة في كُل مـكان. «لقـد صرت أبًـا روحيًـا للمناضلـين الجُـدد» قرأهـا «حسـين» في رسـالة صديقـه وابـن خالتـه، والـذي زفَّ نبـأ تخرجـه وعملـه بالمحامـاة. كان مـن اللافـت أنَّ أحـدًا لـم يُخـبر «حسـين» شـيئًا عـن «محمـود مـراد»، لكنَّـه توقّـع مـا سـبق أن قـدم لـه «إبراهيـم كامـل» في رسـالة سـابقة بأنَّـه طلَّـق السياسـة تمامًـا، وتفـرَّغ للهندسـة ولا شيء آخـر.

مـرَّت الأيـام رتيبـة، باهتـة، ومتشـابهة عـلى السـجينين المحكـوم عليهمـا بالإعـدام مـع وقـف التنفيـذ. خفّـت شـحومهما، وتآلفـا سريعًـا مـع العسـاكر والحُـراس، قبـل أن يتعرفـا عـلى بعـض السُـجناء الآخريـن خـلال سـاعات التريُـض. كان مـن المُثـير أنَّ أحـدًا مـن السُـجناء لا يعـرف جناياتهـم أو حـتى العقوبـات الـتي ينبغـي عليهـم تنفيذهـا، خاصـة أنَّ بعضهـم أديـن بأحـكام صـادرة مـن «حُسـني الزعيـم»، ثُـم تـم إلغاؤهـا مـن خليفتـه، ثُـم أعيـدت مـرة أخـرى بعـد انقـلاب «أديـب الشيشـكلي» الأول. تعـرّف «حسـين» و«عبدالقـادر» عـلى عـدد مـن شـباب جماعـة الإخـوان الفاريـن مـن مـصر، والذيـن أكـدوا لهمـا أنَّ السـجن في سـوريا أهـون كثـيرًا مـن سـجون «إبراهيـم عبدالهـادي» الـذي قمـع الإخـوان بعُنـف وسـادية عقـب اغتيـال «النقـراشي باشـا».

ذات صبـاح صيفـي قـصَّ عسـكري سـوري عـلى السـجناء المصريـين

قصة تحرك الجيش في القاهرة للاستيلاء على السلطة وإعلان خلع الملك. كان من المُفاجئ لحسين أن يعرف أنَّ قائد الانقلاب هو «أنور السادات»، والذي أذاع بيان الحركة. سرحت ذاكرته في صاحب الوجه الأسمر وتذكر كيف كان مُرشده الأول، واستبشر أن يرى النور قريبًا، ما دام «الحاج محمد» على رأس الحركة الجديدة. قال لزميله في الزنزانة وهو يُدخّن بنهم:

ـ استعد. سنخرُج قريبًا.

وظل يُكررها خمس سنوات.

***

لم تجد «سُعاد» في بيت «توفيق بك» في مصر الجديدة السعادة المُنتظرة خاصَّة في ظل تحكم حماتها في كُل شيء. كانت «سُعاد» لا تستطيع الخروج من البيت إلا بإذن خاص، وبصُحبة السيدة الكبيرة أو شقيق زوجها «سعيد»، وكانت تجد شُحًا بالغًا من سيدة البيت في مصروفها الشخصي الذي اقتصر على بضعة جنيهات كُل شهر.

لم تر الفتاة الحالمة قاهرة الصخب، حاضنة الفن والجمال التي طالما قرأت عنها في الصُحف والمجلات. لم تسر في شوارع وسط البلد، ولم تسهر على أي من مقاهيها، ولم تلتق بمبدع أو فنان شهير في أي احتفال. كان كُل شيء حولها يتغير بسرعة جعلتها لا تكاد تُصدق سُرعة التحولات المُترتبة على ثورة يوليو.غابت الطرابيش رويدًا، مع إلغاء الألقاب، وصدرت قرارات كثيرة بالعفو عن سجناء سابقين في قضايا سياسية.

كانت العائلة الثرية تفتح بيتها لزيارات بعض العائلات الأخرى أو الأقارب، وكانت النظرة التي تتلقاها «سُعاد» دائمًا من الزائرات

تحمل مزيجًا من الازدراء والاستغراب، ازدراء من فتاة تزوَّجت شابًا وسيمًا ثريًا، فُحكم عليه بالإعدام، واستغراب من ملابسها البسيطة، ولهجتها الشامية. كذلك حمّلت سيدات العائلة الفتاة السورية مسئولية إصابة وليدها «خالد» بمرض عصبي خطير نتيجة ارتفاع درجة حرارته عندما كان صغيرًا. كان من الواضح أنَّ الولد قريب الشبه بـ«حسين» يُعاني من صعوبة شديدة في الكلام، وكثيرًا ما كانت تنتابه حالة ارتعاش مُتكرر، وبكاء دون سبب رغم بلوغه الثالثة من عُمره. فكَّرت «سُعاد» أكثر من مرة في عرض الولد على كبار الأطباء، لكن تحكم حماتها في جميع أمور الولد أصابها باليأس، ودفعها للتفكير أكثر من مرة في العودة إلى دمشق، إلا أنَّ اعتلال صحة حميها حال دون ذلك، فضلا عن عدم السماح لها بزيارة «حسين» في سجن المُزة الذي نُقل إليه بعد وقف إعدامه بقرار من رئيس الجمهورية الذي سعى لمد علاقات ود مع القاهرة.

فى يومٍ ما زارها «محمد إبراهيم كامل»، وقال إنَّه زار السيد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة ووعد بالتدخل للإفراج عن «حسين»، خاصة أنَّ الثورة في حاجة لجهود الشباب الوطني لخدمة بلده. وأخبرها ابن خالة زوجها بأنَّ «جمال عبدالناصر» عرض عليه العمل في الحكومة فاختار العمل الدبلوماسي، حيث تم تعيينه في وزارة الخارجية، وسيسافر قريبًا للعمل في إحدى السفارات. ورجاها أن تُكرر الاتصال بـ»أنور السادات» لتذكيره بموضوع «حسين»، لكنَّ حماتها منعتها واختطفت رقم الهاتف من أصابع ابن أختها مؤكدة أنَّ النساء ليس لهن الحق في الاتصال بأحد في غياب أزواجهن، وأنَّ «سعيد» سيقوم بالمهمة على خير وجه. ورغم مرور أسابيع طويلة على اللقاء، فإنَّ «سعيد» لم يتمكن من لقاء «السادات» بسبب كثرة مشاغله.

فيما بعد قررت «سُعاد» الاعتماد على نفسها وزارت الصحفي

«إحسان»، الذي أخبرها بأنَّ «السادات» أكد صعوبة التدخل لدى دمشق بسبب ثورة الجبل الجارية ضد حُكم أديب الشيشكلي وأن أفضل شيء هو الانتظار، وهو ما دفع «سُعاد» لاتخاذ قرار العودة إلى سوريا. وأدى إصرار حماتها على بقاء «خالد» في القاهرة إلى سفرها وحيدة لتجد شقيقتها في انتظارها بالمطار تُخبرها بأنَّها رأت منامًا يؤكد أنَّ الإفراج عن زوجيهما بات قريبًا. كانت «فاطمة « تؤمن إيمانًا شديدًا بأن الأحلام تحمل كثيرًا من البشارات والعلامات، وكانت مولعة بتفسيرها، وهكذا قصّت على شقيقتها أنها رأت رجُلا مهيبًا يفتح قفصًا لتطير منه عدة عصافير وهي تزقزق فرحة.

كانت دمشق قد اتشحت بالسواد، بعد سقوط عشرات القتلى من الدروز في ثورة الجبل، وبدا واضحًا على وجوه التجار والباعة هموم الكساد والفاقة، في ظل نظام القمع القائم، الذي سبق نظام ثورة يوليو في حلّ جميع الأحزاب والبرلمان واعتقال الساسة وحظر المُظاهرات. ومع تعاظم الثورة ضد الحاكم الحديدي اضطر «أديب الشيشكلي» إلى مغادرة سوريا وطلب اللجوء إلى بيروت ليُعلن في خطاب رسمي تخليه عن السُلطة نهائيا، مما أعاد الفرح مرة أخرى إلى وجوه الناس في أرجاء الشام.

ولم تمض أيام على الواقعة حتى سُمح لـ«سعاد» و«فاطمة» بزيارة زوجيهما، مما جعل «فاطمة» تفخر أمام شقيقتها بصدق أحلامها، وزاد من فرحتهما خطاب أرسله «سعيد توفيق» قال فيه إنَّه نجح أخيرًا في لقاء «السادات»، وأنَّه وعد بالتدخل لدى السُلطات السورية للعفو عن «حسين» وزميله «عبدالقادر».

الفصل الثالث
القاهرة مرة أخرى

جلس عضو مجلس قيادة الثورة بمكتبه الجديد بدار التحرير مُفكرًا في كيفية تجنب الدخول كطرف في الصراع الدائر على السُلطة والنفوذ داخل النظام الجديد. كان «أنور السادات» يعي جيدًا أنَّ موضع الثِقل داخل مجلس قيادة الثورة يميل ناحية الضابط الأسمر الذكي القادم من أسيوط الذي اشتهر اسمه بعد حرب فلسطين كأحد الضباط الوطنيين. فكَّر أنَّ «جمال عبدالناصر» بسمته البسيط وعقليته المُتشككة قادر على حسم الأمر لصالحه. تيقن «السادات» بعد الأزمة العاصفة التي كادت أن تودي بالبلاد في مارس الماضي أنَّ الأسد العجوز الموضوع كرئيس للجمهورية ليس سوى واجهة يتحكم فيها «جمال عبدالناصر» المُحرِّك الحقيقي لكل شيء حوله. إنَّ «محمد نجيب» في تصوره رجل نبيل لديه أخلاق، لكنه يُفكّر بذات الطريقة التي يُفكر بها السياسيون القدامى، ويتصور أن الجماهير قادرة على حمايته وإنصافه في صراعه ضد باقي أعضاء مجلس القيادة. قال إنَّ إهمال تنفيذ قرارات الرجُل أكد للجميع أنَّ «عبدالناصر» هو الأقوى والأجدر على القيادة، فهو الذي استطاع إنهاء تمرد سلاح الفرسان، وهو الذي نجح في التلاعب بجماعة الإخوان، وبفلول الأحزاب البائدة ليُسيطر على الأوضاع ويُديرها لصالحه.

بعد استقالة «نجيب»، ثُم عودته تحت ضغط غريب من «عبدالناصر» و«عبدالحكيم عامر» صار من الواضح لكل قريب من الأحداث أنَّ الأيام القادمة ستشهد تحولات خطيرة، تؤكد أنَّ ما جرى في دمشق يُمكن أن يتكرر في القاهرة. لذا فقد قرر الضابط الذي تمرّغ في سجون مصر قبل سنوات، وشارك في أكثر من مؤامرة ومغامرة أن يُبدي زُهدًا وترفعًا عن أي منصب أو مكانة تجعله طرفًا في الصراع.

قال لنفسه محاولًا إقناعها بصدق نواياه أنَّه أكبر من التورط

في صراعـات رفـاق السـلاح بعـد حيـاة حافلـة بالمغامـرات والأخطـار دفـع فيهـا الثمـن سـجنًا وتـشردًا خـارج عملـه، ومُطـاردًا مـن البوليـس السياسي. كان يعتقـد أنَّ القـدر يُخفـي لـه جوائـز مُسـتحقة، خاصـة أنَّ الصدفـة دفعـت بـه ليُلقـي بيـان الحركـة المُباركـة رغـم قيامـه بالذهـاب إلى السينما ليلـة التحرُك بصُحبـة زوجتـه والتشاجر مـع أحد المُشـاهدين وتحريـر محـضر لإثبـات براءتـه حـال فشـل الحركـة. كمـا أوكلـت لـه بعـد أيـام مـن نجـاح الحركـة مُهمـة القبـض عـلى «إبراهيـم إمـام» غريمـه اللـدود ليبـدو وقتهـا أحـد قـادة النظـام الجديـد الـذي سيمحو تمامًـا كُل مـا سـبقه. تذكـر كيـف قـرأ في عيـني غريمـه رباطـة الجـأش والاستسـلام البـارد لمصير مجهـول، ثُـم مـرَّت برأسـه سـنوات المُلاحقـة وأيـام التتبـع المُثـير مـن رجـل يلـتزم بالقانـون ويُبـدي تعاطفًـا صامتًـا مـع شـباب العمـل الـسري. قـال لنفسـه إنـه كان يحـترم إبراهيـم إمـام رغـم أنَّـه فكَّـر مـرارًا في قتلـه، لأنَّـه كان خصمًـا شريفًـا، وضابطًـا نبيـلًا.

واصـل رأسـه تقليـب مشـاهد حياتـه ليتذكـر كيـف نجـح في قتـل «أمـين عُثمـان» دون أن يضغـط عـلى الزنـاد. لقـد حقـق مُـراده في الانتقـام مـن «مُصطفـى النحـاس» الـذي طـرده مـن الجيـش، ونفّـذ رغبـة الملـك في قطـع رأس عـدوه اللـدود دون أن تتلـوث يـداه بالدمـاء. كانـت كلماتـه وشـخصيته وقدرتـه عـلى الإقنـاع كفيلـة برسـم نهايـة وسـيط الوفـد والإنجليـز مـن خـلال صبيـة أشـقياء يتصـورون أنَّهـم يـد العدالـة. تذكـر «السـادات» إلحـاح «محمـد إبراهيـم كامـل» و«عُمـر أبـو يعـلى» للتدخل لـدى الحكومـة السـورية للإفـراج عـن «حسـين توفيـق»، وخلُـص إلى أنَّ رميـه الكُـرة في ملعـب زميلـه «عبدالحكيـم عامـر» سـيضرب عصفوريـن بحجـرٍ واحـد، حيـث سـيتجنب شـكوك «جمـال» في تكويـن شـلَّة مـن الأشـقياء والمغامريـن، وسـيُرضي كبريـاء وشـهامة «عبدالحكيـم عامـر» الباحـث عـن أي ظـلال ضـوء في ظـلّ تضخـم اسـم صديقـه الحميـم.

فكَّـر «السـادات» وهـو يُدخّـن بتلـذُذ في ضرورة تجنُـب الدخـول في أي

مُغامـرات جديـدة قـد تؤثـر عـلى مُسـتقبله، وهـو مـا دفعـه مـرارًا إلى أن يقـف إلى جـوار «جمـال عبدالنـاصر» في جميـع طروحاتـه، مُعضـدًا ومؤيـدًا، حـتى ذلـك اليـوم الـذي اقـترح فيـه «جمـال» حـلّ مجلـس قيـادة الثـورة وإعـادة الأحـزاب والدعـوة للانتخابـات، رفـض بحـدّة لأنَّـه يعـرف أنَّ اقـتراح زميلـه مُجـرد اختبـار لكشـف مَـن يقفـون معـه ومَـن يقفـون ضـده. قـال لنفسـه إنَّ وظيفـة مُديـر لجريـدة الثـورة، تُلائـم ميولـه، وتُناسـب قناعاتـه في الوقـوف خلـف السـتار لمُشـاهدة عصـف الرفـاق بعضهـم ببعـض، وتذكـر أنَّ قدوتـه في السياسـة ومحبوبـه الأثـير «مصطفـى كمـال أتاتـورك» لـم يتحـرك نحـو موقـع القيـادة إلا بعـد أن صفـا لـه الأمـر بخـروج المُنافسـين واحـدًا تلـو الآخـر.

سيسـقط «محمـد نجيـب» قريبًـا، وسـيخلو المجـال أمـام «جمـال» ليسـتحوذ عـلى السُـلطة مُنفـردًا، وسيشـتبك مـع البعـض وسـيقصيهم لاسـتعادة لقـب الفرعـون مـرة أخـرى. هكـذا تصـوَّر، وهـو يرنـو بعينـين ماكرتـين إلى ماكيـت الجريـدة الـتي اختـار لهـا اسـم «الجمهوريـة» والـتي صـار مسـئولًا عنهـا.

***

داسـت عجـلات الأيـام مشـاعره، وحفـرت كآبـة الجُـدران الأربعـة شُـقوق روحـه، وهـو يُتابـع انقلابـات الصحـاب وتحـولات النـاس في بـلاده. أيقـن «حسـين» أنَّـه دفـع ثمـن جرأتـه وإقدامـه عُمـرًا مـن الوجـع، وسـنوات مـن الوحشـة، والاغـتراب. علـم بوفـاة والـده وهـو قابـع ينتظـر عفـوًا لا يجـيء لـيزداد حنقًـا عـلى حنـق، ويسـتعر غـلًا تجـاه بطـولات تـوزع، وزعامـات تُمنـح زورًا وبهتانًـا. قـال لزوجتـه في إحـدى الزيـارات إنَّ «جمـال عبدالنـاصر» الـذي صـار مـلء السـمع والبـصر، كان مُنهمـكًا في القـراءة عندمـا كان هـو يقتـل الإنجليـز في شـوارع القاهـرة. أخبرهـا بـأنَّ ذلـك

البطـل الـذي صـار عنوانًـا للبـلاد بعـد فشـل العـدوان الثـلاثي عـلى مـصر ليـس سـوى بائـع كلمـات، وتاجـر مواقـف. أكـد لهـا أنَّ المُنقـذ الـذي يرنـو لـه النـاس باعتبـاره مُخلصًـا ومُنقـذًا لـم يُطلـق رصاصـة ولـم يقـترب مـن المـوت. آلمـه مـا نُقـل لـه مـن وضـع أراضي والدتـه تحـت الحراسـة، وشـعر بالجحـود لنسـيانه ونسـيان جهـاده، وعـدم ذكـر اسـمه في الصُحـف كواحـد مـن أبطـال الوطـن. اجتاحـه الحُـزن عـلى ابنـه المريـض الـذي لـم يـره وهـو يخطـو أولى خطواتـه.

في السـجن قـرأ عـن خيانـات التاريـخ لأبطـال عظـام، ورجـال شُـجعان، تحولـوا إلى مُجرمـين شـواذ تحـت وطـأة صناعـة التاريـخ للقـادة الجُـدد. راجـع كيـف كانـت السُـلطة في كُل عـصر تمحـو أي بطـولات لـم تُشـارك فيهـا. ذكّـر «حسـين» صديقـه «عبدالقـادر» بمـا جـرى للقائـد العسـكري «روميـل» عـلى يـد «هتلـر» الـذي اعتـبره خائنًـا ودفعـه للانتحـار خوفًـا مـن افتتـان النـاس بـه. قـال لـه إنَّ خليفـة المسـلمين «سـليمان بـن عبدالملـك» عـذّب «مـوسى بـن نُصـير» القائـد العظيـم وباعـث الفتـح الاسـلامي للأندلـس ورمـاه في السـجن إلى أن مـات.

فكَّـر «حسـين» مـرارًا في الهـرب، لكنَّـه كان يعلـم أنَّ خصومـه في الخـارج يترقبـون اللحظـة المُناسـبة للفتـك بـه. كان يوقـن أنَّ جماعـات الفـداء العـربي ورجـال هـاني الهنـدي وجهـاد ضاحـي الذيـن صـاروا نجومًـا ورمـوزًا في بـلاد الشـام لـن يغفـروا لـه محاولتـه قتـل «أديـب الشيشـكلي». في الوقـت نفسـه، كان يعلـم أنَّ رجـل المُخابـرات السـوري الـذي أوغـر صـدره يومًـا عـلى رئيـس الأركان السـابق لـن يحميـه، وأنَّ أقـصى مـا كافـأه بـه هـو إيقـاف تنفيـذ الإعـدام بـه حـتى ينسـاه الجميـع.

راجـع «حسـين» بمـرارة خيانـات عديـدة طعنـت ظهـره، مُتذكـرًا مـا فعلـه «نـوار» الفلسـطيني بـه وبصُحبتـه رغـم كُل مـا قـدّم لفلسـطين مـن حُـب وقتـل وتفجـيرات هُنـا وهُنـاك. اسـتعاد يـوم أن رفـض زُمـلاؤه ضـم «نـوار»إلى الجماعـة تحـت دعـوى عـدم الثقـة، وتذكـر كيـف قـال

لهم أنه قادر على قراءة عيون البشر، وأنَّه على يقين أنَّه مُخلص وأمين، وأنَّهم في حاجة لدوره باعتباره مصنع ديناميت مُتنقلًا. لقد كان «حسين» مفتونًا بالديناميت ويعتبره وسيلة قهر رائعة وأداة قتل سريعة نظرًا لما يُلقيه من حِمم مُلتهبة على أجساد البشر. أخبره «نوار» وقتها أن صناعة الديناميت مهنته، وأنَّه مُتخصص في تجهيز أدوات النسف عن بُعد من خلال مادة النيتروجلسرين التي درس وتعلم تركيبها، لذا فقد تمنَّى «حسين» أن يتعلم كيفية صناعة النيتروجلسرين، لكنه كان على موعد مع درس آخر هو درس الخيانة.

قال يومًا لنفسه إنَّ ذلك الصمت يقتله، يستنفد ما بقي لديه من إقدام، يمتص دم التحدي في خلاياه. كُل يوم يأكل من عُمره لحظات كان يعتقد أنَّ الدنيا خسرتها ببقائه ممنوعا من الحركة، محدود الخطوات. أحداث لن تقع، وأحوال لن تتغير، وكلاب ستظل تنبح ما دام حبيسًا. هكذا فكَّر، وهو يتذكر لقاءه بـ«الحاج محمد» في غُرفة مُنعزلة قُرب مسجد قيسون.

***

لم يكترث «حسين» كثيرًا عندما استدعاه مُدير سجن المُزة ليُبشِّره بقرار الإفراج عنه. كان يشعر أنَّ الإفراج تأخر طويلًا، وأنَّه دفع أكثر مما ينبغي نتيجة وطنيته وحماسه. قدّم له مُدير السجن ضابطًا مصريًا قال إنَّه مبعوث من سيادة المشير «عبدالحكيم عامر» شخصيًا، الذي احتضنه كصديق، وقبَّله كأخ قبل أن يبارك له على خروجه من السجن وينقل له تحيات القيادة العسكرية في مصر. عاد الدفء إلى شرايين «حسين» عندما حادثه الضابط الشاب باعتباره بطلًا قبل أن يقول له إنَّه يعرف عنه الكثير من مقالات «إحسان عبدالقدوس». طبع الرضا بصماته على وجه «حسين»، وهو يستمع

لصـوت الضابـط وهـو يقـرأ لـه مقالـة كتبهـا «إحسـان» عنـه تقـول كلماتهـا:

«إنَّ العلاقـة بيـني وبـين «حسـين توفيـق» هـي أغـرب علاقـة قامـت بـين كاتـب وقـارئ، فمنـذ أن أطلـق «حسـين توفيـق» النـار عـلى «أمـين عثمـان»، وأنـا أحـسّ كلمـا أمسـكت قلمـي لأكتـب مقـالًا أنِّي أكتـب لـه، وأنَّ صورتـه تلاحـق كلمـاتي وتسـألني معانيهـا ومـا أقصـده مـن ورائهـا. كان «حسـين» يبادلـني نفـس الشـعور، ويعتـبر مقـالاتي خطابات شـخصية له، وكان يجـد أنَّ مـن حقـه أن ينتقـدني فيمـا أكتـب ويناقشـني فيـه ويغضـب مـني ويغضـب لي، ولكـنَّ «حسـين توفيـق» لـم يكـن يمثـل أمامـي شـخصه فقـط، بـل كان يمثـل جيـلًا كامـلًا أنتمي إليـه، ويعـاني مثـل مـا أعانيـه مـن حـيرة وكبـت، جيـلا يحقـد عـلى التاريـخ لأنـه لـم يعـش فيـه، ويحقـد عـلى الحـاضر لأنَّـه لا يؤمـن بـه، ويحقـد عـلى المسـتقبل لأنَّـه لا يسـتطيع أن يطمـئن إليـه، جيـلًا ينظـر إلى زعمـاء بلـده فـلا يجـد خيطًـا واحـدًا يصـل بينـه وبينهـم، أو بينـه وبـين واحـد منهـم، ويحـاول أن يسـمع في أقوالهـم أو يـرى في أعمالهـم صـدى لآرائـه وترجمـة لعاطفتـه فـلا يسـمع ولا يـرى شـيئًا يقربـه».

تذكـر وجـه «إحسـان» الهـادئ الخجـول وهـو يُطمئنـه بأنـه آمـن مـا دام معـه، وقـال لنفسـه إنَّـه رفـض المُكافـأة المرصـودة للإبـلاغ عنـه، ثُـم تذكـر الضابـط «محمـود مـوسى» الـذي رافقـه مـن مخبـأ إلى مخبـأ، قبـل أن يفتـح لـه بـاب القفـص ليطـير بعيـدًا عـن مُطارديـه. حـاول إيجـاد ملامـح شـبه بينـه وبـين ذلـك الضابـط الواقـف أمامـه، لكـن البـون كان شاسـعًا، فـ«محمـود مـوسى» كان بـاردا كقاتـل مُحـترف، صلبًـا كصخـر، لديـه عينـان نفاذتـان، بينمـا الضابـط الواقـف يبـدو طيبًـا، مُطيعًـا. سـأله عـن ترتيبـات الخـروج فأخـبره أنَّـه سـيحل ضيفًـا عـلى مديـر مكتـب الاتصـال العسـكري في فنـدق فخـم بالعاصمـة، قبـل أن يصحبـه مـع زوجتـه إلى القاهـرة. سـأله عـن «عبدالقـادر عامـر»، فقـال الضابـط إنَّـه

علـم بحكايتـه مـن مديـر السـجن، وأنَّـه سـيعد تقريـرًا عنـه لـكي يشـمله الإفـراج ليلحـق بهـم في أقـرب وقـت.

في الصبـاح ودّع «حسـين» زميلـه بوجـه بشـوش، مُطمئنًـا بأنـه سـيخرجه خـلال أيـام، ورافـق ضابـط الاتصـال العسـكري، الـذي كان يُناديـه باسـمه مصحوبًـا بلقـب أسـتاذ، قبـل أن يجـد نفسـه خـارج بوابـات السـجن أمـام زوجتـه الوفيـة، الـتي انتابهـا بُـكاء هيسـتيري وهـي تحتضنـه غـير مُصدقـة. اسـتمتعت عينـاه بمُتابعـة الطريـق الخـاوي مـن المـارة، قبـل أن تقـترب السـيارة مـن ضواحـي دمشـق. راجـع بذاكرتـه مشـاهد القبـاب والمـآذن والبنايـات القديمـة والشـوارع الضيّقـة، وتذكـر جلسـات المقاهـي، وفناجـين الشـاي، وأوراق التبـغ. مـرّت برأسـه رائحـة البـارود وُدخـان القنابـل، وهـو يعـبر إلى جـوار مبـنى القُنصليـة الأمريكيـة، واسـتعاد لقـاءه بـ»هـاني الهنـدي» و«جهـاد ضاحـي»، قبـل أن تلـوح لـه صـورة «نـوار» في زي ضابـط بوليـس إنجليـزي. لمـح شـارع الحـدث الأخـير ليقـول لنفسـه: هُنـا أطلقنـا الرصـاص عـلى «أديـب الشيشـكلي» لنمنـع صعـوده إلى كـرسي الحُكـم، لكنَّـه صعـد، والآن أتنفـس أنـا الحريـة، بينمـا يتخفـى هـو في منفـاه بالبرازيـل كجـروٍ هـارب.

شـبكت «سُـعاد» أصابعهـا بأصابعـه، ورغـم دفئهـا فإنَّـه لـم يحـس نعومـة جلدهـا، لأنَّ عقلـه وقلبـه ومشـاعره كانـوا مُتعلقـين بمشـهد دخولـه إلى القاهـرة كبطـل مُنتـصر. تسـاءل إن كان النـاس سـيقيمون الزينـات لاسـتقباله، وهـل سـينتظره «جمـال عبدالنـاصر»، و«عبدالحكيم عامـر»، و«السـادات» فى مطـار القاهـرة؟ هـل سـيطلقون اسـمه عـلى أحـد الشـوارع أو الميادیـن الرئيسـية؟ هـل سـتحضنه أمـه وتُخـبره بـأنَّ أبـاه مـات وهـو فخـور بـه؟ وهـل سـيجد «سـناء» في انتظـاره تبـكي ندمًـا وتطلـب الغفـران؟ ثُـم هـل سـيعرفه ابنـه الوحيـد؟

التفـت إلى زوجتـه وسـألها إن كان عليهمـا شراء لعـب أطفـال وملابـس لخالـد قبـل السـفر، لكنَّهـا لـم تـرُد. سـكتت طويـلًا قبـل أن تسـأله عـن

موعـد الإفـراج عـن «عبدالقـادر»، ليهـز رأسـه مُـرددا: قريبًـا. أشـعل سـيجارة ونفـثّ منهـا دُخانًـا طويـلًا وقـال لهـا:

ـــ كل مـا أخشـاه يـا سُـعاد أن يتأثـر خالـد بتربيـة أمـي. آمـل ألا تكـون قد زرعـت فيـه حُـب الأتراك.

هزَّت رأسها دون كلام، فاستطرد قائلًا:

ـــ لكـن. هـل تعرفـين. إنَّ سـعيد لـن يترُكـه. سـعيد ليـس أخـي، إنَّـه ابـني، وسـيعرف كيـف يـزرع في خالـد الشـجاعة والجـرأة والقـوة.

ـ سعيد يحبك بشدة.

ـــ أشـتاق لـه، ولمدحـت وابراهيـم كامـل، ولبيتنـا. أشـتاق لمـصر وشـوارعها وحواريهـا وناسـها. لكـن هـل تعرفـين يـا سـعاد كلي شـوق لخالـد. لقـد كنـت أنتـوي تسـميته عبدالقـادر، وكنـت سـأعلمه السـباحة في سـن الرابعـة، وسـأجعله يركـب خلفـي عـلى الحُصـان و...

لم يكمل بعد أن قاطعته «سُعاد» بحدّة وهي تقول:

ـ كفى يا حسين. كفى.

أنكر صوتها، ومنحها نظرة استفسار قبل أن يصيح سائلًا:

ـ ماذا جرى يا سُعاد؟

قرأ في عينيها نظرة تحسر قبل أن تستجمع شجاعتها وتقول:

ـــ خالـد مـات. مـات يـا حسـين. مـات مُنـذ سـنوات بعـد أن أصابـه مـرض عصـبي غريـب.

أسـكتته الصدمـة، وعـاد ظـلام الزنزانـة يـتراءى أمامـه، وضغطـت أصابعـه بحـدَّة عـلى السـيجارة ليطفئهـا بـين راحتيـه، مانحًـا العالـم زفـرة احتجـاج وغضـب.

***

تغيرت البلاد ومَن عليها. صارت الشوارع أكثر ازدحامًا، وبدا الجد والحيوية ناضرًا على وجوه الناس، وتعرَّت الرؤوس من طرابيش كانت يومًا دليل هيبة واحترام. رأى «حسين» مقاهى وسط البلد تتسع لشباب يافع ببذلات أكثر أناقة، ولمعت أحذية الجالسين وهم يُدخنون ويثرثرون في اهتمام، بينما ازدان كثير من المحلات التُجارية بصور الزعيم «جمال عبدالناصر»، وصار من المعتاد أن يجتمع الناس حول الراديو لسماع خطاباته. شاهد الترام غاصًا بالركاب والموظفين الذين تم تعيينهم في عشرات المصالح والهيئات الحكومية، وندرت وجوه الأجانب رويدًا في المطاعم والبارات وعلى المقاهي، في حين أغلقت معظم محلات اليهود أبوابها بعد هجرة أصحابها إلى الخارج. كما اختفت من جُدران الشوارع الرئيسية ملصقات وأسماء الأحزاب، ومُحيت شعارات حركة «مصر الفتاة» والإخوان المسلمين في الوقت الذي تقاطعت فيه اللافتات القماشية تلهج بالتأييد والثناء للزعيم العظيم وقائد حرب بورسعيد المجيدة.

استعاد «حسين» روحه الفُكاهية وهو يجلس بجروبي مع «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر عامر» يتحدثون ويُدخنون. كان «حسين» قد تعرض لصدمة قاسية عندما وصل إلى القاهرة والتقى مُدير مكتب المشير «عبدالحكيم عامر»، حيث فوجئ بهم يُعينونه موظفًا بشركة شِل للبترول براتب ثمانين جُنيها. اندهش «حسين» أن تكون مكافأته التي قدمها له الرجل الثاني في مصر هي تعيينه موظفًا صغيرًا في شركة بترول، بدعوى عدم حصوله على شهادة جامعية، في الوقت الذي وضعت فيه أراضي والدته تحت الحراسة. أبدى انزعاجًا من القرار، لكنَّ مدير مكتب المشير أنبأه أنَّ قرار تعيينه في الشركة لم يكُن مقبولًا لولا تدخل المشير شخصيًا خاصة أنَّه ليس لديه شهادة جامعية. كما شمل قرار التعيين زميله «عبدالقادر عامر»، الذي وصل إلى القاهرة بعد أسبوع واحد من عودته، لكنَّه اختار أن يكون عمله بالإسكندرية إلى جوار أسرته.

قال «حسين» لجلسائه في سُخرية:

ــ إن عبدالناصر ضحك على الجميع. خدع الناس بوظائف وأراضٍ ومناصب وأحكم قبضته على البلاد شرقًا وغربًا، فصار الحاكم الأوحد، وقدّم نفسه كزعيم عظيم.

نظر «مدحت» يمينًا ويسارًا، ثُم قال:

ــ لكن لا تنس أنَّه حقق الجلاء، وألغى الأحزاب، والألقاب، وانتصر على ثلاث دول في بورسعيد.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، وقال مُفنّدًا:

ــ أي جلاء ذلك الذي حققه، وكان الثمن ضياع السودان وانفصالها عن مصر. ثُم مَن قال لكم إنَّه ألغى الألقاب، لقد ألغى لقبًا، ليستبدل بدلا منه عدة ألقاب. كُل واحد من أعضاء مجلس الثورة صار باشا بل أعظم من الباشا. أما الأحزاب فقد أعدمها تمامًا ليس من أجل مصر، وإنما من أجل نفسه، حتى لا يصبح له بديل. وما تقوله عن العدوان الثلاثي نكتة «بايخة»، لأنني أعرف منذ كنت في دمشق كيف كانت الهزيمة ثقيلة على مصر، وأنَّه لولا تدخل أمريكا مباشرة لما انسحبت قوات العدوان. إنَّ عبدالناصر هذا عميل أمريكي مُستتر.هو ممثل فاشل، وسيقود البلاد نحو الخراب.

بدا «عبدالقادر» مُتفقًا مع «حسين» فيما يقوله عندما تدخل شارحًا:

ــ لقد نحى نظام عبدالناصر الثوار القدامى لصالح رجاله وخدمه. وها نحن نعمل ولا نعمل. مجرد موظفين بالاسم في شركة كُبرى، لكنَّنا نجلس على المقاهي كل يوم، لأنَّه مطلوب منا أن نسكت صونًا لأكل العيش. حسين معه كُل الحق.

ــ ألم تتسلم عملك بعد بالاسكندرية؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالقادر»:

ــ قالـوا لي أنـت مُعـين ولـك راتـب شـهري، لكـن لـم يطلبـوا مـني انتظامـا أو يعهـدوا إليّ بـأي مهـام. ألـم أقـل لـك يـا حسـين إنهـا رشـوة.

ردّ «حسين» بحنق:

ــ ليسـت رشـوة. إنَّهـا أقـل مـن حقنـا عـلى هـذا البلـد وعـلى هـؤلاء الانتهازيـين. لقـد اختطفـوا الحُكـم منـا. تركونـا ندفـع الثمـن، وحـازوا هُـم السـلطة.

ثُم رمى «سعيد» بنظرة ذات مغزى مُضيفًا:

ــ ألـم يُعينـوا إبراهيـم كامـل في وزارة الخارجيـة. وعيَّنـوا سـيد في هيئـة الاسـتعلامات. أمـا أنـا وأنـت وعبدالقـادر فألقـوا بنـا في شركـة بـترول حكوميـة. إنَّهـم يقصـدون ذلـك. هـل تعرفـون أيـن تـم تعيـين عبدالرحمن السـندي قائـد الجهـاز السـري للإخـوان المسـلمين؟ لقـد عينـه عبدالنـاصر في هيئـة قنـاة السـويس لأنَّـه كان صديقـه وقاتلـه السـري.

نظـر «مدحـت» إلى الخـارج، مُتابعًـا سـير السـيارات بشـارع 26 يوليـو، الـذي مـازال النـاس يطلقـون عليـه اسـم شـارع فـؤاد، وتذكـر كيـف سـافر شـقيقه «نجيـب» إلى أوروبـا ليسـتكمل دراسـته، بعـد أن تـزوج «سـناء» شـقيقة «محمـود مـراد» ثُـم غـاب رويـدًا حـتى صـار كغريـب أو خواجـة. تذكـر أيضـا كيـف اعتزلهـم «محمـود مـراد» تمامًـا، ثُـم تـزوَّج وسـافر للعمـل في الصعيـد. قـال «مدحـت» لـ«حسـين»:

ــ أنـت مُحـق يـا حسـين. لقـد أخـصى نظـام عبدالنـاصر جيـل الشـباب كُلـه، إمـا بالوظيفـة أو بالسـجن مثلمـا جـرى مـع الإخـوان والشـيوعيين والوفديـين. وهـا هـي السـودان ضاعـت، وقبلهـا فلسـطين، ورغـم الهزائـم أصبـح عبدالنـاصر هـو الزعيـم المحبـوب، والبطـل العظيـم.

نظر «حسين» إلى جُلسائه باهتمام، قبل أن يقول هامسًا:

ــ هل تعتقدون أننا قادرون على العودة للعمل الفدائي؟

ترقـب المُحيطـين بـه، ورمـى نظـرات مُتشـككة نحـو رواد «جـروبي» ثُـم

تابع ردود أفعال أصدقائه، فلمح قلقًا بالغًا على وجوههم.

قال «مدحت» بعد لحظات من الصمت:

ــ للأسف يا حسين هذا مستحيل. محجوب وعمر وعبدالعزيز والشافعي وجميع أفراد شلة الهندسة انسحبوا تماما واعتزلوا السياسة، معتبرين أن الثورة حققت آمالهم، وها هو نجيب وسيد سافرا للخارج، ومحمود مراد هجرنا إلى الأبد. ومحمد إبراهيم كامل أصبح جُزءا من النظام، ولا أحد سوانا نحن الثلاثة.

ــ أربعة.

علّق «عبدالقادر»، فهزَّ «مدحت» رأسه قائلًا:

ــ أربعة.

لكن «عبدالقادر» أضاف سائلًا «حسين»:

ــ والحاج محمد؟ السادات يا حسين؟

ابتسم «حسين» ساخرًا قبل أن يقول:

ــ هذا الرجل فاق الجميع. لقد حاولت لقاءه، وفشلت. هل تتخيلون أن يبعث لي السادات مدير مكتبه ليسألنى حاجتي. تصوروا. هل يعتقد هذا الانتهازي المغرور أنَّني أتسول منه؟

وأضاف بنبرة حُزن:

ــ لقد اشتهر على حسابنا. أكل عيش على قفانا.

وضحك في سخرية، ليضحكوا معه.

***

«عزيزي إبراهيم كامل..

أكتب لك بعد شهور طويلة من عودتي إلى القاهرة التي كُنت أعتقد

أنَّـني لـن أراهـا مـرة أخـرى. جميـع الصحـاب تفرَّقـوا، وأشـعر بوحشـة شـديدة، بعـد أن مُحيـت أعمالنـا ونُسـبت كل البطـولات لضبـاط الحركـة المُباركـة وحدهـم. هُـم يقولـون الآن أنَّهـم قاومـوا الإنجليـز، ونظمـوا حـرب الفدائيـين في القنـاة، وأنَّ الإخـوان والشـيوعيين ورجـال العمـل الـسري كانـوا مُتفرجـين. إنَّهـم لا يُريـدون لأي صـوت أن يعلـو فـوق صـوت خطيبهـم المفـوّه الـذي مـلأ الدُنيـا صياحًـا، ولا يقبلـون لصـورة شـخص أن تصعـد إلى جـواره. هـو البطـل الأوحـد، والشـجاع الأول، والقائـد المُلهـم، والزعيـم العبقـري. هـو رسـول الفقـراء، ونـبي العُروبـة، وصـلاح الديـن العـصر الحديـث.

لقـد وُضعـت أراضينـا جميعًـا تحـت الحراسـة، ووزَّع «عبدالنـاصر» مـا لا يملـك عـلى مَـن لا يسـتحق، ومنـح رجالـه قصـور الباشـاوات وفيلاتهـم شرقًـا وغربًـا ليحـوز ولاءهـم، بعـد أن طـرد الثـوار الحقيقيـين بعيـدًا عـن مـصر، واشـترى صمـت الآخريـن بثمـنٍ بخـس. إنَّـني لا أزال أتلمَّـس فيـك الأمـل وأحسـن بـك الظـن باعتبـارك الأكـثر إخلاصا ووفـاء بـين أصحـاب الطفولـة والصبـا. أنـا عـلى يقـين أنـك لسـت ممَـن تـم شراء سـكوتهم، لأنَّ رجـلًا بفكـرك، ووطنيتـك، وشـجاعتك، وجرأتـك لا يقبـل أن يعمـل تحـت إمـرة انتهـازي، ومُخـادع، وتاجـر كلام مثـل «عبدالنـاصر». سـأنتظر لقاءنـا فـور زيارتـك القادمـة لمـصر، الـتي أعلـم أنهـا سـتكون قريبًـا. ولـك خالـص المحبـة.

أخوك: حسين».

طـوى «محمـد إبراهيـم كامـل» خطـاب ابـن خالتـه، وقـام إلى المطبـخ ليشـعل عـود كبريـت في الخطـاب الـذي وصلـه في الصبـاح على مقـر عملـه بالسـفارة المصريـة في لنـدن. كان يعتقـد أنَّ الخطـاب المُرسـل قـد يكـون فخًـا لـه للإيقـاع بـه مـن خصومـه وحُسـاده في وزارة الخارجيـة، الذيـن اعتـبروه دخيـلًا عـلى العمـل الدبلومـاسي بسـبب صلاتـه وعلاقاتـه ببعـض أصحـاب النفـوذ في النظـام القائـم. تذكـر «إبراهيـم» لقـاءه قبـل تعيينـه

في الـوزارة بـ«جمـال عبدالنـاصر»، الـذي صارحـه خلالـه بـأنَّ البعـض وشى بـه مُدعيًـا قيامـه بوضـع خطـة لقتـل الرئيـس، وهـو مـا دفعـه أن يقسـم للرئيـس عـدة مـرات بأنَّـه ابـن بـار للثـورة. قـال إنَّـه عـلى اسـتعداد للعمـل في أي موقـع يخـدم بـه الثـورة، ويخـدم بـه «جمـال عبدالنـاصر»، لكنَّـه يُفضـل العمـل الدبلومـاسي خاصـة لاسـتثمار إتقانـه للغـة الإنجليزيـة وأصـول الإيتيكيـت في خدمـة بـلاده، وعـلى الفـور أصـدر الرئيـس قـرارًا بإلحاقـه بسـفارة مـصر في لنـدن. «بريطانيـا؟» قالهـا وقتهـا مُمتعضًـا مُتذكـرًا أنـه شـارك في إشـعال النـار في معسـكرات الجيـش البريطـاني وفي الاعتـداء عـلى جنـوده في الشـوارع والطرقـات، لكنَّـه في النهايـة امتثـل لإرادة «عبدالنـاصر» في وضعـه في موقـف المواجهـة اليوميـة المُبـاشرة مـع أعـداء الأمـس. فكَّـر للحظـات أنَّ خطـاب «حسـين» لـه قـد يكـون قـد وقـع في أيـدي المُخابـرات، وأنَّ عليـه إثبـات حُسـن نوايـاه وولائـه التـام أمـام الأجهـزة الـتي يعلـم أنَّهـا تـرى أكـثر ممـا ينبغـي، وتتنصـت عـلى الشـاردة والـواردة، وتعـد تقاريـر يوميـة عـن الـكل بـلا اسـتثناء، لـذا فقـد قـرر أن يـرُد عـلى خطـاب «حسـين» بحـدّة تُناسـب قـراره بحـرق مراكـب المـاضي تمامًـا. جلـس عـلى أريكـة وثـيرة تتوسـط صالـة منزلـه، وأمسـك بورقـة وقلـم وكتـب بخـطٍ مُتأنـق:

«أخي العزيز حسين..

حمـدًا للـه عـلى سـلامتك وعودتـك لأرض الوطـن، وشـكرًا للـه عـلى اهتمـام الدولـة بتوظيفـك براتـب مناسـب في شركـة كـبرى. إنَّـك لاشـك تسـتحق كُل خـير، لـذا فقـد سـخر لـك اللـه رجـالًا مُخلصـين ليسـعوا لـدى الحكومـة السـورية للإفـراج عـن واحـد مـن الأبطـال والرمـوز الوطنيـة بعـد أن تـسرب اليـأس إلينـا جميعـا بأنَّنـا لـن نـراك مـرة أخـرى.

تُحزنـني أيهـا الأخ العزيـز تلـك النـبرة السـوداوية في خطابـك بشـأن العهـد الجديـد، والحركـة المباركـة، وأتعجـب كيـف لا تجـد لديـك احتفـاء بمـا جـرى ومـا يجـري. ألـم تكـن تلـك آمالنـا وأحلامنـا معـا؟ أن نطـرد

الإنجليز خارج البلاد، ونشعل النار في الأحزاب القديمة، ونقضي على الإقطاع، ونعيد للفقراء وأبناء البلد حقوقهم المنهوبة؟ ألم نعمل معًا على صون كرامة المصريين، ورد العزة والكبرياء لهم؟ إنني أتصور أنَّ ذلك هو ما حققه «جمال عبدالناصر» ورجاله، الذين خرجوا يحملون أرواحهم على أكفهم ليلة 23 يوليو لإحداث تغيير جذري في البلاد، وإصلاح الأحوال، فلهم كل الشُكر والامتنان على تضحياتهم وجهدهم الذي كان دائمًا جُهدًا مستترًا.

إنني أعرف أنَّ المحنة القاسية التي تعرَّضت لها أثرت على رؤيتك للأشخاص وتقديرك للأحداث، لذا سأذكرك. هل نسيت يا «حسين» إعجابك الشديد بأفكار وآمال «أنور السادات» عندما التقيته لأول مرة وحدثتنا عنه وعن جرأته وذكائه وطموحاته الواسعة؟ إنَّه واحد من هؤلاء الذين تظنهم انتزعوا البطولات، ولا يريدون لأحد أن يُذكر إلى جوارهم.

لقد جانبك الصواب يا صديقي وابن خالتي عندما تصورت أن «جمال عبدالناصر» يتاجر بالكلام، إنَّه يحترق كُل يوم من أجل الناس، يصحو مُبكرًا وينام مُتأخرًا، ويعيش كموظف متوسط الحال، يأكل مما يأكله البسطاء ويلبس ملابس صُنعت في بلاده. «عبدالناصر» ليس كما تظُنّ أو يُهيأ لك ولولا هيبته وقوته لما تم الإفراج عنك من محبسك بسوريا. لقد رسم لنا الرجل طريقًا جديدًا للصعود وللبناء وآمل ألا يخونك تقديرك، فتصبح حجر عثرة في الطريق.

والله أسأله أن يُلهمك الصواب، ويُيسر لك طريق الخير. والسلام ختام.

محمد إبراهيم كامل

لندن. أبريل 1959»

***

استردت «سُعاد» تصالحها مع الأيام بعد شهور قليلة من الاستقرار في القاهرة، ورغم قسوة وبرود حماتها في التعامل معها، فإنَّها صنعت لنفسها عالمها الأسعد، خاصة بعد أن أنجبت فتاة جميلة تُشبهها، أطلقت عليها اسم كوثر. رأت «سعاد» في القاهرة وأحيائها القديمة، وشوارعها، ومطاعمها، ودور السينما فيها انتعاشًا روحيًا غطى على انقطاع أخبار شقيقها تمامًا. كما أنَّ اتصالاتها الدائمة، وزياراتها المتكررة لشقيقتها «فاطمة» في الإسكندرية أزاحت أستار الغُربة عن حياتها. لم تعُد تشعر أنَّ مصر ليست بلدها، خاصة بعد أن صارت القاهرة ودمشق مدينتين في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة، ورغم عدم رضا زوجها عن اتحاد الإقليمين الشمالي والجنوبي وإلغاء التأشيرات بينهما، فإنَّها كانت تعتقد أنه سيعتاد ذلك بحلول الوقت، وسيحب الزعيم «جمال عبدالناصر» مثلها، الذي لم تر منه ما يُزعجها.

لقد سألت يومًا زوجها عما يأخذه على «عبدالناصر» بخلاف مصادرة أراضي والدته، فقال لها بحدّة إنَّه أداة للدول الكبرى يلعبون به كلما أرادوا. ثُم أسرَ لها بأنَّه لولا أمريكا لما صار «عبدالناصر» حاكمًا على مصر. قالت «سُعاد» ردًا على كلام زوجها الذي بدا غير مقنع:

ـــ إنني لا أظن أبدًا أنَّ هذا الرجل عميل لأحد. أنا أعرف العملاء جيدا. أولًا هو لا يُشبه حُسني الزعيم في شيء، ولم يبدر منه ما يُشير إلى أنه قريب الشبه بأديب الشيشكلي. الناس عندكم يحبونه وأتصور أنهم على حق، فهو بليغ ومُقنع عندما يتحدث، وهو قادر على التأثير في الآخرين، وله عينان تشعان طموحًا.

بدا «حسين» عصبيًا وهو يرد:

ـــ أنت لا تعرفين شيئًا. إنَّه أكثر شراسة واستبدادًا من أديب الشيشكلي، وأشدّ حمقًا من حُسني الزعيم. لقد فصل مصر عن السودان ليمد عُرى الوحدة إلى بلادكم، رغم أنَّه لا توجد حدود

مُشتركة. هـو يتاجـر بـكل شيء، حـتى بالعروبـة، ويبيـع للجماهـير أوهـام البطولـة.

قالت «سعاد» بعد أن شعرت بتوتره:

ــ حسين. أرجـوك انـس السياسـة وتفـرغ لبيتنـا. كفـى مـا جـرى. نريـد أن نعتـني بكوثـر ونُعلمهـا تعليمًـا جيـدا، وهـا أنـا حامـل وآمـل أن أنجـب لـك ولـدًا يشـبهك.

هزَّ رأسه في برود وقال لها:

ــ يـا سـعاد قلـت لـك مـرارًا. السياسـة هـي أنـا. حيـاتي. رأسي. فكـري. عائلـتي. كُل مـا لـه علاقـة بالوطـن مغـروس في قلـبي وروحـي ولا أسـتطيع أن أتخلـص منـه. لقـد تزوجنـا وأنـت تعلمـين أنَّـني هـارب مـن قضيـة سياسـية، وعشـنا معًـا وأنـا منخـرط في تنظيـم سـياسي، وحوكمـت وسـجنت ومازلـت أعمـل بالسياسـة.

ــ نعـم. لكنـني تعذَّبـت بغيابـك في السـجن. قُتلـت قتـلًا عندمـا انتزعـوا حبيـبي مـن أمامـي لأنتظـر سـبع سـنوات كي يجمعنـا بيـت مـرة أخـرى. أنـا بدونـك لا شيء، وبنتـك بدونـك لا شيء، وابننـا القـادم كذلـك. أريـد أن أعيـش في سـلام وأمـن مثلمـا يعيـش النـاس. أريـد أن أنـام دون قلـق، أمسـك كفـك في اطمئنـان، أريـح رأسي فـوق كتفـك، أسـير إلى جـوارك في الطريـق دون خـوف.

بـدا الامتعـاض عـلى وجهـه، وقـام مُنزعجًـا وهـو يهمـس في لامبـالاة وغضـب مصطنـع:

ــ إذن ابحثي لك عن رجل آخر.

كان «حسـين» مُسـتنفرًا بعـد أن صدمـه خطـاب «محمـد إبراهيـم كامل» المُعاتـب، وقـال لنفسـه إنَّ تلميـذ الأمـس يحسـب أنَّـه صـار مُعلمًـا. باعـه واتهمـه بقصـور الفهـم ونكـران الجميـل، بعـد أن كان يسـير وراءه دون مناقشـة. تغـيَّر الزمـن وانقلـب الأتبـاع إلى أصحـاب رأي، وصـار الصغـار

كُبارًا، وها هو بات شخصًا جانبه الصواب، وحاد عن طريق الثوار. تذكر «محمود يحيى مراد»، وكيف كان دخوله للتنظيم بداية حقيقية للتوسع، ومرَّ بذهنه كيف أطاحوا بـ«عبدالهادي أفندي»، وكيف راوغا مفتش الأمن ومخبري المعادي، كيف خططا معًا، وفكرا معًا، ونفذا معًا أعمال الخطر. شعر بوحشة غريبة لابتعاده، ثُم تذكر فجأة «عبدالقادر عامر»، وقال لنفسه إنَّه لم يره مُنذ فترة طويلة. نظر بعينين ماكرتين نحو زوجته، وقال لها في هدوء:

ــ عُذرا عزيزتي. أنا متوتر، ولكن لا تناقشيني في السياسة مرة أخرى فما أعرفه لا تعرفينه. عموما من الممكن أن نقضي يومين إجازة في الإسكندرية. هل تودين أن تزوري فاطمة؟

ابتسمت ومسحت نصف دمعة منزلقة على خدها وهزَّت رأسها موافقة.

***

في الصحراء أمام الهرم الأكبر التقيا، «حسين» و«محمود موسى»، بعد غياب طال عشر سنوات. كان «حسين» قد اتصل بالضابط السابق ليسمع صوت زوجته «ميمي» تسأل في اهتمام عمن يريد زوجها لتسمع آخر اسم تتوقعه في الوجود وتصمت على إثره لحظات قبل أن تسأله عن أحواله وزوجته وأبنائه، ثُم تنادي له زوجها.

رأى «حسين» نفس الوجه الذي ودّعه في الميناء بعد أن أقله في الماضي من مخبأ إلى آخر، بنفس البرود، وذات النظرات الفاحصة المُدققة، والابتسامة المطبوعة على شفتين صغيرتين، بينما بدا رأسه أكبر قليلًا وقد ارتد شعره إلى الوراء مُستجيبًا للزمن. ونظر «محمود» إلى وجه «حسين» ليقرأ فيه عجلات الزمن، وآثار المحن، ولمح في عينيه ذات النظرات اللامبالية التي تهتف كُل لحظة أنَّ صاحبها لا

يعرف الخوف، وبدا جسد «حسين» مُمتلئًا عند البطن، بينما منحه شاربه المفتول مظهر الجدية والصرامة. تذكر الضابط السابق ذلك الولد المُضطرب، المُندفع الذي كان واقفًا أمامه لا يعي شيئًا قبل عقد من الزمان، كيف تبدل به الحال ليبدو كزعيم سياسي مُحنّك! وكيف تحولت هيئة الشاب المتدفق حماسًا وتطرفًا إلى هيئة قائد مُخضرم قادر على الحفاظ على ثباته الانفعالي في كُل موقف وحين!

صافحه، وسار إلى جواره فوق رمال صفراء هادئة بعيدًا عن الناس ليتناجيا في سلام، ويتناقشا في اطمئنان. قال «حسين» وهو يضع يُمناه في جيبه:

ـ أوحشتني يا رجل. بانت عليك السن. كبرت يا حضرة البكباشي.

ابتسم «محمود»، ورفع حاجبيه اعتراضًا وقال:

ـ انتهت هذه الألقاب الآن. لقد خرجت من البوليس عميدًا. والآن أقضي معظم الوقت في النادي أو في سهرات الأصحاب نلعب ونشرب.

ثُم أضاف وهو يهزُّ رأسه:

ـ تعرف يا حسين. الزمن لم يعُد لنا. الثورة قامت، والملك خرج، والأحزاب انتهت، وحتى النحاس باشا صار مُنعزلًا عن الجميع، تغير كُل شيء. يا حسين لم يعد لائقًا أن نبقى في أماكننا خاصة أنهم اعتبرونا مع الملك.

ـ تمام.

قالها «حسين»، وهو يُزيح بحذائه زلطة صغيرة بدت بارزة على الطريق الرملي، ثُم قال:

ـ لكن ألا تعمل الآن؟

ضحك «محمود» وقال:

ـ كيف أعمل؟ وماذا أعمل؟ لقد خرجت إلى المعاش. والحمد لله، لم أتهم في شيء مثلما جرى الحال مع محمد وصفي والجزار.

ـ وإبراهيم إمام؟

ــ إبراهيـم إمـام لا يريـد أن يطـل. كـبُر وزهـد في كُل شيء. لقـد اعـتزل تمامـا، وابتعـد عـن الجميـع، وقابلتـه قبـل سـنوات فقـال لي إنَّـه يسـتمتع بتأمـل الكـون والنـاس والأحـداث.

ـ ولا شيء آخر؟

ـ نعم. لا شيء آخر.

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ أتمنى أن أراه.

ـ لا تفعل. هو لن يُرحب.

أخـرج «حسـين» سـجائره، وقـدَّم واحـدة للعميـد «محمـود مـوسى»، لكنَّـه اعتـذر قائـلًا:

ـ أقلعت عن الدُخان تمامًا. أما الشراب فمازلت أشرب قليلًا.

ـ والنساء؟

ضحك «محمود» قائلًا:

ـ تعرف يا حسين. أنا زوج مثالي وأب طيب.

ـ عظيم. عظيم.

مشـيا ببـطء يتنسـمان هـواءً مُنعشًـا، وأشـعل «حسـين» سـيجارته، رانيًـا نحـو السـماء الواسـعة، ليسـمع السـؤال المُنتظـر مـن رفيقـه:

ـ قُل لي يا حسين. ما الذي دفعك لطلب لقائي؟ لعلَّ الأمر خير.

ــ نعـم. كُل خـير. أنـت تعـرف أنـني أثـق بـك كثـيرًا. لقـد سـاعدتني مـن قبـل وأمنتـني رغـم أنَّـه كان يمكنـك أن تقبـض عـليّ وتحصـل عـلى المكافـأة المرصـودة وهـي بالطبـع أعـلى كثـيرًا مـن مكافـأة نهايـة الخدمـة، وكانـت سـتضمن لـك حيـاة رغـدة.

ابتسم «محمود»، وقال بنبرة صدق:

ـ لا تظن أنَّني فعلت ذلك من أجلك.

وقف حسين فجأة مُستفهمًا، فأردف مُحدثه قائلًا:

ـ كانت أوامر. وأنا مخلص لرؤسائي.

سكت «حسين»، وكأنَّما أنكر ما سمعه. كان يعلم من قبل أنَّ مساعدته على الهرب لم تكن لوجه الوطن. كانت هُناك أغراض وأهداف لم يفهمها حينها، وها هي تنفتح نوافذها أمامه بعد ردحٍ من الزمن.

سأله «محمود» مرة أخرى:

ـ ها، ما الذي تُريده مني؟

نفث «حسين» دُخان سيجارته بعصبية بادية، وقال:

ـ عظيم. سأصارحك. أنا أخطط للثورة على عبدالناصر.

سكت «محمود موسى» للحظات قبل أن ينفجر ضاحكًا بصوتٍ عال، أثار حنق «حسين» الذي وقف عن السير فجأة، ونظر بغضب سائلًا:

ـ ما الذي يُضحكك؟

واصل «محمود» ضحكه المُتقطّع، وهو يقول:

ـ ما قلته.

وقال بعد أن توقفت نوبة الضحك:

ـ هل جُننت يا حسين؟ هل أصابتك لوثة؟ الآن لا أحد يستطيع الثورة على عبدالناصر. لو قلت لي ذلك في 54 أو حتى 56 لقلت أنَّه ممكن. لكن الآن سيطر الرجل على البلد تمامًا. وما أريد أن أقوله لك هو أنَّه لا بديل له سوى الجيش، وصاحبه هو المُسيطر عليه، ولا يُمكن أن يخذله. لقد حاول مَن هُم أقوى منك وأكثر إمكانيات وأوسع انتشارًا، وها هم الآن موزعون على سجون مصر، البعض في السجن الحربي والبعض الآخر في طرة والواحات.

ـ تقصد الإخوان؟

ـــ نعـم. لا توجـد قـوى مُسـلَّحة في مـصر سـواهم. وأعتقـد أنَّ كوادرهم سُحقت تمامًـا في 54 بعـد حـادث المنشـية.

هزَّ «حسين» رأسه مُفكرًا، وقال:

ـ دعك من الثورة عليه. لكنني أستطيع أن أقتله.

ـــ لا أعـرف. لكـنَّ قتلـه لـن يـؤدي إلى تغيـير. لا تظُـن أن مـصر مثـل سـوريا. مَـن يقتـل أحـدًا يـأتي مكانـه، لـو قُتـل عبدالنـاصر فـإن مَـن سيتولى الرئاسـة هـو الشـخص الأقـوى، وهـو في الغالـب سيادة المشـير عبدالحكيـم عامـر.

تذكـر «حسـين» مـا فعلـه المشـير مـن أجلـه، وكيـف حـرره، وتدخـل لتوظيفـه، فقـال:

ـ إنه بلا شك أفضل، وأوضح، ولا يعرف اللف والدوران.

ـ تمام. هل معك رجال؟

هزَّ «حسين» رأسه هامسًا:

ـ طبعًا.

ـ وسلاح؟

ردَّ «حسين» قائلًا:

ـ هذا ما أريده منك.

ـــ لـم أعـد عـلى اتصـال بأحـد، لكـن عـلى أي حـال يمكنـك شراء أسـلحة بسـهولة مـا دام لديـك أمـوال كافيـة. في الإسـكندرية هُنـاك عـدة تجـار معروفـين يجلبـون بنـادق ورشاشـات عـن طريـق ليبيـا.

وأضاف سائلًا:

ـ هل لديك أموال كافية؟

امتعض «حسين» قليلًا، وأجاب:

ـــ سـأُجهز مبلغًـا مناسـبًا خـلال سـتة شـهور، لكـني أريـد أن أسـألك بوضــوح إن كان لي أن أثــق فيــك أم لا.

ابتسم «محمود» وقال:

ـــ بكل صراحـة لا أعتقـد. ابحـث عـن غيري. مـن أجل اعـتزازك بي وحُسـن ظنـك، سـأعتبر أننـا لـم نلتـق وأنـني لـم أسـمع منـك شـيئًا، وآمـل أن تنجـح فيمـا تُخطـط فيـه.

توقف «حسين» عن السير مادًا يده بالمصافحة، وقال:

ــ شُكرًا على وقتك.

***

نظـرت «سُـعاد» في المـرآة مُراجعــة وجهًـا خاليًـا مــن المســاحيق، وتمتـع بالجمـال الربـاني، مُتناسـية معاملـة حماتهـا البـاردة لهـا، ورميهـا بـين الحـين والحـين كلمـات ذات مغـزى عـن الحـظ والنصيـب والوجـوه المشـئومة الـتي يحـل معهـا الخـراب والفقـر. كانـت والـدة «حسـين» تُلمّـح إلى إنجـاب «سـعاد» بنتـين متتاليتـين بعـد ولـد غـير طبيعـي لـم يُقـدر لـه أن يـرى والـده، فضـلا عـن وضـع أراضي العائلـة تحـت الحراسـة بعـد أن كانـت مـضرب الأمثـال في الـثراء.

مـدّت «سُـعاد» أشـواك المشـط بـين جدائل شـعرها الفحمي المُسترسـل كأنمـا تُلقـي عـن حياتهـا كُل مـا يعكرهـا مـن أحقـاد ونفـور رأتـه طبيعيًـا مـن حمـاة تجـاه زوجـة ابـن غريبـة، مسـتعينة بسـلاح الـبرود واللامبـالاة. قالـت لذاتهـا إنَّهـا لـن تصطـدم بحماتهـا أبـدًا مـا دام «حسـين» موجودًا، خاصـة أنَّهـا تعلـم تمامًـا كيـف تتجنـب السـيدة «سـميرة» إغضابـه. فكـرت أن تجـدد شرود زوجهـا، وانعزالـه النسـبي، قـد يُثير دبيـب القلـق في عودتـه لممارسـة العمـل الـسري مـرة أخـرى، لكنَّهـا اسـتبعدت ذلـك

متوقعة أنَّه لن يقامر بوظيفته الجيدة، وبحياته المستقرة وبلحظات السمر القليلة التي يقضيها مع ابنتيه «كوثر» و«وفاء». طردت وساوس الشيطان، وهي تتذكر أنَّه انقطع عنها في الفراش مُذ أصابته حالة الشرود، وفكَّرت أنَّ ذلك سيأخذ وقته ويمُر مثلما هو الحال مع الرجل الذي اختارته عن رضا تام شريكًا لحياتها.

فكَّرت «سُعاد» أن إصرار «سعيد» و«مدحت» على اصطحابهما مع البنتين لمشاهدة فيلم بالسينما قالا إنَّه يحكي قصة «حسين» أسعدها معتبرة أنَّ الفيلم جاء في موعده ليمنح «حسين» شعورًا بالوفاء من جانب الدولة والمجتمع، ويؤكد أنَّ هناك مَن يُقدرون تضحياته. قالت لنفسها إنَّ مشاهدة الفيلم ستكون فرصة جيدة لـ «حسين» كي يخرج قليلًا من حالة العُزلة التي انغمس فيها مُنذ عدة شهور.

في الطريق إلى السينما، قال «سعيد» موجهًا حديثه للبنتين الصغيرتين:

ـــ ستشاهدان اليوم فيلمًا يحكي قصة بابا مع حُب الوطن. كيف حارب الأعداء بشجاعة وكيف هرب منهم وكيف أحبَّه الناس وكيف صار نموذجًا ومثالًا للشباب.

لم ترد أي من البنتين، لكن «سعاد» قالت:

ـــ ألم يكتب الفيلم إحسان عبدالقدوس. لقد أخبرني حسين كيف كان هذا الصحفي شهمًا ووقف إلى جواره وقت هروبه من الإنجليز.

لم أهرب من الإنجليز أيها الأغبياء. لقد هربت من المصريين. قالها «حسين» في سرّه، وظلَّ مُتدثرًا بالصمت يُتابع حديث العائلة عن بطولاته.

سأل «مدحت» «سُعاد» باسمًا:

ـــ لكن عليك أن تُخبرينا إن كان حسين يُشبه عُمر الشريف بطل

الفيلم أم لا؟

ابتسمت وأجابت:

ـ إنَّه أكثر وسامة منه.

ضحك «مدحت» قائلًا:

ـ إذن أنتِ أجمل من زبيدة ثروت.

ـ طبعًا.

جلسوًا معًا في تراس مخصوص حجزه سعيد بسينما مترو، ليشاهدوا الفيلم صامتين.

بدأ الفيلم بمشهد للطلبة في الجامعة يحتشدون حول طالب يخطُب فيهم قائلًا إنَّ المصريين لن يصمتوا على عملاء الإنجليز، والخونة، مع تعالي الهتاف «يسقط الخونة. الموت للخونة». انطلقت مظاهرة الطلبة خارج الجامعة وهي تنادي بسقوط العرش لتصل إلى كوبري عباس، حيث كان في انتظارها ضابط البوليس السياسي «الدبَّاغ»، الذي أمر بإطلاق النار على المتظاهرين ليقفز الطلبة هربًا في النيل. ظهر «إبراهيم حمدي» بطل الفيلم فجأة ليقفز إلى النيل محاولًا إنقاذ أحد الطلبة غير القادرين على العوم ليجد أحد أصدقائه يموت أمام عينيه قائلًا: تحيا مصر.

بدا «إبراهيم حمدي» بعد ذلك في شقة صغيرة ومعه زُملاؤه وهُم يتناقشون حول العمل للرد على حادث إغراق عشرات الطلبة في كوبري عباس، حيث قال «إبراهيم» لهم إنَّهم قتلوا عشرات الإنجليز دون حل وأنَّه لا بديل سوى قتل الخونة الذين يتعاملون معهم.

ظلَّ «حسين» صامتًا لا ينبس، بينما علَّق «مدحت» ساخرًا بأنه لا يشبه أيا من الطلبة المُجتمعين مع «إبراهيم حمدي» سائلًا «حسين» أين هو، ثُم قال له:

ـ قُل لصديقك إحسان أنَّ مدحت لم يظهر في فيلمك.

لم يـرُد «حسـين»، واسـتغرق في مُتابعـة الفيلـم ليشـاهد «إبراهيـم حمـدي» يعـرض عـلى زملائـه ضرورة قتـل «عبدالرحيـم باشـا» الخائـن الموتـور. أرسـل «إبراهيـم» رسـالة لوالدتـه يطلـب فيهـا أن تدعـو لـه، وحمـل مُسدسـه وذهـب إلى مقر الـوزارة ومعـه كامـيرا وقـدم للحـراس كارنيهًـا ادعـى فيـه أنَّـه صحفـي ثُـم يدخـل ليطلـق الرصـاص عـلى «عبدالرحيـم باشـا»، وجـرى هاربًـا، لكـنَّ الحـراس أحاطـوا بـه وأمسـكوه. وظهـر «إبراهيـم» بعـد ذلـك في مكتـب ضابـط البوليـس «الدبـاغ»، وهـو يتعـرَّض هنـاك للـضرب المُـبرح ليـشي بأسـماء شركائـه في الجريمـة، لكنَّـه يـصرّ عـلى الرفـض، ويتـم نقلـه لمستشـفى قـصر العيـني للعـلاج. وهـرب «إبراهيـم» بعـد ذلـك مرتديـا ملابـس طبيـب ليذهـب إلى «محـيي» أحـد الطلبـة المُبتعديـن عـن السياسـة ليختـبئ عنـده، وهُنـاك التقـى «نـوال» شـقيقة «محـيي» لتبـدأ قصـة حُـب مُلتهبـة تصـل إلى درجـة كتابـة ورقتـين بعبـارة «لا إلـه إلا اللـه. محمـد رسـول اللـه» حـتى لا يفترقـا. وتصـل الأحـداث ذروتهـا عندمـا ينجـح أصدقـاء «إبراهيـم» فى تهريبـه إلى المينـاء ليختـبئ في باخـرة بعيـدًا عـن مـصر، لكنَّـه يقفـز منهـا في اللحظـة الأخـيرة عائـدًا لممارسـة العمـل الفـدائي حـتى يمـوت خـلال تفجـير ينفـذه ضـد قـوات الاحتـلال.

انتهـى الفيلـم بكلمـة «البدايـة» مُبـشّرًا بثـورة يوليـو الـتي خـرج معهـا «مُحـيي» و«عبدالحميـد» مـن السـجن دليـلًا عـلى حُريـة مـصر، لكـنَّ «حسـين» قـام صامتًـا ليُدخّـن في عصبيـة ظاهـرة وهـو يقـول لمـن معـه:

ـ التزوير سمة العصر. لقد شوهوني كما أرادوا.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

ـ حسين إنَّه فيلم جيد، لقد ردّ اعتبارك.

ردّ بتجهم:

ـ لا أنـا أعرفهـم جيـدًا. عـلى العمـوم هـذا قطيعـة بيـني وبـين إحسـان.

الصحفيـون دائمًـا هُـم الصحفيـون، يعشـقون الأكاذيـب، ويرشـون البُهـارات عـلى كُل حكايـة. لقـد خاصمـت الحُـب مـن أجـل الوطـن، وأغلقـت قلـبي، لكنَّهـم صـوَّروني شـخصًا ضعيفًـا يهيـم حُبًـا بفتـاة.

في طريق العودة أمّن «مدحت»على رأي ابن خالته قائلًا:

ــ الفيلـم مُفاجـأة لي شـخصيًا، في أحداثـه وسـهولته وسـذاجته وحـتى نهايتـه.

ثُم بصوت حاول أن يبدو أكثر جدية:

ــ أعتقـد أنَّهـم بمشـهد النهايـة أرادوا أن ينزعـوا عنـك أي بطولـة. أرادوا أن يقولـوا إنَّ البطـل الحقيقـي لا يهـرب، ويعـود ليمـوت فـداء لوطنـه.

ــ كلااااااب.

علّق «حسين» غاضبًا، وواصل تدخينه بعصبية.

***

عـلى المقهـى كان جميـع الـرواد صامتـين يسـتمعون لصـوت الزعيـم عـبر الراديـو يخطُـب في شـجن. جلـس «حسـين» و«عبدالقـادر عامـر» يسـتمعان لصـوت «عبدالنـاصر» حزينًـا، وهـو يسـتعرض مـا جـرى مـن انقـلاب ضـده في سـوريا قائـلًا:

«الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..

هـذه أول مـرة أسـمح فيهـا لنفسي أن أوجـه الخطـاب إليكـم جميعًـا عـلى هـذا النحـو الرسـمي، ولكنَّـني أشـعر أنَّ مـن حقكـم عـليّ، ومـن واجـبي حيالكـم أن أطلعكـم عـلى فكـري، وأن أفتـح أمامكـم قلـبي في هـذه اللحظـات الحاسـمة مـن نضـال الأمـة العربيـة ومـن كفاحهـا في سـبيل مثلهـا الأعـلى في الوحـدة والحريـة.

إنـني لا أوجـه هـذا الحديـث إلى شـعب الجمهوريـة العربيـة المتحـدة،

لأنَّني أعتبر أنَّ الساعات التي نعيشها الآن ليست ملكنا وحدنا، إنما ملك تاريخ سبق، وملك حاضر يبنيه الدم والعرق، وملك مستقبل نحاول تحريكه في ضمير الغيب، إنَّها ملك نضال قديم مستمر باق إلى الأبد من أجل هذه الأمة العربية ومن أجل عزتها. لهذا أريدكم جميعًا أن تكونوا معنا، وأن تعيرونا كل الفكر الواعي منكم والاهتمام».

همس «حسين» في أُذن «عبدالقادر» قائلًا:

ـ ألا ترى هؤلاء البُلهاء الذين أوشكوا على البكاء مما يقوله الطاغية.

أجابه «عبدالقادر» بهزّات موافقة لرأسه، ليستمع لصوت الزعيم هادرًا:

«إنني لا أقبل مهما كانت الظروف أن أرى الشعب هنا والشعب في سوريا أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق، لا أستطيع أن أتصور القاهرة ودمشق إلا إخوة كفاح، وإلا زملاء معركة، وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية أخرى، مع كل مدينة عربية، مع كل قرية عربية. ولقد شعرت خلال الأيام الأخيرة أنَّ ما حدث كله قد فتح فرصة واسعة أمام أعداء الأمة العربية من قوى الاستعمار ومن أعوانه، ومن قوى الرجعية في المنطقة وأعداء تقدم الشعوب، ولقد رأيت رأي العين فرحتهم جميعًا بهذه الفرصة التي تفتحت أمامهم، ورأيت تأهبهم للاستفادة منها لمصالحهم وعلى حساب المصلحة العربية.

لقد أحسست أنَّهم يريدونها معركة تقتتل فيها عناصر من أبناء الشعب السوري مع بعضها، معركة تقع فيها الفتنة بين الشعب العربي في سوريا وبين الشعب العربي في مصر، معركة تقع فيها شعوب الأمة العربية في حيرة تتوه بعدها في الظلام. ذلك كله كان أمامي، وكان أمامي أيضًا واجبي تجاه الأمة العربية وتجاه المصير العربي، وإنَّكم لتعرفون أنني اتخذت منذ أيام قرارًا بألا تتحول

الوحـدة العربيـة بـين مـصر وسـوريا إلى عمليـة عسـكرية، وبنـاءً عـلى ذلـك فلقـد أوقفـت جميـع العمليـات العسـكرية الـتي كانـت قـد بـدأت لمنـاصرة الجمـوع الشـعبية الثائـرة ضـد الحركـة الانفصاليـة في سـوريا».

أشعل «حسين» سيجارة، وسأل صديقه بصوتٍ هادئ:

ــ أمـا زال هـذا المُدعـي يحسـب نفسـه زعيمًـا للأمـة العربيـة؟ هـااوو. إنَّـه لا يعلـم كيـف صـاروا يتنـدرون عليـه في كُل محـل ومقهـى بدمشـق.

ــ بالتأكيد يعلم. لا تنس أنَّ مُخابراته تنقل له كُل شيء.

واصـل الرئيـس حديثـه، وبـدا الحُـزن مرسـومًا فـوق وجـوه معظـم النـاس، لكـنَّ «حسـين» أنكـره. فكَّـر أنَّ المصريـين يتقنـون كُل شيء حـتى النفـاق في المشـاعر. إنَّهـا هزيمتـه هـو لا هزيمـة المصريـين ولا الأمـة العربيـة.

«أيها الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..

لقـد حاولـت جهـدي أن أؤدي واجـبي كجنـدي في خدمـة هـذه الأمـة العربيـة، وحاولـت ألا أدع مجـالًا لفرقـة ولا أفتـح طريقًـا لفتنـة. إنَّ عـدوي وعـدو أمـتي هـو الاسـتعمار والرجعيـة المتعاونـة معـه، والقاعـدة الـتي يتحفَّـز منهـا لـضرب آمالنـا؛ وهـي إسرائيـل. إنَّ أمـلي هـو حريـة الوطـن العـربي وحريـة المواطـن العـربي، وإنَّي لأثـق في حتميـة الوحـدة بـين شـعوب الأمـة العربيـة، ثقـتي بالحيـاة، وثقـتي بطلـوع الفجـر بعـد الليـل مهمـا طـال.

أيها الإخوة..

أعـان اللـه سـوريا الحبيبـة عـلى أمورهـا، وسـدَّد خطاهـا، وبـارك شـعبها، وسـتبقى هـذه الجمهوريـة العربيـة المتحـدة رافعـة أعلامهـا، مـرددة نشيدها، مندفعـة بكل قواهـا إلى بنـاء نفسـها؛ لتكـون سـندًا لـكل كفـاح عـربي، ولـكل حـق عـربي، ولـكل أمـل عـربي، وسـلام عليكـم جميعًـا. وعاشـت الأمـة العربيـة، وعاشـت الجمهوريـة العربيـة».

ـ عاش جمال عبدالناصر. عاشت الجمهورية العربية المتحدة.

تـردد الهُتـاف مـن أحـد الكـروش المُنتفخـة داخـل المقهـى لـيرُدد خلفـه بعـض الجالسـين عـلى استحياء، فقـال «حسـين» مُبتسـمًا:

ـ عظيم. واحد من المُخبرين كشف لنا نفسه.

ضحك «عبدالقادر» ساترًا شفتيه بكفِّه، وقال لصاحبه:

ـ هـذه الوحـدة كانـت أكذوبـة، ضحـك عـلى الذقـون، لـذا لـم تسـتمر. قبـل شـهور حـكى لي تاجـر سـوري صديـق يقطُـن في الإسـكندرية كيـف يتعامـل الضبـاط المصريـون بتكـبر وتعـالٍ مـع زملائهـم السـوريين. وقـال لي إنَّ تطبيـق قـرارات التأميـم داخـل سـوريا أدَّى لتزايـد كبـير في حنـق النـاس عـلى عبدالنـاصر، خاصـة أن أكـثر مـن نصـف المجتمـع السـوري تجـار وأصحـاب مشروعـات. كمـا أنَّ عمليـات القمـع والاعتقـال الـتي مارسـها الرجـل ورجلـه السـفاح عبدالحميـد السراج ضـد السياسـيين ضاعفـت غضـب النـاس عـلى القاهـرة. لقـد توقـع صديقـى السـوري انهيـار الوحـدة خـلال شـهور، وأثبتـت الأيـام صحـة توقعـه.

هـرش «حسـين» في شـاربه الـذي بـدأ الشـيب يعـرف طريقـه إليـه، ثُـم قـال:

ـ الغريـب يـا عبـده أنَّ النـاس هُنـا لا تعـرف أي شيء. ألا تـرى حُزنهـم العظيـم لأنَّ زعيمهـم حزيـن.

ـ طبعًـا يـا حسـين للأسـف هنـاك كثـيرون يصدقـون نشـيد «وطـني حبيـبي. الوطـن الأكـبر».

نظر «حسين» إلى صديقه، واقترب برأسه أكثر، وهمس:

ـ هل تظُن أن المشير عامر سيقوم بانقلاب على عبدالناصر؟

سكت «عبدالقادر» كثيرا ثُم أجاب سائلًا:

ـ لمَ تقول ذلك؟

ـ عرفـت مـن بعـض المصـادر أنَّ منشـورات جديـدة بـدأت تظهـر

داخـل الجيـش موقعـة باسـم الضبـاط الأحـرار.

فكَّر «عبدالقادر» قليلًا وقال:

ــ بحسـاب القـوة الآن، فـإنَّ عبدالحكيـم عامـر أقـوى، لكـن بحسـاب الدهـاء أعتقـد أنَّ عبدالنـاصر سـينتصر. أتصـور أنَّ المشـير عامـر رجـل طيـب، ولا ناقـة لـه ولا جمـل في الحـرب أو التآمـر، ولـو اسـترجعت مـا جـرى لـه في دمشـق لعلمـت كيـف استسـلم تمامًـا لقـوات الانقـلاب، ثُـم غـادر دون كلمـة.

ابتسم «حسين» وقال:

ــ نعم. كانت فضيحة.

وسكت «حسين» لحظات شرب فيها شايه الساخن قبل أن يقول:

ــ عمومًـا. أنـا أتصـور أنَّ مرحلـة الإعـداد للحركـة يجـب أن تتضمـن إيجـاد أي جسـور مـع ضبـاط بالقـوات المسـلحة.

واصـلا النقـاش، بينمـا كان مُعظـم أحاديـث روَّاد المقهـى تـدور حـول خيانـة القوميـة العربيـة، ونكـران الجميـل، وطعنـات الأشـقاء لنـاصر العروبـة.

***

أدخلـت خادمـة المـنزل كـوب الشـاي الصباحـي للرجـل الثمانيـني الجالـس في الشرفـة مُطـلًا عـلى أحـد شـوارع جـاردن سـيتي مُتنفسًـا هـواء الصبـاح، ومُسـتمتعًا بـدفء الشـمس، واضعًـا مُصحفـه بـين راحتيـه، ليقـرأ كعادتـه بعـض القُـرآن. كان الرجُـل قـد ألقـى عـن كاهلـه همـوم العمـل، وألاعيـب السياسـة، راضيًـا بمـا قـدم لبـلاده، وقانعًـا بـأنَّ لـكل عـصر رجـالًا، وأنَّ دوام الأحـوال ضـد نواميـس البشريـة. رنـا نحـو الشـارع الخـالي إلا مـن بعـض البوابـين، وتذكـر عندمـا اسـتأجر البيـت كيـف شـاع

السرور في الحي الأرستقراطي العتيق فرحًا بمقدمه. كان الرجُل الذي اعتاد مُنادته بلقب «دولة الباشا» قد باع بيته في مصر الجديدة، ليستكمل بناء فيلا باسم زوجته كانت قد بدأت بناءها في حى المرج لكنَّها لم تُكملها، لأنَّ القدر كان يُخبئ أمرًا آخر، فبعد الثورة قرَّر ضباط الحركة المباركة فرض الحراسة على ممتلكات زوجة الباشا ومن بينها فيلا المرج، والأنكى أنَّهم بعد أن عزلوا اللواء «محمد نجيب» من رئاسة الجمهورية، جعلوا تلك الفيلا مقرًا لإقامته.

رشف الباشا رشفة صغيرة من شايه الصباحي، ورسمت ذاكرته أحداثًا مضت عاش فيها بين القلق والأمل، وشهد فيها أيام سرور ومجد، وأيام محن واضطهاد، لكنَّه في النهاية كان راضيًا، ولا يشعر بخوف أو قلق من حساب أعسر ومُحاكمة أعظم أمام رب العباد. مُنذ عمل بالحقوق وقلبه وضميره مشغول بحق مصر في التحرُر والاستقلال، ومن منبر لآخر ومن حزب لحزب انخرط «مُصطفى النحاس» في جهاد المصريين لنيل الحرية وشارك في الثورة الأعظم وهو في الثالثة والأربعين ليجد نفسه منفيًا، ومُراقبًا، ومُضيقًا عليه، حتى رحل الزعيم الأكبر ووجد نفسه محل تقدير وإجماع من الناس ليتولّى قيادة أكبر وأكثر الأحزاب شعبية في ذلك الوقت. حارب الرجل في صمت مؤامرات القصر، ومراوغات الإنجليز، لكنَّ حنكته، ونزاهته كانت كفيلة بتجاوزه كُل أزمة، ونجاته من كُل مؤامرة كأنَّ عين الله تحرُسه. تذكر الزعيم المُتقاعد كيف حاول القصر قتله عدَّة مرات عن طريق أشقياء ومُغامرين، فدفع يومًا بـ«حسين توفيق» وجماعته ليقوموا بإلقاء قُنبلة على سيارته، لكنَّ ستر الله أخرها بضع ثوانٍ لتنفجر بعد مروره، وفي مرة أخرى أطلقت السيارة السوداء الخاصة بالحرس الحديدي رصاصها على سيارته فأصابت سائقه وحارسه، وأخطأته، ثُم قام قتلة آخرون بتفجير سيارة مفخخة أمام منزله في مصر الجديدة لتحترق ناموسية نومه، بينما كان هو يقرأ القرآن في الغرفة المجاورة. وقتها قال له الناس إنَّ الله يُدافع عن الذين

آمنوا، لكنَّه كان على يقين بأنَّ موعد مُغادرته للدُنيا لم يحُن بعد، وأنَّ لكل أجلٍ كتاب.

فكر أنَّه شعر بالغُربة وهو يقف ومعه تلميذه الدؤوب «فؤاد سراج الدين» أمام «محمد نجيب» مُهنئين بالحركة المُباركة، ولم يُصدق ما قاله «نجيب» وقتها من أنَّهم قاموا بالحركة من أجله ولتحقيق ما ينادي به. شعر بالضيق بعد وقت قصير عندما قرأ بالصُحف تلميحات وإساءات مُتعمدة له ولزوجته، والتي اقترن بها بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، ثُم بان له الموقف الحقيقي لرجال الحركة المباركة عندما تمت محاكمة زوجته ووضعه تحت الإقامة الجبرية. قاطع الصُحف بعد ذلك، وشغل وقته بقراءة القرآن ولعب الطاولة واستقبال الأقارب والمُحبين الزائرين، مُعلنًا أنَّه طلق السياسة طلاقًا بائنًا.

قال «مُصطفى النحاس» لنفسه إنَّ البلد يمضي من سيئ لأسوأ في ظل أوهام ودعايات كاذبة عن التقدم والعظمة، لكنَّه مؤمن أنَّ الناس في داخلها تعرف الحق من الزيف، وأنَّ التاريخ سيقول كلمته بعد أن يرحل الجميع.

أكمل الرجل كوب الشاي، ثُم وضعه على طاولة مستديرة أمامه، قبل أن يقرأ بصوتٍ خفيض: **«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۞ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا. وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۞ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۞ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۞ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۞ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۞ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۞ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا. وَتِلْكَ الْقُرَىٰ**

أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

***

فاجـأه النبـأ. عـاد «مصطفـى راغـب» مسئول الإخـوان الـذي كان هاربًـا في سـوريا. قـال «حسـين» لزملائـه وهـم جالسـون في شـقة «مدحـت فخـري»:

ــ إنَّهـا فُرصـة للتنسيق والتشـاور. هـذا الشـخص خطـير جـدًا، ويُمكنـه إعـداد مجموعـات للمشاركة في الثـورة القادمـة.

بـدا «مدحـت» مُتشـككا، وقـال وهـو يُتابـع بعينيـه حركـة أصابـع «حسـين» المُنفعلـة:

ــ يـا حسين: ألـم ترفـض مـن قبـل أي تعـاون مـع الإخـوان؟ لقـد قلـت أنـت لنـا مـرارًا إنَّهـم أكـثر انتهازيـة مـن أي فصيـل، ألا تذكـر عندمـا قلـت مقولتـك المأثـورة: إذا كانـت الأحـزاب السياسـية تُتاجـر بالوطـن والشـعارات، فـإنَّ هـؤلاء يتاجـرون باللـه.

هزَّ «حسين» رأسه قائلًا:

ــ نعـم. هـذا صحيـح، لكـن التنسيق والتشـاور معهـم الآن ضرورة، وذلـك سـيكون مرحليًـا فقـط. سـنعمل عـلى اغتيـال عبدالنـاصر وعـدد مـن معاونيـه، وسيقومون هُـم بإطـلاق المظاهـرات في الشـوارع لإحـداث الاختـلال المطلـوب، والاسـتيلاء بعـد ذلـك عـلى الحُكـم.

ثُم واصل شارحًا:

ــ هـل تعرفـون مـا سـبب نجـاح ثـورة السـوريين ضـد عبدالنـاصر؟ مـا جـرى أنَّ الإخـوان والشـيوعيين أطلقـوا مظاهراتهـم في الشـوارع لتأييـد الثـورة الـتي قـام بهـا المقـدم الكزبـري، فتمكنـوا مـن السـيطرة عـلى الشـارع، فخفتـت أي مقاومـة لأنصـار عبدالنـاصر في دمشـق، وبقيـة

المـدن. وحـتى اللاذقيـة الـتي كان يعتقـد أنهـا تجمـع أنصـاره، انقلبـت عليـه في ثـلاث ليـال، لتُعلـن تأييدهـا التـام لخلـع سـلطته.

هزُّوا رؤوسهم كتلاميذ أمام أستاذهم، قبل أن يضيف:

ـ وهـذا مـا سـنفعله هُنـا. حـوادث اغتيـال للشـخصيات البـارزة، ثُـم يـنزل الإخـوان مؤيديـن في الشـارع وينتهـي حُكـم الطاغيـة.

قـام «عبدالقـادر» مـن كُرسـيه، ووقـف في منتصـف حجـرة الصالـون، وسـأل بشـكل مبـاشر:

ـ مَـن هُـم هـؤلاء الشـخصيات البـارزة الذيـن يجـب قتلهـم لإطـلاق الثـورة؟ وهـل سـيكون أنـور السـادات واحـدًا منهـم؟

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ السـادات ليـس مـن الشـخصيات الحاكمـة. لا يغـرك أنَّـه رئيـس مجلـس الأمـة. أنـت تعلـم جيـدًا أنَّ هـذا المجلـس مُجـرد حائـط الصـدى لمـا يقولـه عبدالنـاصر ولا أي وجـود لـه بـين النـاس. نحـن نُريـد تنحيـة المؤثريـن بالفعـل. أعتقـد أن قائمتنـا يجـب أن تضـم جمـال عبدالنـاصر، وعـلي صـبري رئيـس الـوزراء، والسـفير الأمريـكي بالقاهـرة. في الوقـت نفسـه سـنضع خطـة للاسـتيلاء عـلى الإذاعـة لإعـلان الثـورة.

ـ والمشير عبدالحكيم عامر؟

سـأل «سـعيد» مُبديًـا دهشـته مـن تجاهـل اسـمه ضمـن الشـخصيات المؤثـرة، لكـنَّ «حسـين» أجـاب سريعًـا:

ـ لـه في عُنقـي ديـن لا يُمكـن نكرانـه، لأنَّـه هـو الـذي تدخـل للإفـراج عـني وعـن عبدالقـادر. عمومًـا هـو لـن يقـف في طريقنـا، فـكل مـا يهمـه هـو الجيـش، وسـيبقى حاكمـا عليـه.

قامـوا مـن غرفـة الصالـون، ثُـم جلسـوا عـلى مائـدة السُـفرة ليرسـم لهـم «حسـين» خريطـة التنظيـم مُحـددًا دور كل واحـد منهـم. أخبرهـم أنَّ «عبدالقـادر عامـر» سـيكون مسـئول التنظيـم العسـكري

حيـث سـتوكل لـه مُهمـة جمـع الأسـلحة وتخزينهـا، وسـيصبح «سـعيد توفيـق» المسـئول المـالي للتنظيـم، حيـث سـتكون مهمتـه جمـع المـال والاشـتراكات والتبرعـات، والإعـداد لخطـط الاسـتيلاء عـلى أي أمـوال عامـة لـشراء الأسـلحة، بينمـا سـيكون «مدحـت فخـري» السـكرتير العـام الـذي يتلقـى التعليمـات والأوامـر مـن حسـين لتنفيذهـا.

بعـد يومـين، وكمـا خطـط حسـين، تـم اللقـاء بينـه وبـين «مصطفـى راغـب» الـذي احتضنـه غـير مُصـدق، مُسـتعيدًا أيـام الخـوف والخطـر في الشـام. جلسـا في فنـدق مينـا هـاوس بالهـرم يرتشـفان قهوتهمـا، ليسـأله «حسـين» عـن السـبب الـذي دفعـه للعـودة، فأجـاب «مُصطفـى»:

ــ لا شيء سـوى الشـوق لمـصر والنـاس والشـوارع. في الوجـع هُنـا مثـل هُنـاك، لـذا كان لابـد أن أعـود. بعـد الوحـدة طاردتنـا مُخابـرات عبدالنـاصر، ورجالـه في دمشـق وضيقـوا علينـا حـتى اختبأنـا في حمـاة بعـد أن غـيّر كثـيرون هوياتهـم. وسـاعدنا كثـير مـن التُجـار أن نُنشئ مشـاريع صغـيرة كانـت تُحقـق لنـا أمـوالًا جيـدة اسـتطعنا العيـش، لكـن تطبيـق قـرارات التأميـم في سـوريا دفعـني للعـودة إلى هُنـا للاسـتفادة بمعـاشي والبيـت الـذي تركـه والـدي.

ــ ألا تخشى الاعتقال؟

ــ لقـد قطعـت خيـوط المـاضي، ومعظـم أصدقـائي مـن الإخـوان إمـا محبوسـون في زنزانـات عبدالنـاصر أو هاربـون في السـعودية وبـاقي الـدول.

أشعل «حسين» سيجارة ماركة «بولمنت»، وقال:

ــ هل تُريد أن تقول لي إنَّك تقاعدت؟

مصمـص الرجـل الـذي بـدت سـمنته مُميزة شـفتيه، وأجـاب وهـو يهزّ رأسـه:

ــ أنـا أعـرف أنَّـك لـن تُصدقـني. لكـن أنـا بالفعـل أخرجـت السياسـة والإخـوان تمامًـا مـن رأسي.

ثُم سأل بعد هُنيهة:

ـ لكن قُل لي: ماذا تريد يا حسين؟

ـ أريد اتصالًا مع أحد فاعل في الإخوان.

هزَّ «مصطفى راغب» رأسه وقال:

ـ بسيطة. سأكتب لك ورقة لرجل زميل لك بإحدى شركات البترول، سيقرأها ويفهم مُرادك، ويمكن أن تتعاونا.

سُر «حسين»، ونفث نفسًا طويلًا من بلمونتته، قبل أن يسأل:

ـ ما اسمه؟

ـ أحمد قبودان.

ومد له ورقة صغيرة مكتوبًا عليها «الأستاذ» وقال:

ـ أعطه هذه، وثق به إلى أقصى درجة، ولا تخبرني بشيء.

ـ تمام. أشكرك.

تصافحا، وقام «حسين» وشعور طاغ بالانتصار يُسيطر عليه. وغادر مُغتبطًا.

***

استيقظت «سُعاد» مفزوعة من رؤية ابنتيها «كوثر» و«وفاء» تصرخان هلعًا بعد أن وجدتا كوبي اللبن الصباحي وقد تحولا إلى كوبي دم. أبصرت «سُعاد» الكوبين الحمراوين فضربت بكفها الصينية لتُلقي بهما على الأرض، بينما واصلت البنتان صرخاتهما. ظلَّ صوت البنتين الصغيرتين يتردد في أذُنها وهي تحاول تأمل ما حولها لتتأكد أن ما رأته مجرد كابوس عابر. نظرت إلى يمينها فلم تجد «حسين» راقدًا، ومدَّت أصابعها مُتحسسة مكانه فوجدته باردًا. تثاقلت،

وقامـت مُتكاسـلة لتجـد البيـت سـاكنًا بـلا حـراك، اقتربـت مـن غرفـة البنتـين فوجدتهـا سـاكنة، ورمتهمـا بنظـرات محبـة وخـوف، ثُـم نظـرت إلى غُرفـة السـيدة «سـميرة» لتجدهـا موصـدة وصامتـة كقـبر. فكَّـرت للحظـات، وهـي ترمـي الغرفـة الباقيـة الخاصـة بسـعيد بنظرة ريـب، قبل أن تسـمع صـوت حديـثٍ خافـت. اقتربـت ببـطء لتكتشـف عـبر بصيـص ضـوء مُتـسرِّب مـن أسـفل البـاب أن الغرفـة محـل اجتمـاع سري يُشـارك فيـه زوجهـا. تحسسـت خطواتهـا بهـدوء، واقتربـت أكـثر مُرهفـة سـمعها لتسـتبين مـا يُقـال، فسـمعت صـوت «حسـين» مُمـيزًا وهـو يقـول:

ــ لقـد قابلـت أحمـد قُبـودان بالأمـس ومـن الواضـح أنَّـه أخطـر كثـيرًا ممـا نتخيـل. تصـور يـا سـعيد أنَّ هـذا الرجـل لا يبـدو عليـه أي شيء، فهـو ضحـوك وظريـف جـدًا بـين زُملائـه، وكثـيرًا مـا يُكـرر النـكات، ويجيـد تقليـد الفنانـين، ويُدخّـن، ومـع ذلـك هـو واحـد مـن أخطـر عنـاصر الإخـوان السريـين، ولديـه خريطـة بمخـازن أسـلحة في كُل مـكان بالجمهوريـة.

ــ وهل وثق فيك بكُل سهولة؟

ميزت المُتنصتة صوت «سعيد» سائلًا، ثُم أجاب «حسين»:

ــ نعـم. تصـور. لقـد أمسـك الـكارت الخـاص بمصطفـى راغـب، ونظـر فيـه كمّـن يتأمـل لوحـة فنيـة لفاتنـة مـن فاتنـات عـصر النهضـة، ثُـم ابتسـم ونظـر إليّ وسـحبني مـن يـدي بعيـدًا عـن النـاس، وقـال لي: الآن يُمكنـك الـكلام دون خـوف. قُلـت لـه عـلى التنظيـم الجديـد، وأخبرتـه أن عـدد الأعضـاء لدينـا كبـير ويتعـدَّى مائـة شـخص، فقـال لي إن مائـة شـخص عـدد ضئيـل، وأن المُهـم هـو قـوة الأشـخاص، مؤكـدا أن لهـم تواجـدا داخـل الجيـش، وكثـير مـن الجهـات المهمـة والحساسـة، وأنهـم يتحينـون الفُرصـة للقيـام بعمـل كبـير.

سكت قليلًا كأنه يسحب نفسًا من سيجارته ثُم أضاف:

ــ طبعًـا تحدثـت معـه عـن القيـام بعمل مُشـترك، لكنـه تحفظ بشـدة،

مُكررًا أن الإخوان لا يعملون إلا وحدهم، ومَن يرد أن يعمل معهم يعمل تحت قيادتهم. ونصحني أن أجلب السلاح من الإسكندرية، لذا فقد كلفت مدحت بالسفر إلى هُناك ليتابع مع عبدالقادر التفاوض مع أحد التجار، في الوقت نفسه فقد أجرت شقة في الظاهر لنضع فيها السلاح.

ضحك «سعيد»، وقال:

ــ أنت كذبت على رجل الإخوان لتُخبره أن عدد التنظيم مائة شخص، ونحن أربعة فقط.

ــ قريبًا سيتسع التنظيم، عبدالقادر قال إنَّه جنّد اثنين في الإسكندرية، وأنا سأتصل بسيد ليُساعدنا. لا تنس أنه كان أكثر الأعضاء إخلاصًا.

ــ عظيم. أريد أن أقول لك أيضًا إنَّ نجيب سيأتي الخميس القادم. هل نُفاتحه؟

أجاب «حسين» بحزم:

ــ بالطبع لا. يجب أن نتعلم من دروس الماضي. نجيب ليس مدحت ولن يكون. نجيب مُنفلت، ويحب القراءة والسينما، ويريد أن يستمتع بالحياة. لن يفيدنا، وربما يكون ضارًا بالتنظيم. المُهم سأذهب إلى الفراش، ففي الصباح لدينا تفتيش، ويجب أن أذهب إلى الشركة.

سمعته «سُعاد»، فانسحبت تجري على أطراف أصابعها، ودلفت سريعًا إلى الفراش، وتظاهرت بالنوم.

***

تلاقوا بعد غياب سنوات طويلة. قبّل «نجيب» «فخري» ابن خالته بمودة ظاهرة، ثُم صافح «سُعاد»، واحتضن «كوثر» و«وفاء» ماسحًا

بكفِّه شعرهما الطويل، قبل أن يجلس على أريكة الصالون الذهبي المُميز لمنزل «توفيق بك». هُنا لعبنا، وكبرنا، وفتحنا نوافذ الدهشة والصبا. قالها لنفسه، وهو يتذكر أيام المدرسة وحكايات التنظيم الساذج، وخطط المُراهقين الوطنيين.

كان «نجيب» قد وصل قبل دقائق، مُرتميًا في حُضن خالته، ثُم مُعانقًا ابن خالته «سعيد»، قبل أن يستقبل أسرة «حسين» الجديدة التي لم يرها من قبل. بدا «نجيب» أكثر سمنة من أيام الشقاوة، واتسعت جبهته قليلًا، وحمل فوق شفتيه شاربًا كثيفًا قريب الشبه من ذلك الذي يحمله «حسين». وفوق رأسه وضع «نجيب» طاقية أوروبية مُستديرة، بدا معها وكأنَّه أحد مُمثلي السينما العالمية. رطن «نجيب» بالألمانية بضع كلمات قال لهم إنَّها تعني أنكم أوحشتموني كثيرًا، ثُم أخذ يضحك ساردًا حكايات لا حصر لها عن أزماته العديدة مع اللغة الألمانية مُذ وطئت قدماه أرض ألمانيا الشرقية. سألته خالته عن زوجته فقال، إنَّها ثقيلة، راسمًا بذراعه علامة البطن المُنتفخ إشارة لحملها، وأوضح قائلًا:

ــ الطفل الثاني. رُزقنا بأحمس قبل أربع سنين، وسأسمي القادم رمسيس لو كان ولدًا، وإيزيس لو جاءت بنتًا.

تذكر «حسين» «سناء» وجمالها الخلاَّب، ورقتها الساحرة، وقال في سرِّه: لو كانت زوجتي لما سميت هذه الأسماء البلهاء التي تُشير إلى حُكام جبابرة مُستبدين جعلوا شعوبهم عبيدًا.

نظر «نجيب» فجأة إلى « سُعاد»، وقال بحركات تمثيلية:

ــ أريد أن أقول لك إنك أفضل ما فعل حسين في حياته. لقد اختار لأول مرة فتاة جميلة لتُصبح شريكته وأم أولاده. تحيتي لأهل الشام وتقديري لجمالهن لا يوصف.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

ــ شكرا على ذوقك.

وتدخلت حماتها في الحوار لتقول:

ـــ ومَن مثل حسين ابني؟ ألا تذكر يا نجيب كيف كانت بنات النادي يتشاجرن عليه؟

قهقه «نجيب» بصدق، وقال:

ـ يا خالتي. القرد في عين أمه...

ـ اخرس يا ولد.

قالتها خالته، لكنَّه واصل التهريج مُحتضنًا «حسين» الذي بدا غير قادر على احتمال المزاح، وجلس يُدخّن سيجارًا غليظًا، وهو يقول لـ«حسين»:

ـ هاااا. ما رأيك؟ ألا أبدو لك كإقطاعي قديم؟

وواصل:

ـــ ألم تكُن ضد الإقطاعيين والباشاوات ونحن صغار؟ قُل لي الآن: كيف ترى الاشتراكيين وأبناء الفقراء عندما يحكمون؟

بدا الغيظ واضحًا على «حسين»، وعلَّقت «سعاد» قائلة:

ـ إن حسين هجر السياسة تمامًا وتفرغ الآن لعمله ومستقبل بناته.

قهقه «نجيب» مرة أخرى، فقال «حسين» مُجابهًا خجله، وراميًا بنظرة تحذير نحو زوجته:

ـ حسين توفيق لا يتخلَّى أبدًا عن وطنه ولا يخاف من أحد.

قال «نجيب»، وهو يربت على كتفه:

ـ قلبك أبيض.

ثُم أضاف بشيء من الجدية:

ـــ محمود مُراد صار درويشًا، وإبراهيم كامل على وشك أن يُصبح سفيرًا، ومحجوب تفرغ لإدارة شركات تُجارية ناجحة، وعُمر أبو يعلى الآن صاحب عيال، وسيد أصبح رمزًا للثورة الجزائرية بالأفلام التي

ينتجهـا في هيئـة الاسـتعلامات ضـد فرنسـا، أمـا أنـور السـادات فقـد أصبـح رئيسًـا لمجلـس الأمـة، وهـا هـي الأيـام تدفـع كُل واحـد في ناحيـة. أسـتطيع القـول الآن برضـا حقيقـي أنَّ السياسـة الحقيقيـة هـي أكل العيـش. هـي التمتـع بالحيـاة.

ردَّ «حسين» بحدّة:

ــ لا سـعادة في العيـش عـلى الهامـش، خدمـة السـلاطين، السـكوت على الباطـل. هـل أنـت سـعيد باسـتبداد عبدالنـاصر وتفرعنه؟

علقت السيدة «سميرة» بصوتٍ هامس:

ــ منّه لله.

لكن «نجيب» ابتسم وقال:

ــ لا يعنيني.

وواصل:

ــ أنـا مُهتـم بحـالي وحال عائلـتي، باسـتمتاعي بالفـن، بـالأدب، بمتابعتي للسـمر، بسـفري هُنـا وهُنـاك. بقـراءة الكُتـب، والاسـتفادة مـن تجـارب الآخريـن. أنـا أعمـل في مجـال الاتصـالات في ألمانيـا وأحصـل عـلى مـا يسـترني ويجعلـني أحصـل عـلى طعـام جيـد وشراب أكـثر جـودة، وأتصور أنَّ هـذا يكفـي. أمـا عبدالنـاصر والاشـتراكية والجمهوريـة المتحـدة والقوميـة وغيرهـا فإنهـا لا تمـر أبـدًا في ذهـني.

قامـت «سُـعاد» عـلى إثـر غمـزة مـن عـين حماتهـا لتسـأل «نجيـب» عما يشربـه، لكنَّـه عـاد إلى هزلـه قائـلًا:

ــ هذه اليد الناعمة تصنع القهوة؟ يااه. ما ألذها قهوة.

ثُم أضاف موجهًا حديثه إلى «حسين»:

ــ أنت محظوظ دائمًا يا ابن خالتي.

ربت «سعيد» على كتف نجيب قائلًا:

ـ دعك من الهزل. قُل لي: كم يومًا ستبقى في القاهرة؟

ـ أسبوعين.

قالها «نجيب»، مُضيفًا:

ـ لأننا سنسافر أنا وسناء بعد ذلك إلى أسوان للقاء محمود. أنت تعرف أنه يعمل في السد العالي. قولوا لي أنتم هل ستعزمونني على السينما؟

ـ السينما؟

سأل «حسين»، فهز ابن خالته رأسه قائلًا:

ـ نعم السينما. هُناك فيلم جديد اسمه الناصر صلاح الدين بطولة أحمد مظهر وصلاح ذو الفقار ونادية لطفى سيُعرض الاثنين القادم في سينما مترو. إنهم يقولون إنَّه فيلم عالمي.

هزَّت السيدة «سميرة» رجلًا فوق الأخرى لتبدو أكثر سمنة مما تركها عليه ابن أختها، ثُم نظرت نحوه سائلة:

ـ ألم تُشاهد الفيلم الذي عملوه عن ابن خالتك؟

ـ فيلم؟

ـ نعم. في بيتنا رجل.

ضحك «نجيب» بشكل مُتقطع قبل أن يُجيب:

ـ آه. رأيته العام الماضي على أسطوانة في دور عرض عربية بألمانيا، وضحكنا أنا وسُناء كثيرًا، لأنَّ بطل الفيلم لا علاقة له بحسين الذي نعرفه، كما أنَّ عُمر الشريف بعيد الشبه عن ابن خالتي تماما.

شعر «حسين» بضيق شديد، وبحلق بحقدٍ إلى القادم بعد غياب، ثُم قام وهو يقول:

ـ سأستئذنك يا نجيب. عندي موعد مهم. البيت بيتك طبعًا.

ـ انتظر. هل غضبت؟

صاح بـه «نجيـب» وهـو يقـوم خلفـه، لكنـه غـادر مُسرعًـا والتجهُـم يكسـو وجهـه.

***

ثلاثـة مُسدسـات برتـا، وبُندقيـة آليـة، وخمـس قنابـل يدويـة، وأظـرف مـن الرصـاص. كانـت أول توريـدة للسـلاح تلقاهـا «حسـين» وأخفاهـا في شـقة الظاهـر تُثـير مـن القلـق في نفسـه أكـثر ممـا تبعثـه مـن الغبطـة. شـعر «حسـين» للوهلـة الأولى أنَّ تلـك الأسـلحة تُمثـل لا شيء أمـام جهـاز بوليـس يمتلـك كُل أنـواع الأسـلحة، وقـوات مُسـلحة لديهـا دبابـات ومدرعـات ومدافـع وصواريـخ وطائـرات، وأجهـزة اسـتخبارات لهـا صلاحيـات مُطلقـة في التحـري والاسـتجواب، ونظـام حُكـم يوجـه صحافـة وتليفزيـون وإذاعـة لصالحـه واصمـة خصومـه بالخيانة والفسـاد. كمـا أنَّ شُـحنة الأسـلحة البسـيطة كلفتهـم نحـو ثلاثمائـة جنيـه، وهـو مـا يـوازي راتبـه الـذي يصفـه كثـيرون بأنَّـه كبـير في ثلاثـة أشـهر. أمـا أكـثر مـا أزعـج الأوتـار العصبيـة «لحسـين» فكانـت تلـك المُشـادات الحـادة الـتي كانـت تظهـر بـين الحـين والحـين مـع «سُـعاد» المُتجهمـة دائمًـا. في آخـر خناقـة قالـت لـه إنَّهـا تعلـم أنَّـه يُدبـر أمـرًا مـا وأنَّـه يُعرضهـا ويُعـرض ابنتيـه مـرة ثانيـة للخطـر. كان أكـثر مـا أوجعـه قولهـا:

ـــ يـا حسين. أنـت حُـر في حياتـك، حُـر في أن تفعـل بهـا مـا تشـاء. تكـره، تحـب، تـضرب أو حـتى تقتـل، لكـن أنـت لسـت حُـرًا في تدميرنـا وإلصـاق الأذى ببنتـين لـم يفعـلا شـيئًا لأحـد.

لقد ضربته «سُعاد» بسيفٍ بتار عندما ذكَّرته بـ«خالد» قائلة:

ـــ لقـد خسرنـا ابننـا الأول بسـبب عـدم وجـود رعايـة، ومـات عـلى حِجر غـيري لأنَّـني كُنـت مكلومـة في زوجـي أجـري يمينًـا ويسـارًا بحثًـا عـن مخرج لورطتـه الـتي صنعهـا بنفسـه.

ردَّ «حسين» بغضب:

ــ إنـي كُنـت أجاهـد مـن أجـل ابـني وأبنـاء سـوريا ليجـدوا مناخًـا آمنًـا وحيـاة كريمـة. لقـد كُنـت أحـارب الطاغيـة الـذي طـرده السـوريون شرَّ طـردة، وهـا هـو انتهـى بـه الحـال قتيـلًا في بـلاد غريبـة.

علا صوتها كثيرًا، وهي تقول:

ــ لـم يُعينـك أحـدٌ وكيـلًا للـه في تخليـص العالـم مـن الأشرار. إنَّهـم لن ينتهـوا. كُلما مـات طاغيـة أو خائـن جـاء خلفـه ألـف طاغيـة وخائـن. تلـك هـي طبيعـة البشريـة. أفـق يـا حسـين مـن وهـم يـد العدالـة.

فكَّـر «حسـين» بجـلاء في جـدوى مـا يفعـل هـو وأصدقـاؤه الثلاثـة. شُـحنة أسـلحة محـدودة القـدرات مـاذا تفعـل وسـط غابـة الـشر، حـتى لـو تضاعفـت؟ مـاذا لـو نجـح في قتـل «عبدالنـاصر»؟ هـل يضمـن أن يـأتي خلفـه أحـد مـن رجـال اللـه الأنقيـاء الصالحـين الذيـن يُحققـون مـا يريـد؟ «عبدالحكيـم عامـر» مثـلًا بصرامتـه وقدراتـه المحـدودة، أم «السـادات» بمكـره وخداعـه؟ ومـا الـذي يعـني نجاحـه في قتـل «عـلي صـبري» أو السـفير الأمريـكي؟ سـيتغيرون بآخريـن ربمـا أسـوأ أو أشـد بطشًـا. ألـم يقتـل الإخـوان «النقراشي باشـا» لأنَّـه أصـدر قـرارًا بحـلّ الجماعـة؟ مـاذا جـرى بعـد ذلـك؟ ألـم يـأت «إبراهيـم عبدالهـادي» ليفتـح معتقلاتـه وسـجونه ويسـحق الإخـوان ويقتـل مرشـدهم ويُـشرد عائلاتهـم؟ ليـس بعـد الـشر خـير، ولا يعـني رحيـل القُبحـاء أن يعـود الحُسـن. شـعر أنَّ «سُـعاد» مُحقَّـة في كثـير ممـا تقـول، وأنَّـه تحـول إلى مفرخـة كراهيـة، ومصنـع حقـد، وأنَّ التفكـير العقـلاني هجـره إلى حيـث لا يـدري. قـال لنفسـه إنَّ حيـاة ابـن خالتـه «نجيـب» عـلى مـا فيهـا مـن هـزل وضحـك ولهـو وحـب هـي حيـاة رائقـة، يكفي أنَّـه اقترن بسـناء الرومانسـية الرقيقة الـتي سـبق أن خطفـت قلبـه. أمـا هـو فقـد بـدد كثـيرا مـن السـنوات في القتـل الخطـأ، التفجـير للغـير، والركـض خلـف البطـولات الوهميـة. لقـد قتـل «أمـين عُثمـان» قبـل ثمانيـة عـشر عامًـا، وقبـض آخـرون ثمـن

العمليـة، فأُعيـد «السـادات» للجيـش، ونُـزع مـن الوفـد أحـد مخالبـه في صراعـه مـع الـسراي لتصعـد جمعيـة سريـة محـدودة القـدرات وتسـتولي عـلى الحُكـم، حُكـم مـصر، أمـا هـو فظـل مُطـاردًا مُـشردًا خـارج القطـر كُلـه. وفي الشـام حـارب وفجَّـر وقتـل يهـودا وأجانـب بحثًـا عـن بطولـة حقيقيـة، لكـنَّ عملياتـه وعمليـات زُملائـه نُسـبت جميعًـا إلى كتائـب الفـداء العـربي وشـلة جـورج حبـش دون ذكـرٍ لتضحياتـه، ثُـم أطلـق الرصـاص عـلى الشيشـكلي ليكسـب رجـل المخابـرات الـسري وتيـارات المُعارضـة والـدروز ويقـضي هـو سـبع سـنوات مُنتظـرا المـوت في أي لحظـة. أي خُطـى مُتعرجـة تخطوهـا قدمـاه؟ وأي دروب ضـلال يمـضي فيهـا دون وعـي أو تأمـل أو تدبـر؟ صدقـت «سُـعاد»، فمـا يريـد أن يفعلـه لـن يُصلـح الكـون، وسـيمضي الأشرار ليـأتي غيرهـم أشـد شرًا، وأكـثر اسـتبدادًا.

فتـح الراديـو ليُتابـع تفاصيـل خـبر اغتيـال «أديـب الشيشـكلي» في برازيليـا، وسـمع مـا نقلتـه نـشرة الأخبـار مـن أنَّـه تـم اسـتلام جُثمـان العقيـد الراحـل «أديـب الشيشـكلي»، ولفّـه بعلـم سـوريا تمهيـدًا لنقلـه لسـوريا لدفنـه بمدينـة حمـاة في مدافـن عائلتـه. كان رجُـلا دُرزيًـا يُدعـى «نـواف غزالـة» قـد قُبـض عليـه واعـترف بأنـه أطلـق الرصـاص عـلى «الشيشـكلي» في مزرعتـه انتقامًـا مـن قيامـه بقتـل عائلتـه في جبـل الـدروز، ومـن المُقـرر أن تُقـام جنـازة عسـكرية للرئيـس الراحـل.

ابتسـم «حسـين» وقـال لنفسـه: قتلـوه بعـد أن صـار يسـتحق الشـفقة. لا طعـم لذلـك. لا بطولـة ولا يحزنـون. لا مُتعـة في القتـل السـهل، في عمليـات اللاتخطيـط، في الوصـول للهـدف دون مشـقة، في اللامواجهـة عنـد اصطيـاد الفرائـس الكسـيحة.

سـمع طرقًـا شـديدًا عـلى البـاب، فزعـت زوجتـه، وهرولـت قادمـة مـن غُرفتهـا، وقـام هـو بـبروده المُعتـاد ليفتـح. برقـت عينـاه عندمـا رأى أمامـه ملابـس سـوداء ووجوهًـا كالحـة يعرفهـا جيـدًا. صـاح فيهـم سـائلًا:

ـ من أنتم؟ وماذا تريدون؟

ــ نحـن مـن المباحـث الجنائيـة. أنـت مُتهـم بالتخطيـط لقلـب نظـام الحُكـم. فتشـوا الشـقة.

***

صفعـة، صفعتـان، ثـلاث. لـم يُصـدّق أنَّ تلـك الأصابـع الغليظـة لامسـت خديـه. كيـف سـمحوا لهـؤلاء الأجـلاف أن يُهينـوه؟ فكَّـر «حسـين» وهـو مُلقـى عـلى أرض أسـمنتية صلبـة في غُرفـة مُظلمـة، وهـو يسـتثير حواسـه عـلى الاسـتيقاظ مـن ذلـك الكابـوس المُفـزع. كيـف مـرَّ عـلى صفَّـين مـن البـشر، لا مـن الأوغـاد ليتلقـى ركلاتهـم في جنبيـه وفخذيـه ومؤخرتـه؟ ثُـم كيـف تلقـى سـبابًا لـم يسـمعه في عُمـره؟ وكيـف لـم يسـتطع أن يـرُد عـلى وصـم أمـه بالعاهـرة عـدة مـرات مُـذ أُنـزل مـن سـيارة الشرطـة حـتى وصـل إلى زنزانتـه؟

صرخـات تتعـالى حولـه، وشرر يتنـاثـر مـن عيـون المُخبريـن والعسـاكر يُنبئـه أنَّ القـادم أسـوأ ممـا تخيـل يومًـا. قـال لنفسـه إنَّـه لـم يرتكـب خطـأ ولـم يُطلـق رصاصـة، وأنَّ كُل مـا فكـر فيـه لـم يتجـاوز مرحلـة التفكـير، وهـو مـا يعـني أنَّـه لا جريمـة. بـريء، غـير مُذنـب. هـل يُحاسـب القانـون في مـصر أحـدًا عـلى النوايـا؟ سـأل نفسـه مُقـررًا أنـه اتخـذ قـرارًا بالعـدول عـن أفـكاره امتثـالًا لنصيحـة زوجتـه الحبيبـة الـتي تعتـبره هـو وابنتيـه دُنياهـا كُلهـا. لقـد اقتنـع أخـيرًا أنَّـه لـن يُصلـح الكـون، ولـن يُنهـي وجـود الأشرار، ولـن يُحقـق العدالـة، لأنَّ طبيعـة البـشر تقتـضي وجـود ظُلـم وضـلال وفسـاد وقهـر إلى يـوم القيامـة. لقـد حـاول قبـل سـنوات قتـل «أديـب الشيشـكلي»، وهـو في أوج قوتـه وأخطأتـه رصاصاتـه، لكـنَّ يـد القـدر كانـت تحتفـظ للرجـل بميتـة أكـثر إيلامًـا وهـو وحيـد منفـي بـلا حـولٍ ولا قـوة.

لمـس بكفـه سـائلًا سـاخنًا فـوق شـاربه ليكتشـف أنَّ ضربـات الأيـدى

الغليظـة جرحـت شـفتيه. لعـق الـدم النـازف، وجلـس مُسـتندًا إلى الحائـط ليسـمع تأوهـات مكتومـة مُتسـللة عـبر قُضبـان البـاب الأسـود. قـاس بنظراتـه مسـاحة الزنزانـة فوجدهـا أقـل كثـيرًا مـن غُـرف الحبـس الاحتياطي الـتي سُجن فيهـا في سـوريا، وقـال لنفسـه إنَّـه كُلمـا مـر الزمـن تضيـق الزنازيـن عـلى سـاكنيها. فكَّـر فيمـن وشى بـه، مُتذكـرًا أنَّـه لا أحـد يعـرف بأمـر التنظيـم سـوى «عبدالقـادر»، و«سـعيد»، و«مدحـت»، وأنَّـه حـتى «أحمـد قبـودان» لا يعـرف شـيئا عـن تفاصيـل التنظيـم. هـل هُنـاك خيانـة جديـدة مـن أولئـك الذيـن أودعهـم كامـل ثقتـه؟ وهـل يتكـرر «نـوار» الفلسـطيني؟ أم هـي السـذاجة الـتي تدفعـه دفعًـا أن يثـق بالنـاس بسرعـة؟ فكَّـر في «سُـعاد»، وشـعر بلسـع دمعهـا، وهـو ينزلـق فـوق وجهـه. سـتتوجع ألمًـا وسـتظُن أنَّـه لـم يلتفـت لنصائحهـا، ولـم يُفكـر في مخاوفهـا. قـرر أنهـا لـو زارتـه، فسـيُخبرها أنـه بـريء تمامًـا هـذه المـرة، لـم يقتـل ولـم يجـرح ولـم يُطلـق رصاصـة واحـدة.

سـاعات مـرَّت دون اسـتدعاء. تركـوه مُكومًـا بـين النُعـاس، والصحـو ككـمِ مُهمـل. مثـل ذلـك البـاب الأسـود المُصمـت الشـاهد عـلى مـآسٍ وأنـات مُعذّبـين ومظاليـم كُـثر. اقـترب مـن القضبـان، لكنـه لـم يـر سـوى الجـدار الصامـت، وأبـواب بعـض الزنزانـات الأخـرى الـتي قـدَّر أنَّهـا مليئـة، عندمـا حمـل إليـه الهـواء روائـح شـتى لبـشر آخريـن يجمعهـم الخـوف، الـذي اعتـاد شـمه عنـد كثـير مـن النـاس. بـدأ العطـش يغـزو روحـه، وانتابـه صُـداع خفيـف، وشـعر بالضيـق ألا يجـد في جيبـه سـيجارة واحـدة، وأحـس أن نقـص النيكوتـين في شرايينـه يدفعـه دفعًـا نحـو الجنـون. لـو سـألوه عـن نوايـاه سـيُنكر كُل شيء، وسـيقول إنَّـه مُختلـف مـع «عبدالنـاصر» في نظـام حُكمـه، لكنَّـه لا يُمكـن أن يقتلـه، لأنَّ الثـوار لا يقتلـون الثـوار. سـيحكي لهـم عـن بطولاتـه ضـد الإنجليـز واليهـود والخونـة، وسـيخبرهم أنَّـه كان شريـكًا لـ«أنـور السـادات» فى اغتيـال «أمين عثمـان». سـيؤكد لهـم أنَّـه البطـل الحقيقـي لفيلـم «في بيتنـا رجـل» وأنَّ المشـير «عبدالحكيـم عامـر» وظّفـه في شركـة «شـل» للبـترول الـتي

تمصرت وأصبح اسمها الآن «مصر للبترول». تخيل نفسه جالسًا أمام المُحققين، وهم يعتذرون له في أدب جم بعد أن خطب فيهم قائلًا: «أنا أول من ثار على الملك، أول من قتل الإنجليز، أنا عدو الأحزاب، وخصم الإقطاع، ونصير الفقراء. أنا الاشتراكي الحقيقي، والقومي الأصيل، والعروبي المثال».

غفا قليلًا أو كثيرًا لم يُحدد. بانت له «ميمي» بقميص فاتن، قبلته في بشبق، قبل أن تخلع عنه قميصه. بدا مُترفعًا وصامدًا لا يصُد أو يرُد، لكنَّ أصابعها واصلت تجوالها فوق جلده، ليشعر برعشات مُمتعة تسري في كل أنحاء جسده. اشتم عطرها فواحًا، وهبطت جدائل شعرها فوق وجهه، وانتابته رغبة عارمة في تقبيلها، لكنَّ صوت والده صك أُذنيه وهو يصرخ فيه قائلًا: «أنت فاشل. فاشل. فاشل يا ولد».

ركلته قدم غليظة، وسمع مَن يُناديه بوصف يخجل أن يسمعه عن أمه، ورأى رجُلا طويلًا، واسع الصدر، يسحبه سحبًا من معصمه، ليقف على نصف رجل، ثُم يتقَّبل ركلة بين فخذيه يسقط على إثرها، ويقوم مرة أخرى مُستجيبًا، مُسيرًا، مذعورًا، مدفوعًا إلى الخارج، ثُم إلى غُرفة المُحقق. تضاعف ذُعره، وهو يرى بقايا وجه «عبدالقادر»، عندما كان يجرّه على الأرض مارد آخر ليُخرجه من غُرفة التحقيق إلى زنزانته.

***

حبست «سُعاد» أوجاعها في قلبها وكتمت جراح روحها، وهي تجلس أمام «أحمد الناحي» المُحامي في مكتبه المُطل على مشهد السيدة زينب. كان الشيب قد غزا الرأس العجوز، وبدت تجاعيد السبعينيات تجد طريقها إلى وجهه، وعرفت أصابعه ارتعاشات التقدم في السن.

قال لها المُحامي الكبير وهو يُقلب أوراق ملف أمامه:

ــ يا بنتي هذه المرة الأمر يختلف. حسين الآن مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم، وقد اعترف بشكل تفصيلي وأرشد المباحث على مخزن للسلاح في الظاهر، كذلك فقد اعترف شقيقه سعيد، وابن خالته مدحت، وصديقه عبدالقادر. جميعهم اعترفوا بأنَّه كان يقودهم بالفعل لتنفيذ عمليات اغتيال لعدد من المسئولين أولهم الرئيس عبدالناصر، وآخرهم السفير الأمريكي في القاهرة. والخطير في الأمر أنَّ المباحث الجنائية قبضت على تنظيم آخر للإخوان لقلب نظام الحُكم، وأتصور أنَّ الرد من جانب الدولة سيكون حاسمًا لكلا الطرفين، لذا فقد تم تحويل القضية إلى قاض عسكري اسمه فؤاد الدجوي لا يعرف الرحمة، ولا يقبل الأعذار. إنَّه فقط يقرأ الأحكام التي تأتي إليه من القيادة العامة.

وأضاف هامسًا:

ــ ربما من عبدالناصر نفسه.

انسكبت دمعات ساخنة من عينين بدتا متورمتين من كثرة البُكاء، لتسأل «سُعاد»:

ــ يا أستاذ أحمد. هل قرأت تفاصيل القضية جيدا؟ ألا تجد ثغرات يُمكن تخفيف الحُكم من خلالها؟ أنا أعرف أنك أفضل محامٍ في البلد، وأنك أنقذت حسين مرتين من قبل.

هزَّ الرجل رأسه في تأثر، وقال:

ــ قرأت القضية كلمة كلمة. وأعرف أنَّ حسين لم يرتكب شيئًا بعد، لكنَّهم ضبطوا لديه أسلحة وهو اعترف بأنه كان ينتوي اغتيال الرئيس. أعتقد أن القصة شبه مُغلقة، وكُل ما يُمكنني فعله هو إعادة تقديم الشهادات الطبية التي تفيد اختلال القوى العقلية لحسين.

ــ لا.

صاحت «سُعاد»، مُضيفة:

ـ إنَّ ذلك الأمر يقتله قتلًا. حسين ليس مجنونًا. إنه يقول لي أنه لم يؤذ أحدًا هذه المرة. وأنَّه لا يوجد قانون يُحاسب على النوايا.

ابتسم المُحامي الكبير ابتسامة باهتة، ثُم قال:

ـ مَن قال ذلك؟ القانون يُحاسب على النوايا إذا تم إعلانها. وفي الوقت الحالي فإنه يحاسب على النوايا حتى لو تم إخفاؤها. اسمعي يا بنتي.

هزَّت رأسها مُستقبلة لكلماته، فواصل:

ـ لقد اشترى حسين أسلحة من الإسكندرية من سائق مُجند اسمه محمود الشيشيني، وهو الذي وشى بمدحت بعد أن سلمه السلاح. وما جرى بعد ذلك هو أنَّ مدحت وشى بباقي المتهمين ومنهم حسين تحت تأثير الضرب المُبرح. ولا شيء الآن يُمكن عمله سوى التماس العفو، واعتبار حسين شاهد ملك لأنه أدلى ببيانات ومعلومات قادت إلى تنظيم الإخوان المُسلح واعترف على أحمد قبودان ومصطفى راغب، اللذين كشفا أنَّ قائد التنظيم الإخوانى هو سيد قطب نفسه. وأتصور أنَّ هذا هو الطريق الوحيد، أن نؤكد نوايا حسين الوطنية، وندمه على ما جرى، وكشفه لأخطر مجموعة إخوانية تستهدف قلب النظام.

ـ هل يُمكن أن نستعين بأحد؟

سألت «سُعاد»، فهزَّ «أحمد الناحي» رأسه قائلًا:

ـ لا أفهم.

فكررت:

ـ هل أذهب إلى السيد أنور السادات؟

ـ رئيس مجلس الأمة؟

ـ نعم.

هزَّ المحامي رأسه مُبتسمًا، وقال:

ــ القضية القديمة. أليس كذلك؟

ــ نعم. لقد كان...

قاطعها بحزم:

ــ أعرف ما كان. لكن اسمعي جيدًا. لا تحاولي ولا تُفكري في هذا الرجل أبدًا. إنَّه لن يُقابلك، وسيعتبرك خطرا عليه، وربما يعتبر حسين يحاول إحراجه أمام الرئيس عبدالناصر. وربما يؤدي ذلك إلى آثار سيئة. ربما يضغط للحكم بالإعدام، أو أي شيء آخر. من الأفضل أن تنسي هذا الأمر تمامًا. مفهوم؟

هزَّت رأسها بالإيجاب، وقامت تسحب قدميها مُفكرة فيما يُخبئه القدر لها. فكَّرت أنَّ براءة زوجها هي الأمل الوحيد لها في هذه الدُنيا. قبل أيام تعرضت لسيل من السباب من خالة زوجها، قبل أن تواصل حماتها وصمها بالبومة، وتتهمها بسرقة أموال «حسين». قالت لنفسها إنَّها تحمّلت ما لا يتحمله إنسان بعد القبض على زوجها، وأنَّه في حال صدور حُكم بالإدانة ستُغادر إلى دمشق، ولن ترجع للأبد.

***

«ومنذ أن تفجرت قوى الثورة وانطلق الشعب في طريق الاستقلال والحرية، واجه حروبًا مسعورة من كل صوب، كما واجه أعداء الثورة في الداخل الذين يتنمرون أملًا في فرصة تسنح لهم في اغتصاب السلطة والقضاء على أبطال الوطن. وهؤلاء تآمروا لتأليب الرجعية وتآمروا لإثارة الذعر والتخريب في الجبهة الداخلية، غير أنَّ إيمان الشعب بالأهداف التي رسمتها الثورة جعلها تخطو في ثبات إلى الأمام». كان

مُمثـل النيابـة يخطُـب في حمـاس وعينـاه تبثـان حقـدًا صـوب عـدد مـن الرجـال الواقفـين في القفـص، بينمـا كان «حسـين» بينهـم يضحـك في أعماقـه عـلى بلاغـة وكيـل النيابـة، ونفاقـه، وانتهازيتـه.

فى قـرارة نفسـه كان «حسـين» موقنًـا أنَّ الحُكـم صـدر مُنـذ شـهور، وأنَّ كُل مـا يـدور مُجـرد تمثيليـة سـخيفة لوضـع إطـار شـكلي لقـرار حبسـه. أزعجـه أن يتحـدث المُحامـي مـرارًا عـن اضطـراب شـخصيته وعـن إصابتـه بمشـكلة عصبيـة نتيجـة مـرض ضرب شـبكية عينـه عندمـا كان صغـيرًا. ودَّ لـو يتكلـم، ويـرُد كلام ذلـك الواهـن الـذي لا يسـتطيع أن يدافـع عـن أحـد سـوى مـن خـلال وصمـه بالجنـون. رمـى نظـرة اسـتفهام نحـو والدتـه، ليقـرأ في عينيهـا صلابـة وقـوة اكتسـبتها عـبر السـنين، ونظـر إلى زوجتـه فوجدهـا مُنكسرة، دامعـة العينـين، فقـدَّر أنَّ حُزنهـا ينصـب أولًا عـلى الصغيرتـين «كوثـر» و«وفـاء» لأنهمـا حُرمتـا عائلهما ووالدهمـا فجأة. قـال في تسـليم إنَّـه لـم يمنحهمـا مـا تسـتحقانه مـن عنايـة واهتمـام.

واصـل ممثـل النيابـة خطابـه قائـلا: «إنَّ القضيـة المعروضـة عـلى حضراتكـم اليـوم ليسـت قضيـة حسـين توفيـق ورفاقـه فحسـب، بقـدر مـا هـي قضيـة شـعب بـأسره.. صنـع ثورتـه الـتي حققـت لـه رصيـدًا متجـددًا مـن المكاسـب والانتصـارات، وهـو اليـوم يناشـدكم القصـاص مـن هـذه العصبـة الآثمـة الـتي تريـد أن تنقـض عـلى مكاسـبه، وتقـوض دعائـم ثورتـه. لقـد كانـوا يسـعون مـن جحورهـم إلى بلبلـة الأفـكار، وإحـداث فتنـة داميـة في البـلاد، كانـت سـتصيبه في الصميـم لـولا عنايـة اللـه، ويقظـة القائمـين عـلى الأمـر. ولـولا الإيمـان المتأصـل في الشـعب بثورتـه وقائـده».

ابتسـم «حسـين» سـاخرًا وهـو يُـردد في سره «الآن صـارت قضيـة حسـين ورفاقـه هـي قضيـة الشـعب بـأسره. آه أيهـا الشـعب المسـكين. كـم مـن الطُغـاة يتحدثـون باسـمك». فكَّـر في كلام الرجـل وتسـاءل: كيـف يُغـير النـاس المُسـميات بـكل هـذه السـهولة؟ كيـف يعتـدون عـلى الذاكـرة

بهذه البساطة؟ لقد تغير اسم الانقلاب العسكري إلى حركة مُباركة، ثُم أصبح الآن ثورة. استمع للمُحامين عن زُملائه واحدا تلو الآخر. قالوا كلامًا مُكررا، كُله ذُل واستعطاف. نظر إلى القاضي، وقرأ في عينيه الحُكم قبل أن ينطق به. قال لنفسه إن سيادة القاضي الفريق أول عرفه الناس مُنهزمًا في حرب السويس سنة 56 عندما استسلم كحاكم على غزة للإسرائيليين، قرأ في وجهه أنَّ الحُكم أن يُسجن مؤبدًا، لأنَّ «عبدالناصر» سيمنحه أعلى عقوبة ليستريح من خطره في الوقت نفسه فإنه لا يُمكن أن يأمر بإعدامه، خاصة أنَّه لم يُطلق رصاصة واحدة. وقدَّر أنَّ «عبدالقادر» و«مدحت» و«سعيد» سيلحقون به، ورُبما يُحكم على «محمود موسى» الضابط السابق بالسجن ثلاث أو خمس سنوات، وسيخرج «سيد» براءة لأنَّه دخل القضية خطأ بعد أن وجد رجال المباحث اسمه في أوراق «سعيد» الخاصة.

تذكر كيف عُلّق يومين مُتتاليين من معصميه ليقر بأسماء كُل مَن يعرف شيئا عن التنظيم، ثُم حرموه من الماء والسجائر عدة أيام حتى باح لهم بنواياه وخططه وأفكاره بطريقة مُرتبة. ووصل به الأمر أن شرح لهم طريقة تصنيع الديناميت التي عرفها في سوريا من خلال تحضير مادة النيتروجلسرين وتجهيزها يدويًا. ابتسم عندما لمح أحد زُملائه بالشركة ضمن الحضور، وقال لنفسه إنَّه لابد جاء للفُرجة.

نطق القاضي العسكري بالحُكم، وخُيّل له أنَّه لم يسمعه، لكنه لمح دموعًا مُنحدرة على خدي «سُعاد»، وسمع نحيبها، بينما لاحت ابتسامة تشفٍ على شفتي زميله، الذي لم يعُد يذكر اسمه. ابتسم ساخرًا، ثُم سار صامتًا بين بقية المتهمين، بينما شلَّ الوجوم ملامح «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر». ومضى هو في لامبالاة نحو عقوبة لجُرم لم يرتكبه.

***

قالت «سُعاد» لـ«فاطمة» إنَّها لا تستطيع البقاء بابنتيها في هذه الظروف، وأنَّها قررت السفر إلى دمشق للعيش هُناك. كانت صريحة وواضحة، وهي تُخبر شقيقتها أنَّها لم تعُد تُبادل «حسين» أي مشاعر محبة، بعد أن شعرت أنه مسئول عما وصل إليه. أكدت لـ«فاطمة» أيضا أنَّ نظرات الكراهية والحقد المُنبعثة من عيني حماتها قد تُصيب البنتين بالجنون والتطرف والحدة الشبيهة لتلك الساكنة برأس «حسين». قبّلت أختها المودعة بعد أن حزمت حقائبها، وسافرت مُقسمة أنَّها لن ترجع إلى هذا البلد أبدًا. لن تطلب الطلاق، لكنَّها لن تعود لزوجها الذي منحته حُبًا فأجابها جفاءً، وأعطته قلبها، فمنعها حُبه، وقدمت له الطاعة، فأبى أن يُهيئ لها الراحة والطمأنينة. ستعيش في شقة أبيها الصغيرة بحي الصالحية إلى جوار ضريح مُحيي الدين بن عربي، وستعمل أي عمل بسيط يضمن لها لُقمة شريفة وحياة هادئة، وتربية سليمة لزهرتين جميلتين. اقتنعت سعاد نهائيا بأنه لا مجد في القمم، ولا مُتعة في التفاعل مع الأحداث كما كان يُردد «حسين» على الدوام، وأنه ليس أجمل من ابتسامة بنت صغيرة وهي تحاول نُطق الكلمات الصعبة، ليس أجمل من شفتين رقيقتين تنطقان كلمة «ماما».

في دمشق طاردها الخوف في ظل الاضطراب الدائم المُصاحب للانقلابات العسكرية التي صارت عنوانًا لافتا للبلاد. سعت «سُعاد» بعد التحاقها بوظيفة ملاحظة عاملات بأحد مصانع الملابس أن تُجنّب بناتها أحاديث السياسة وحكايات الزميلات عن الصراعات الشرسة بين الإخوان والبعثيين. وبعد شهور قليلة من وصولها وقطعها لكل الصلات بالقاهرة قامت حركة مُباغتة من بعض العسكريين لتستولي على الحُكم وتتهم البعثيين بالتآمر وتسجن عددا منهم. وشعرت «سُعاد» لأول مرة بصحة ما كان يراه شقيقها «عاصي» في بلاد العرب وفي حُكوماتهم وحتى في «حسين» نفسه. قالت لنفسها يومًا إنَّ انقطاع شقيقها عنها طال كثيرًا، لكنَّها تعرف كيف تصل إليه، كيف تُراسله،

وتُحادثـه، ثُـم تلتقيـه، وتحتضنـه. تذكـرت أنَّ لـه صديقًـا مُقربًـا يعمـل في سـوق الحميديـة وقـدرت أنَّـه لابـد مـا زال عـلى اتصـال بـه، لـذا فقـد مـرَّت عليـه يومـا لتسـأله، فبـدا سـعيدًا برؤيتهـا، واسـتفسر عـن أحوالهـا وأحـوال أسرتهـا، فطمأنتـه، وفاجأهـا قولـه إنَّ «عـاصي» اختفـى تمامًـا عندمـا سـافر بصُحبـة فتـاة فرنسـية مـن لبنـان إلى فرنسـا قبـل ثـلاث سـنوات، وأنـه لـم يعـد يتصـل بـه أو يبعـث إليـه بـأي رسـائل. وبعـد أن غـادرت قليـلًا جـرى خلفهـا ليلحـق بهـا وهـو يقـول «إنَّ عـاصي لابـد سـيتصل بـه يومًـا ولابـد سـيعود إلى دمشـق».

ولسـنوات طالـت نجحـت «سُـعاد» في التكيّـف مـع الوحـدة، والاعتمـاد عـلى الـذات، وأغلقـت نوافـذ المـاضي ناسـية أحـزان القاهـرة، وراسـمة لابنتيهـا طريقًـا للتمـيز والتعلُـم والتربيـة الرشـيدة، بعيـدًا عـن كُل مـا يُعكـر صفـو الحيـاة، لكـن «عـاصي» لـم يعُـد، ولـم تُخبرهـا «فاطمـة « بخـروج والـد طفلتيهـا في عفـو رئـاسى في أي مـن أعيـاد الثـورة.

***

تأقلـم «حسـين» سريعًـا عـلى حيـاة السـجن، اعتـاد الاسـتيقاظ مُبكـرًا، والوقـوف في طابـور الصبـاح ثـم الخـروج إلى الجبـل، وتكسـير الحجـارة. كان الأمـر يتـم في البدايـة تحـت ضربات الشـوم وسـباب الـنُزلاء بـالأب والأم، ثُـم تحسـن الأمـر رويـدًا مـع قـدوم مأمـور جديـد أكـثر إنسـانية، إذ أوقـف الـضرب واكتفـى بالشـتائم. وصـار أكـثر مـا يوجـع «حسـين» حينئـذ هُتافـه اليومـي بحيـاة البـلاد وبحيـاة قائدهـا وزعيمهـا «جمـال عبدالنـاصر»، فضـلًا عـن ترديـده لأناشـيد «اللـه أكـبر فـوق كيـد المُعتـدي» و«وطـني حبيـبي» مـرارًا أمـام الحـرس والضبـاط. كان الطعـام يسـمونه «اليمـك» عبـارة عـن خليـط عجيـب مـن الحسـاء والخـضروات الكاملـة الـتي يتجرَّعهـا المُذنبـون كرهًـا لسـد الجـوع، بينمـا تميَّز الفـول

المُقدم في وجبة الإفطار بكثرة السوس، وهو ما اعتادته معدات سُجناء السياسة سريعًا.

في العنبر تكوّم «حسين» مع ثلاثين سجينًا، إخوان، وشيوعيين، ورجعيين، وضباط عُصاة، فضلا عن بعض المساجين الجنائيين المدانين في قضايا سرقة أو احتيال. وامتدَّ العنبر على هيئة مستطيل بطول عشرة أمتار وعرض خمسة أمتار، وتتخللت جُدرانه ثماني نوافذ صغيرة، يتسرب من قضبانها بعض الهواء، بينما توزَّعت أبراش النُزلاء في صفين بطول العنبر.

طرد «حسين» من رأسه أي أفكار كانت تراوده حول الهرب، خاصة أنَّ العُمر امتد، والنظام الأمني اختلف، ووسائل الحراسة صارت أكثر تقدمًا. استمع الرجل لحكايات شتى من سُجناء مُجرمين، ومظاليم، بعضها أوجع قلبه، والبعض الآخر هوّن عليه ما يحياه. قصَّ عليه البعض كيف كانوا يُضربون كُل يوم قبل الإفطار، ويُدفعون دفعا للاعتراف بنسويتهم ليقول كلا منهم «أنا امرأة» أمام الشاويش كي لا يُشبعه ضربًا.

ـ تحسنت الأحوال كثيرا.

قالها أحد السُجناء لـ«حسين» عندما كان يشكو من غباء الحُراس وساديتهم.

كان «حسين» يقول لمَن حوله إنَّه يدفع هذه المرة ثمن أفعال سابقة، وأنَّه ضحية غدر الذين اختطفوا ثورته. في يوم قابل مُدرسا وفديا مُسنا قُبض عليه بتهمة السير في جنازة «مُصطفى النحاس»، وسأله الرجل إن كان حاول بالفعل قتل النحاس باشا قبل «أمين عُثمان»، فردَّ «حسين» بالإيجاب، لكنه حمد الله على فشل المحاولة، مؤكدًا أنَّ «النحاس باشا» رغم ما لديه من مكر وبلاغة أشرف كثيرًا من هؤلاء الذين يُعلقون زُملاءهم في السلاح، ويضربون أصدقاءهم ويسومونهم سوء العذاب.

واستمع «حسين» من بعض السُجناء لحكاية موت «شُهدي عطية» ضربًا وهو يهتف بحياة «جمال عبدالناصر»، وكان الحاكي مفتونًا بالزعيم وما أحدثه من تغيير اجتماعي كبير، مؤكدا أنَّه مثل «شهدي» لا يلتفت لتعرضه للظلم من القائد، مادام ذلك القائد أنصف الفقراء وبدّل أحوالهم. وردَّ «حسين» عليه بأنَّه من المُخدرين الذين يسيرون خلف تاجر الشعارات مُنسحقين بلا تفكر أو تدبر.

وحكى له سجين من الإخوان كيف تعرَّضوا للقتل في زنزاناتهم بعد خلافهم مع الثورة، حتى أنَّ عساكر ليمان طُرة كانوا يطلقون النار عليهم داخل الزنزانات، فقال له «حسين» بغل:

ـــ أنتم تستحقون. تستحقون كُل ذلك وأكثر لأنَّكم قبلتم بالتحالف مع عبدالناصر ضد جميع القوى السياسية وتجاهلتم مصالح البلاد فالتفت إليكم بعد أن خلصتموه من الشيوعيين والوفديين.

كان «حسين» يشعر أنَّ خبرات السنين صبّت في رأسه قُدرة على استيعاب حوادث التاريخ وتحولاته، وفكَّر كثيرًا لو عاد به الزمن مرة أخرى لاختار دروبًا مختلفة. كان سيحب بصدق، وسيقرأ بُعمق، وسيشاهد السينما مثل «نجيب»، ويهتم بالموسيقى مثل «سناء»، وسيكمل تعليمه مثل «محمود مراد» و«إبراهيم كامل»، وسيتزوج ويُنشئ أسرة طيبة يمنحها عنايته ورعايته.

في السجن اقترب «حسين» أكثر من شقيقه، «سعيد»، وشعر أنَّه ضحيته لأنَّه كان دائمًا منساقًا خلفه، بلا اختيار أو قرار، ربما لأنَّه كان ينظر له دائمًا باعتباره أبًا لا أخًا أكبر. كان يراه مُرشدًا، ومُعلمًا، وجديرًا بالقيادة. لقد وجد «سعيد» في شقيقه الصاحب الأمين، والراعي المُحب القادر على استيعاب اندفاعاته، وتفهُم آلامه، خاصة أنَّ والده كان بعيدًا، مُنشغلًا، بينما كانت والدته مختلفة لأنها تركية. نفس الأمر كان ابن خالته «مدحت» الذي كان مولعًا مُنذ صغره بالمغامرات، مغرمًا بالتنقل بين المخاطر. أما «عبدالقادر»

فبـدا لـ«حسـين» أكـثر طيبـة ممـا كان يتخيـل، واندهـش كيـف كان هـذا التابـع البسـيط يقتـل الإنجلـيز في الإسـكندرية.

انقطعـت الزيـارات عـن «حسـين» وشـقيقه، واسـتبدلت بهـا خطابـات مـن الأم الـتي كان واضحًـا اعتـلال صحتهـا. كانـت السـيدة «سـميرة» تحمـل عـلى «سُـعاد» لأنَّهـا هربـت بطفلتيهـا إلى دمشـق، ومنعـت البنتـين مـن زيـارة أبيهمـا. لقـد اتهمتهـا سـعاد» بسرقـة آخـر راتـب لـه بالشركـة، ثُـم قامـت بإرسـال خطـاب اسـتعطاف إلى رئيـس الجمهوريـة ليـصرف لهـا معاشًـا بعـد قـرار الفصـل مـن الشركـة. ورغـم التحريـض الـذي تـوالى في خطابـات الأم تجـاه «سـعاد»، والـذي وصـل إلى حـد الطلـب مـن «حسـين» أن يطلقهـا، فإنـه كان يشـعر في قـرارة نفسـه بأنَّـه أوجعهـا كثـيرًا وأنهـا تحملـت معـه مـا لا يمكـن احتمالـه. وكان مُقتنعـا تمامًـا بـأن قرارهـا بالسـفر بالبنتـين إلى دمشـق كان أمـرًا صائبًـا. لـم يكـن يعلـم أي أخبـار عـن «سُـعاد»، لكنـه كان يعـرف فقـط مـن «عبدالقـادر» الـذي تـزوره «فاطمـة» عـلى فـترات متباعـدة أنَّ «سـعاد» والبنتـين بخـير.

مـرَّت السـنون سريعـة كعربـات قطـار مجـري يحمـل ركابـه مـن محطـة إلى أخـرى. في كل وقفـة يهبـط البعـض، ويصعـد آخرون، ويواصـل القطـار رحلتـه دون عُطـل أو خـروج عـن القضبـان. أُعـدم «سـيد قطـب» واثنـان مـن زُملائـه في القضيـة الـتي كشـفت أول خيوطهـا اعترافـات «حسـين توفيـق». وشـعر «حسـين» بمـرارة أن يتسـبب في شـنق أحـد، لكنَّـه عـاد واقتنـع أنَّ الثـورة كانـت تنتـوي تقديـم أحـد رجـال الإخـوان للمـوت، لكنَّهـا كانـت تبحـث عـن مُـبرر منطقـي. حوكـم الصحفـي «مُصطفـى أمـين» في العـام نفسـه وصـدر حُكـم بالسـجن المؤبـد عليـه في قضيـة تخابـر مـع أمريـكا، رحـل المطـرب والموسـيقار «محمـد فـوزي» موجوعًـا بتأميـم شركاتـه الفنيـة، ومـات المـؤرخ «عبدالرحمـن الرافعـي»، وارتكبـت القـوات الأمريكيـة مذبحـة داميـة في فيتنـام، في الوقـت الـذي احتفلـت فيـه دور العـرض المصريـة بفيلـم «أخطـر رجـل في العالـم» لـ«فـؤاد

المهنـدس» و«شـويكار».

كان «حسـين» يتعـرف عـلى الأنبـاء مـن خـلال الدردشـة مـع الحـرس والعسـاكر، الذيـن اعتـادوا مـع الوقـت، وبقشـيش الأهـل أن يعاملـوه كزعيـم سياسي سـابق. كانـوا يأتـون إليـه ليسـتطلعوا رأيـه فيمـا يحـدث، ويسـألونه كخبـير عمـا يتوقـع. ولمـا اضطربـت الأحـوال في خليـج العقبـة، وأصـدر الرئيـس «جمـال عبدالنـاصر» قـراره بسـحب القـوات الدوليـة مـن سـيناء، قـال «حسـين» للعسـاكر إنَّ الحـرب صـارت وشـيكة. وحـتى عندمـا قامـت الحـرب، لـم يشـعر «حسـين» بالصدمـة لأنبـاء الهزيمـة، ولـم يسـتغرب أن تـدك الطائـرات الإسرائيليـة مطـارات مـصر ومواقعهـا الحربيـة في سـاعات معـدودات، لكنَّـه شـعر بالصدمـة لخـروج النـاس رافضـين تنحـي «عبدالنـاصر «عـن الحكـم، ومُهدريـن عليـه الفرصـة للخـروج مـن سـجن النسـيان. ولـم تمُـر أيـام قليلـة عـلى الهزيمـة حـتى رأى السـجناء كبـار الضبـاط والمسـئولين وبعـض المُحققـين معهـم إلى جوارهـم في السـجن ذاتـه، وقتهـا ضحـك «حسـين» لأول مـرة مـن قلبـه.

***

ماتـت السـيدة «سـميرة». «أركان حياتـك تنقـض واحـدة خلـف الأخـرى». سـمع «حسـين» همسًـا روحيًـا يـتردد في أذنيـه، وقـال إنَّـه يفقـد كثـيرًا ممن حولـه بسرعـة ويـسر. في الغُربـة رحـل الرجـل المُهيـب ذو الطلـة الصارمـة، الـذي كان سـندًا لـه رغـم قسـوته، وفي الحبـس مـات الابـن قبـل أن يـراه زاحفًـا، ودون أن يسـمع منـه كلمـة «بابـا»، ثُـم فـرت «سُـعاد» سـيدة القلـب ومعهـا أملـه الوحيـد، وحسـناته القليلـة كوثـر ووفـاء، وهـا هـي السـيدة الكبـيرة تُغـادر، دون أن يقـول لهـا: وداعًـا.

في المـرآة رأى وجهـه فأنكـره، غـيّر الشـعر المُسترسـل موطنـه بعـد أن تبـدل لونـه، وبـرزت العينـان جحوظًـا، وغامـت الرؤيـة كثـيرًا، وأحاطـت

الهـالات السـوداء حدقتيـه، وتـرك الزمـن بصماتـه تجعيـدا عـلى جلـده. ظـنّ «حسـين» أنـه يُطالـع شـخصًا آخـر، لا يعرفـه، وتيقـن أنَّ قطـار العُمـر قطـع أكـثر مـن نصـف الطريـق أسرع ممـا كان يتوقـع. في السجن علـم «حسـين» أنَّ الأيـام والسـنين مُجـرد مشـاهد للحظـات محبّـة أو كراهيـة يخفـت بريقهـا يومًـا بعـد يـوم في خلايـا الذاكـرة.

رأى في إحـدى الزيـارات «ميمـي»، فاتنـة المعـادي في زيـارة لزوجهـا. كان «محمـود مـوسى» قـد قاطعـه تمامـا مثلمـا فعـل «مصطفـى راغـب» الـذي سـيق للحبـس بـلا جريـرة. لـم يُصـدق «حسـين» عينيـه وهـو يُشـاهد كُتلـة لحـم مُنتفـخ، فقـدت كل معـاني الرقـة والجمـال. كانـت السـيدة السـمينة تُغطـي رأسـها بطاقيـة مـن الصـوف، بينمـا أخفـت عينيهـا بنظارتـين سـوداوين، وبـدت ملابسـها ضيقـة عـلى جسـد فقـد امتشـاقه. هـل هـذه ميمـي؟ سـأل نفسـه قبـل أن تمنحـه نظـرة احتقـار، تعاطفًـا مـع شـعور طـاغ لـدى زوجهـا بالكراهيـة تجاهـه جـزاء وشـيه بـه، وسـحبه معـه إلى السـجن. تذكـر أيامًـا خلـت كان فيهـا فارسـها، وفتاهـا، ومـلاذ رضاهـا. وقتهـا، كانـت تحتضنـه بحـب، وتُقبلـه بشـوق، وتبثـه لوعتهـا ولهفتهـا، كانـت تسـتمع لـكل مـا يبـوح بـه، وتُثـني عـلى مـا يقولـه، وتُوافقـه في الـرأي، وتشـاركه في الآمـال والأمنيـات. أمـا الآن، فهـي تلومـه دون أن تنطـق، وتعاتبـه بعـدم الاكـتراث، وتنتقـم منـه بالتجاهـل. كأنـه لا شيء. لا شيء البتـة. لـم تعـد «ميمـي» «ميمـي»، لـم تعـد البنـت الفاتنـة، المبهـرة، الجذَّابـة. لقـد تحولـت مـع الزمـن إلى بقايـا أنـثى.

مثلهـا في ظنِّـه مثـل «سـناء» الـتي قالـت لخالتـه في زيـارة أخـيرة بصحبـة ابـن خالتـه وزوجهـا «نجيـب» أنَّهـا تُشـفق عـلى «حسـين» لأنَّـه اعتـاد أن يـؤذي نفسـه، قبـل أن يـؤذي مَـن هـم حولـه. اغتـاظ أن يسـمع ذلـك، فهـو لا يقبـل شـفقة شـافق أو عطـف عاطـف. إنَّ أقـصى مـا يُمكـن أن يُعـذّب بـه رجـل هـو أن تُشـعره بالضعـف، والصَّغَـار، أن تُفتتـه إلى جُزيئـات صغـيرة، أن تُحولـه إلى كائـن يحتـاج المُسـاعدة، أن يخـاف، أن

يقلـق، أن يبـكي. «لـن أفعلهـا حـتى المـوت. لـن أبـكي يـا سـناء. ولا أريـد شـفقتك» قالهـا مـرارًا، وهـو يتلقـى ضربـات القـدر واحـدة تلـو أخـرى.

كان مَـن حولـه مثلـه، ينقلبـون مـن الغبطـة إلى الانقبـاض، ويمضـون أيامهـم بـين النـدم والـسرور. «سـعيد» كان يشـعر بأنَّـه خـسر كُل شيء، بينمـا كان «مدحـت» يعتـبر مـا جـرى لـه أشـبه بكبـوة جـواد لابـد سـيقوم منهـا. أمـا «عبدالقـادر» فـكان صامتًـا كحجـر، يؤسًـا كصحـراء، لا يُبـدي أسـفًا، ولا يشـارك بـرأي، ولا يكـترث لخـبر.

مـات «جمـال عبدالنـاصر» فجـأة. اختنـق القلـب المُتخـم بهمومـه، ذُبح بـردًا بسـيف الظـروف والحـوادث والنكسـات. بـكاه النـاس عطفًـا، وبـكاه آخـرون حُبًـا، وشـمت شـامتون ومـا أكثرهـم، كان مـن بينهـم السـجين رقـم 1135 الـذي أسـمته الصُحـف بالإرهـابي «حسـين توفيـق»، ونـشرت عنـه الأكاذيـب حـول مؤامراتـه وتحالفـه مـع أعـداء الوطـن. أي وطـن يتحـدث عنـه هـؤلاء الكذبـة الذيـن اختطفـوا الثـورة وخـدروا النـاس وسـلبوا الممتلـكات وحـازوا النفـوذ! أي بلـد صـار فيـه الكذبـة حُكامًـا، والقتلـة رجـال أمـن، واللصـوص بُنـاة مجـده! أي إرهـاب أصعـب مـن إلقـاء زُمـلاء النضـال في السـجن وتخوينهـم وتشـويههم وإلصـاق كل خطيئـة بهـم! هكـذا تسـاءل وهـو يُفكـر في وميـض الأمـل عندمـا علـم بتـولي «أنـور السـادات» رئاسـة الجمهوريـة.

***

«سيادة الرئيس..

أكتـب إليـك رسـالتي الثالثـة. مـن جـوف بـئر يوسـف الـذي ألقيـت فيـه ظُلمـا وافـتراء، في ظـل سـيادة مراكـز القـوى وتحكـم الأشرار في الثـورة وتسـلطهم عليهـا. لقـد كتبـت إليـك يـوم توليـك، وأيقنـت أنَّ أمامـك معركـة حاسـمة مـع ذيـول «عبدالنـاصر» وخدمـه، الذيـن تحولـوا في

عهده إلى مراكز قوى قاهرة، لذا فقد عذرت سكوتك وقتها. ثُم كتبت إليك مرة ثانية بعد أن هدمت المُعتقلات، وأحرقت شرائط التنصت، وبشّرت بعهد حُرية وعهد بناء لكنك لم ترُد أيضًا، مما أوقعني في غمٍ وزاد من حيرتي، ودفعني أن أقرر أن أكتب لك الآن للمرة الأخيرة.

سيادة الرئيس..

لن أستجديك، ولن أستغيث بك، ولن أسألك الإنصاف، فأنت تعرف يقينًا أنَّني هُنا في مكاني، وأنت في مكانك لأنَّ القدر اختار لنا ذلك، وكان يُمكن أن تكون مكاني وأكون أنا مكانك، ووقتها لم أكن لأترك زميلًا في النضال، ورفيقًا في السلاح مُقيد السراح إلى جوار اللصوص والقتلة والمُجرمين.

أنت تعرف يقينًا أنَّ القضية التي حوكمت فيها كانت مُلفقة، ويشهد الله أنَّني لم أطلق رصاصة واحدة ولم أؤذ أحدًا، ولكنَّ سدنة الطغيان صوروني كشيطان، ووصموني بكُل نقيصة، ليرموا بي خلف القضبان، فهجرتني أسرتي، وتباعد عني الأصحاب، وهابني الأقارب، وأُهنت وضُربت وقاربت الموت، لكن إرادة الله شاءت لي المقاومة والثبات. لقد كتبت عني الصُحف أنني إرهابي ومجنون وباحث عن شهرة، وشوَّهت تاريخي، وطمست نضالي الذي كنت أنت شريكا لي فيه. وكأنَّهم أرادوا أن يلوثوا تاريخك، ويوغروا صدر قادة الثورة عليك.

أخي العزيز..

اسمح لي أن أحذف الحواجز بيننا مثلما كانت قبل ثلاثين عامًا. إنَّك تعرف تمامًا أنَّني لا أبغي سوى المجد لموطني والحرية لأبنائها، ولم أكن يوما عدوا للناس أو مُخربًا للمجتمع كما زعموا. نعم كُنت مُندفعًا، كُنت ثائرًا، ومُتحمسًا للتضحية والفداء، ورُبما أخطأت مرة، وأصبت أخرى، لكنني لم أخدع، ولم أغش، ولم أخُن. كُنت

واضحًـا كالشـمس، لا أتلـون مـع مَـن تلـون، ولا أبـدل مبـدأ أو رأيـا، ولا أقـول سـوى مـا أؤمـن بـه.

عندمـا قُلـت لي أنَّ قتـل الإنجليـز لا يُجـدي وأنَّ قتـل الخونـة أولى وألـح، آمنـت وأمنـت، وعندمـا أخبرتـني أنَّ «مصطفـى النحـاس» مُخـادع ومنـاور ويلعـب بعواطـف النـاس صدقـت ووافقـت، ولمـا حكمـت بأنَّـه يسـتحق المـوت أيـدت الحُكـم، وكُنـت يـدك الباطشـة، ثُـم جـرى الأمـر نفسـه مـع «أمـين عثمـان» وشـعرت بالبهجـة والرضـا وهـو يلفـظ روحـه أمامـي لأنَّـني كُنـت أنفـذ إرادة الوطـن. كُنـا معًـا ضـد الخونـة، وضـد العُمـلاء، وضـد الفاسـدين، ولا يصـح أبـدا أن تفـترق بنـا الـدروب، فتلقـي واحـدًا في الجنـة وواحـدًا في الجحيـم».

طـوى الرئيـس «أنـور السـادات» الخطـاب المُرسـل إليـه عـبر أحـد الأصدقـاء القُدامـى الـذي صـار يعمـل رجـل أعمـال، ثُـم نظـر لمُديـر مكتبـه، وسـأله وهـو يضغـط عـلى كل كلمـة:

ــ قُـل لي باللـه عليـك. مـاذا تفعـل إن كُنـت مشـغولًا بأمـرِ مصـيري، ورأسـك مُنغمـس فيـه ليـل نهـار، تُفكـر فيـه، وتُحلـل، وتُناقـش النـاس، وترسـم سـيناريوهات، وتضـع خططًـا، وجـاء إليـك ولـد كان يلعـب معـك في المـاضي وأنـت صغـير، وقـال لـك كُنـا كـذا، وكُنـا كـذا، وكُنـا....؟ هـا مـاذا تفعـل؟

سكت مُدير مكتب الرئيس برهة، مفكِّرا قبل أن يقول:

ــ سأعتبر أنني لم أسمع شيئًا.

هزَّ الرئيس رأسه مُبتسمًا، وقال:

ــ تمامـا.. تمامـا، وهـذا مـا سـأفعله. أعـد هـذا الخطـاب مـرة أخـرى إلى مرسـله، وقُـل لـه إنَّ الرئيـس مُنشـغل جـدا، وتعـذَّر عرضـه عليـه، وأنَّ الأفضـل أن تعرضـه بنفسـك عليـه عندمـا تلتقـي بـه.

ــ مفهوم. سيادة الرئيس.

هـزَّ مديـر المكتـب رأسـه، وانـصرف، لتنفتـح في ذاكـرة الرجـل الـذي صـار حاكمـا لوطـن ذاب حُبـا فيـه نافـذة رحبـة عـلى المـاضي المُنـصرم، مُسـتعيدًا تنظيمـات لا عـدد لهـا انضـم إليهـا وانفصـل، وخلايـا سريـة وضـع لهـا مُخططـات وأمدهـا بالسـلاح، وإخـوان حالفهـم ثُـم خالفهـم، وشـيوعيين اقـترب منهـم وانقلـب عليهـم، وضبـاط أحـرار سـار معهـم، ومـع غيرهـم، وأصدقـاء خسرهـم، وأعـداء وقـف إلى جوارهـم. تلـك هـي السياسـة، أجمـل مـا في الوجـود. قالهـا لنفسـه، قبـل أن يُشـعل غليونـه العاجـي، ويسـعل سـعلة خفيفـة أعقبتهـا ابتسـامة رضـا.

***

زحفـت النهايـات رويـدًا. انفتـح بـاب الزنزانـة بعـد تجاهـل وتسـويف ومماطـلات. لـم يُصـدق «حسـين» مأمـور السـجن عندمـا اسـتدعاه مُقدمًـا لـه منـدوب رئاسـة الجمهوريـة الـذي كان يحمـل قـرارا جمهوريـا بالعفـو الصحـي، وابتسـامة دبلوماسـية بـاردة.

آه يـا «سـادات» تذكـرت أخـيرًا صديقـك القديـم، رُبمـا مـرَّت برأسـك ذكـرى لقـاء قيسـون، واجتماعـات الغُـرف الضيقـة، ونقاشـات مواجهـة الخونـة. ربمـا تذكـرت زمالـة الحبـس، واتفاقـات إفسـاد التُهـم، وإتـلاف أدلـة واسـتنتاجات البوليـس السـياسي. ربمـا انتابـك الحنـين لصُحبـة جـروبي السـاخطة عـلى الساسـة والأحـوال والمُجتمـع. تأخـرت كثـيرًا. قالهـا «حسـين» في سُره وهـو يسـتمع لمنـدوب الرئاسـة يخـبره أنَّ الإفـراج عنـه تأجـل عـدة مـرات بسـبب مؤامـرة مراكـز القـوى، ثـم الإعـداد للحـرب، ثُـم مفاوضـات إطـلاق النـار.

عـشر سـنوات في الجحيـم، وهـا هـو البـاب ينفتـح، لكـن مـتى؟ بعـد أن صـار بقايـا إنسـان، ونصـف مواطـن، وشـظايا بطـل؟ بعـد أن هجرتـه أسرتـه وتجنبـه أقاربـه وهـرب منـه الأصدقـاء واحـدًا تلـو الآخـر؟ بعـد أن

استوطنت داخله الآلام وأصابه الكبر، ونثرت الشيخوخة بذورها في جسده؟ تأخرت كثيرًا يا «حاج محمد». لكن عظيم أنَّك لم تبع، ولم تتنكر، ولم تمح ماضيك تمامًا. مازال لديك بعض الشهامة وبعض الوفاء. قالها دون أن ينبس بكلمة، وهو يلحظ على غير المُعتاد أدب مأمور الليمان وهو يتحدث إليه. سأل نفسه مُتعجبًا: ما أسرع تلون الناس وما أبسط انقلاباتهم! الأشرار يُصبحون أخيارًا في لمح البصر، ما دامت اللياقة تستلزم ذلك.

اشتم «حسين» هواء الصباح لأول مرة دون أن يمُر عبر أسلاك شائكة تُحيط سجنًا مُنعزلًا مُمتلئًا بالمآسي والأحزان. امتدت خطواته تدوس باستمتاع على أسفلت الطريق مُنتظرًا سيارة أجرة تقله حيث البيت الكبير، والذكريات المرصوصة في تصاوير الماضي. تذكر المُصافحة الأخيرة بينه وبين «عبدالقادر»، الذي أخبره أنَّه سيغادر إلى الإسكندرية دون رجعة أبدًا، وشعر بغُصة أن يرفض «مدحت» و«سعيد» وداعه رغم وعوده لهما بسرعة إنهاء قرار العفو عنهما. كانا صامتين كباب العنبر في هدأة الليل البهيم.

حاول «حسين» أن يستذكر وجوه زوجته، ابنتيه، زُملائه في العمل دون أن ينجح في تحديد ملامح الغائبين بدقة. شعر بثقل خطواته، وتراءت له مشاهد السيارات المارة مموهة، مُقدرًا أنَّه فقد كثيرا من اتزانه بفعل أمراض لا يعرفها وترسبات فشل في مقاومتها طوال سنوات الحبس. ركب في إحدى السيارات المُتجهة إلى رمسيس مُتلذذًا بالاستماع لأحاديث الناس الصاخبة، عن غلاء الأسعار، والفساد، والثراء السريع للمقربين والواصلين إلى السُلطة.

ـ الآن الرشوة أصبحت جهارًا نهارًا ولا يُمكن إنهاء عمل دون دفع.

قال أحد الجالسين مُخاطبًا آخر يركب إلى جواره:

ـ الأسعار نار وكيلو اللحم بـ 60 قرشًا ومرتبات الموظفين لا تتغير.

ردَّد راكب آخر ليسمع تعليقًا حازمًا:

ــ أي شاب الآن يرفض أن يعمل موظفًا بعشرين أو ثلاثين جنيهًا، ويذهب إلى بورسعيد ليعمل في التجارة ويكسب أكثر من مائة جنيه بأقل مجهود.

ــ السادات قال إنَّ مَن يطلب الثراء في عهدي سيُصبح ثريًا.

أي «سادات» هذا؟ سأل «حسين» نفسه مُستنكرًا. ما بال الناس تغيروا بهذه الحدّة؟ ما بال أحاديثهم تناست ما يجري في سوريا، والجزائر وفلسطين! ما بالهم لا يفكرون إلا في الصفقات والأموال وأكل العيش!

هزَّ رأسه مُتحسرًا وقال لنفسه: لا عليك. لا تهتم. أنت الآن: لا شيء. لا تاريخ، ولا بطولات، ولا أحلام بالزعامة. لا نصر ولا ثورة ولا استقلال. الناس تعبد المال، وكل المبادئ والشعارات الفضفاضة صارت جنونًا وإرهابًا. «إبراهيم كامل» أصبح سفيرًا في السويد ومُرشحًا لتولي وزارة الخارجية، و«سيد خميس» يُعد من رواد الإعلام، و«محمود مراد» صار أحد أكبر المقاولين. أما أنت فمازلت تبحث عن نفسك. آه آه يا زمن.

شعر بنغزات مُتكررة في صدره، ولاحظ أنَّ أصابعه تُصدر ارتعاشات واضحة، عندما استعاد ذكرى ضربه بسوط مُبلل بالزيت في الأيام الأولى للقبض عليه. قال لنفسه إنَّه لن يسترد «حسين توفيق» إلا عندما يسترد أسرته، وتعود زوجته وابنتاه من دمشق. فكَّر أنَّ «سُعاد» ستغفر له، وستفتح ذراعيها لتحتضنه، وستبدأ من جديد حياتهما المُنتقصة. إنَّه يعرفها جيدًا ويعلم أن قلبها رقيق، وطيب، ويحمل من الحُب ما يفيض على المُحيطين. تذكر وجهها الرقيق وعينيها الساحرتين، ليسأل نفسه إن كانت لا تزال تحتفظ بأنوثتها بعد تلك السنوات الطويلة، ثُم أجاب بأنها حتى لو كانت، فإنه لم يعد قادرًا على النهل من تلك الأنوثة. ليس أجمل من ابتسامة حقيقية ترتسم على وجهها. قالها في سرّه وهو يهبط من السيارة ليسير مُترجلًا

في شوارع وسط البلد. نظر إلى البنايات العالية، ولاحظ أنها لم تتغير رغم السنين، لكن وجوه الناس هي التي بدت مُتغيرة، حيث غابت تمامًا مسحة الطيبة، وابتسامة الرضا من فوق الوجوه. تابع بعينين غريبتين مشاهد البيع والشراء والزحام من الناس أمام المحلات التي صارت ملأى بالسلع الأجنبية. مرَّ بميدان الأوبرا، وتذكر كيف ألقى قُنبلة خلفه ليخيف مطارديه يوم قتل «أمين عثمان». استعاد مشهد إطلاقه الرصاص على جندي بريطاني كان يعبر في شارع فؤاد في إحدى الليالي. رمى جروبي بنظرة ذكرى لتمر بخاطره ذكرى حسناوات نجيب اللائي كان يقابلهن فيه. آلامريكان، سينما مترو، والتابعي، والبار اليوناني، كُلها شاهدة على عُمر من المشاغبة، وحيوات من المخاطرة، وحكايات من ألف ليلة وليلة.

ركب المترو إلى مصر الجديدة، واستعاد حديث مندوب الرئاسة، متوقعًا لقاء حارًا وودودًا مع رئيس الجمهورية. قال لنفسه إنَّه الصديق «أنور السادات» وليس الرئيس. نظر إلى الناس حوله مُستغربًا كيف لم يعرفه أحدهم حتى الآن؟ تساءل إن كانت ملامحه قد تغيرت إلى حد أن ينكره الناس؟ ألم يكُن مطلوبًا ومطاردًا ومقدرًا بخمسة آلاف جنيه قبل ثلاثين عامًا؟ ما بال الناس سريعة النسيان؟ طعنته الآلام مرات ومرات، وشعر بدوار شديد، فأغمض عينيه لدقائق، ثُم هبط مارًا بشوارع لم يعيها، ومبانٍ لم يتذكرها، ووجوه لم يعرفها، قبل أن يسقط أمام باب البيت مغشيًا عليه.

***

ـ سرطان في الرئة.

سمع «حسين» صوت رجل عجوز إلى جواره يتحدث إلى آخر. تذكر أنَّه خاله الذي عاش طوال عمره في أوروبا ولم يعُد إلا بعد دخوله

السجن متهمًا بالتخطيط لقتل «عبدالناصر». كانت الجلبة حوله تشي بتجمع كثيرين، لكنَّه لم يستبن العديد من الوجوه حوله. فكَّر سريعًا حاسمًا أمرهم ليُقرر أنَّهم لابد من الأقارب. حاول أن يتعرف على أيهم، ونجح بعد جُهد في أن يميّز وجه «نجيب» الذي كان يتحدث مع إحدى السيدات التي بدت كثيرة الشبه بـ«سناء». تركزت عيناه عليهما، ثُم بدأ كما تعلّم في السجن قراءة تحركات الشفاه ليصل إليه الكلام المرير:

ــ وصل إلى البيت قبل يومين، وعرفه بواب البيت المقابل، وسقط أمامه فاقدًا للوعي، فاتصل الرجل بنا لننقله إلى أقرب مستشفى.

ــ يااااه.

ــ الآن أخبرني الدكتور أنَّه في حالة متأخرة جدًا، وأن الباقي له على هذه الأرض لن يتجاوز شهورا قليلة. لذلك اتصلنا بمندوب الرئاسة وأجابنا أنه على استعداد لنقله لمستشفى القوات المُسلحة في المعادي، هُناك سيتكفلون بعلاجه حتى النهاية. وعلى أي حال سنُخبر «سعيد» و«مدحت» فور خروجهما هذا الأسبوع، وسأتصل بزوجته لأخبرها إن كانت ترغب أن تُلقي هي والبنات النظرات الأخيرة عليه أم لا.

ــ لا أمل نهائي؟

ــ للأسف وصل المرض إلى العظام. لا أمل في العلاج. سيتكفل المورفين بتخفيف آلامه. وسيقضي معظم أيامه الباقية نائمًا، مُخدرا، غائبًا عن الوعي.

ــ هل يعرف؟

أنكر «حسين» سؤالها، واصطدم رأسه في الحائط. شعر بزغللة النظر تتصاعد، لتدور الساقية بسرعة شديدة ساحبة رأسه تجُره دون توقف. فجأة تراءى له وجه الضابط «إبراهيم إمام» يبتسم في ثبات، قبل أن يقترب منه ويقول: حسين أنت مُجرم. ردَّ صائحًا: لا أنا بطل، لكنَّ

الوجه الباسم كرر في حدة: أنت مُجرم. مُجرم. مجرم.

عبر أمامه «مُصطفى النحاس» مُنحنيًا على عكازه، والناس حوله مُحتشدة، نظر في وجهه، ثُم رنا للسماء بعينين شاكيتين. خلفه كانت هناك طفلة صغيرة تبكي. سمع الناس يُنادونها «عائشة»، اقترب منها فتوقفت عن النحيب وصفعته بقسوة وهي تردد: لم يكن أبي خائنًا. لم يكن أبي خائنًا. جرى خائفًا، فأبصر سيدة وطفلًا، تذكر أنَّه أطلق عليهما الرصاص في المعبد اليهودي في دمشق. قال وقلبه يرتجف: لقد قتلتكما، لكنَّ الطفل الصغير أجاب: لم نمت.

صعد إلى جبل عال فأبصر «حسني الزعيم»، وهو يضحك ضحكًا صاخبًا، وهم يُطلقون الرصاص عليه، ثُم نظر فوجد «أديب الشيشكلي» يشارك في فرقة الإعدام، وإلى جواره وقف «عبدالرحمن ناصر» رجل المخابرات السوري يبتسم في هدوء، ثُم غمز له بنصف عين، فصرخ «حسين» فيهم قائلًا:

ــ أيها الأوغاد مَن منكم مع مَن؟ ومَن ضد مَن؟ مّن البطل؟ ومَن الخائن؟ مَن المُنتصر؟ ومَن المهزوم؟

سمع ضحكات «نوار» الفلسطيني، وهو يشرح له:

ــ يُصنع الديناميت من مادة النيتروجلسرين بعد أن يضاف إليه التراب المُترسب على الصخور الجبلية ويخلط المزيج بعد ذلك بـ...

صرخ «حسين» مُجددًا فيه كي يصمت، لكن صوت «جمال عبدالناصر» صك أذنيه، وهو يخطب قائلًا:

ــ إنَّ قوى الاستعمار تظُن أنَّ جمال عبدالناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحًا أمامهم أنَّها الأمة العربية كلها وليس جمال عبدالناصر.

شعر بخناجر تطعنه في حلقه، وحاول أن يستبين ملامح الطاعن لكنَّه لم يتمكن من تمييزها، اشتم رائحة تبغ يعرفه، ثُم سمع صوتًا أجش، فجرى خائفًا، وارتمى خلف إحدى السيارات المُغطاة،

ليجـد يـدًا حانيـة تمسـح عـلى رأسـه، وسـمع صوتًـا رقيقًـا يهمـس في أذنـه:

ــ حسين. لا تخف. أنت ضحية.

كانـت الشـخص الوحيـد الـذي لـم يخـف منـه، وشـعر بـدفء أنفاسـها، وهتـف شـاكرًا:

ــ سُعااااااااااد.

وسـأل نفسـه إن كان وجودهـا حقيقـة أم حُلمًـا. وابتسـم غائبًـا في اللامـكان.

تمت

تذييل

استمدت الرواية من وقائع حقيقية، لذا فإنَّ معظم أبطالها حقيقيون، واستندت الرواية إلى عدة مصادر كان أهمها كتاب «اغتيال أمين باشا عثمان» الصادر من مركز وثائق مصر بإشراف الدكتور نبيل عبدالحميد سيد أحمد، والدكتور يواقيم رزق مرقص، وكتاب «المحاكمة الكبرى في قضية الاغتيالات الكبرى» للطفي عثمان، وكتاب «الكفاح المسلح ضد الإنجليز» لوسيم خالد، فضلًا عن ملف حسين توفيق بمؤسسة الأهرام للصحافة.

الكاتب في سطور

ـ من مواليد القاهرة 1976 ويعمل بالصحافة.

ـ صدر له 15 كتابا متنوعًا من بينها ثلاث روايات هي «ذاكرة الرصاص»،»انقلاب» و«البصاص».

ـ كتب أول سيرة لزينب الوكيل حرم الزعيم مصطفى النحاس تحت عنوان «سيدة مصر»، وحقق كتابه «العسكري الأبيض»عن سيرة الفريق سعد الدين الشاذلي ثلاث طبعات.

ـ فاز بجوائز نقابة الصحفيين المصريين ثلاث مرات عن أفضل مقال سياسي سنة 2013، وأفضل مقال سياسي عام 2015، وأفضل عامود صحفي عام 2015.

ـ صفحة الكاتب على الـfacebook:

Mostafaebeidwriter

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing